أدب الطلب

تأليف
محمد بن علي الشوكاني
المتوفي سنة ١٢٥٠

تحقيق ونشر
مركز الدراسات والأبحاث اليمنية
الجمهورية العربية اليمنية
صنعاء



١٩٧٩/٩/١

بسم الله الرحمن الرحيم

في اوائل القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) أفاق العالم العربي تحت تأثير صعقة كهربائية كبيرة أتت من جراء الغزو الفرنسي لمصر وقد كاد العالم العربي ان يفيق حقا من غفوته المزرية في العصور المتأخرة وان يعيد تقدمه السابق الذي شهدته الحضارة الاسلامية في عصورها الزاهرة ، لولا ان الصحوة كانت خاطئة وأخذ العالم العربي يسير تحت هوة التقليد والمتابعة للغرب وكان ذكاء محمد علي في مصر قد أتى تحت تأثير تبعي للغرب لم يفيد منه في تكوين ذاتيته واستقلاليته ومن هنا ظل العالم العربي والاسلامي يلهث وراء الغرب حتى زمننا الحاضر فلا هو الذي استفاد من الغرب ولا الغرب تركه لحاله .

وكان ظهور الاذكياء في اوائل الافاقة العربية تحت تأثير الغزو السابق ضرورة واقعية تفرضها طبيعة المجتمع والدين الذي عرفته البلاد فكان ظهور محمد علي السنوسي في المغرب وظهور محمد بن علي الشوكاني في اليمن من نتائج الانذار الذي يهدد مجتمعاتنا الاسلامية فما كان منهم الا ان نبهوا مجتمعاتهم بما يحدق بهم ووضعوا الرسائل العديدة في ذلك وان كانت صيحة الشوكاني لم تلاق العناية التامة نتيجة لعدم انتشار فكر الشوكاني في خارج اليمن وانحصاره في زوايا المكتبات والمنازل الخاصة .

ومع ذلك فلا يمنعنا ذلك من الاستفادة من تراث الشوكاني الآن ونشره بين أيدي احفاده ومواطنيه فاليمن الآن يسير في طريق الرقي والنهضة انشاء الله .

★ ★ ★

ولد الشوكاني سنة ١١٧٣ في هجرة (شوكان) من ناحية خولان القريبة من صنعاء ونشأ بصنعاء فقرأ القرآن الكريم على جماعة من المتعلمين وختمه على الفقيه حسن بن عبدالله الهبل وجوده على جماعة من علماء القرآن بصنعاء وحفظ كتاب « الازهار » و « مختصر في الفرائض » للعصيفري و « الملحة في الإعراب » و « الكافية والشافية » لابن الحاجب وكثير من متون العلم في وقته وكان قبل شروعه في الدراسة العلمية مولعا بكتب الادب والتاريخ ثم درس على والده في شرح الازهار وشرح الناظري في الفرائض وقرأ في شرح الازهار على العلامة عبد الرحمن قاسم المداني والعلامة احمد بن عامر الحدائي والعلامة احمد بن محمد الحرازي وبه انتفع في الفقه وعليه تخرج ومن شيوخه في النحو العلامة اسماعيل بن حسن قرأ عليه في قواعد الإعراب والعلامة عبد الله بن اسماعيل النهمي قرأ عليه الكافية وغيرها وقرأ في الاصول والفقه والتفسير والعقائد على جماعة من الشيوخ استقصاهم في كتابه (البدر الطالع) ولم يغادر صنعاء قط .

وبعد تخرجه يتصدى للافادة والتدريس فيأخذ عليه الطلبة من كل صوب وقد امضى في التدريس جل وقته حتى انه كان يلقي نحو ثلاثة عشر درسا في اليوم والليلة وربما بلغت عشرين درسا كما يقول الشوكاني عن نفسه فكان يدرس في كل العلوم كالتفسير والحديث والاصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه وغيره وفوق ذلك كان يجيب على الفتاوى التي ترد اليه من سائر انحاء اليمن حتى كادت الفتوى تقوم

عليه وحده منذ بلوغه العشرين سنة فما فوق ومن منهجه في ذلك انه لا يتقاضى اجرا على ما يكتبه من فتوى واذا قيل له في ذلك قال انا اخذت العلم بلا ثمن فأنا اريد انفاقه كذلك .

وقد ترك مجموعة كبيرة من المؤلفات سنفردها بثبت خاص في آخر كتابه هذا .

وكان قد تولى القضاء العام سنة ١٢٠٩ فوجد فيه على كثرة مشاغله فرصة عملية لتطبيق ما يدعو اليه من نظريات علمية فقهية وما زال محط التكريم والتقدير والاهتمام حتى ادركته الوفاة في صنعاء سنة ١٢٥٠ .

ويقول عنه معاصره لطف الله جحاف انه عاش حياة العلماء ومع ذلك فانه يحب لبس الثياب الفاخرة والعطورات والاكل الانيق فرحم الله الشوكاني رحمة وافرة .

★ ★ ★

وكتابه هذا الذي نقدمه بين يدي القارىء سيرة علمية كتبها الشوكاني لنفسه وفيها يقدم خلاصة تجاربه في العلم والناس وهو يشبه من زاوية واحدة كتاب « المنقذ من الضلال » الذي كتبه ابو حامد الغزالي وقدم فيه تجاربه العلمية ويتميز كتاب الشوكاني بصراحته التامة وعمقه البالغ وهو يهمس بهذا الكتاب في أذن الطالب بمسائل علمية انتهى اليها علمه الواسع ويقدم لنا عدة ابحاث علمية واخرى نفسية يستفيد منها طالب العلم في بحثه فهو يقول مثلا : عليك ان تترك التعصب . فالتعصب هو اصل البلاء في كل الامور التي يقف عندها الطالب فيحرم به منفعة العلم والاستفادة من متشعباته وعدم التعصب يجر الطالب الى الاخذ بالسنن المستمدة من الرسول صلى الله عليه وسلم دون الرجوع الى مذهب عالم

او قول رجل وعلى هذه الناحية ـ اعني بها ناحية الاجتهاد ـ تدور اكثر مصنفات علامتنا الشوكاني وكأنه يريد بهذا القول ان يحرر عالمه الغارق في هوة التقليد والجمود على افكار المشايخ القدامى ليجعلهم يعيشوا مجتمعهم وشريعته الاسلامية المصفّاة من دجل الدجالين وتهويسات المخرفين وقد اصيب مجتمعه بتلك الطامات حتى انهم تركوا الحديث وراءهم •

ثم يعود بعد وضع تلك المقدمات الرائعة في التنفير من التعصب والتقليد وما ينتهي اليه الامر بسببهما من مفاسد ليقدم مسائل هي من اسباب التعصب التي ينتج عنها الجمود والتقليد فيذكر منها :

القول برأي يكون خطا فيصعب على الطالب الرجوع عنه حتى لو اكتشف خطأه فيما بعد ومن ذلك ان يكون صاحب القول الصحيح اصغر من المناظر فيترفع عن الرجوع الى قوله استصغارا بشأنه ومن ذلك المنافسة بين الاقران لاسباب دنيوية مما يضطر كل واحد ان يرد قول الآخر ولو كان صحيحا •

ثم يطنب في شرح الاسباب التي تؤدي الى التعصب وهي كثيرة حفل بها كتابه هذا فلا نطول على القارىء بها هنا •

وينتهي به البحث الى تقسيم المحصّلين الى اربعة اقسام يقدم قبل بيانهم بنبذة قصيرة هي من أهم ما يجب أن يدرسه الطالب أولا ويبين ما يجب تناوله من المتون في القراءة على مختلف طبقاتهم ثم يشرح هذه الطبقات ويحصرها في أربعة أصناف :

(صنف) وهو اعلاهم يهدف من طلب العلم العلم لذاته وتبلغ به الهمة ان يتوسع في الدراسة حتى يصبح مرجعا يأخذ عنه الناس علومهم ولا

يصل الى ذلك الا بعد ان يكون قد قطع مراحل كبيرة من التحصيل والجهد •

وصنف آخر يكون همه من العلم ان يعرف ما يطلبه منه الشارع دون زيادة ولا نقصان فهذا لا يهدف من علمه الا افادة نفسه وما يؤول الى معاده وأهل هذا الصنف هم أقرب الناس الى منهج السلف الصالح وان كان أهل الصنف الاول اكثر منفعة للمسلمين •

وصنف ثالث تقف افهامهم على ما درسوه من متون ومختصرات وربما يستعينوا في ذلك على السؤال الملحاح للعلماء واهل التدريس •

وصنف رابع يهتم بدراسته لغرض يقصده في دينه او دنياه كأن يهتم بطالب العلم لتسيير معاشه ورزقه •

وعلى الرغم من نقد الشوكاني الشديد لبعض علوم المقلدين واهل الرأي الا انه ينصح الطالب ان يدرس كل العلوم ولا يترك شيئا منها الصالح والفاسد ويقول : « لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية ان يأخذ بطرف من فنون هي من اعظم ما يصقل الافكار ويصفي القرائح ويزيد القلب سرورا والنفس انشراحا كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب » • ويقول : « من جمع علم الرياضة والطبيعة والهندسة صار فيلسوفا والعلم بالفلسفة لا ينافي علم الشرع بل يزيده رسوخا » •

ويقول ان فهم علم كل خير من جهله وهو يرد بذلك على جهلة الفقهاء الذين ينتقدون خصومهم من الفلاسفة وغيرهم من غير معرفة لعلومهم • ويقول في ذلك « واني لاعجب من رجل يدّعي الانصاف والمحبة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم ولا يدري به ولا يعرفه

ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدتــه وقد رأينا كثيرا مما عاصرناه ورأيناه يشتغل بالعلم ويصنف في مسائل الشرع فاذا سمع مسألة من فن من الفنون التي لا يعرفها كالعلم بالمنطق والكلام والهيئة ونحو ذلك نفر منه طبعه ونفّر عنه غيره وهو لا يدري ما تلك المسألة ولا يعقلها قط فما احق من كان هكذا بالسكوت والاعتراف بالتقصير » •

وفي هذا الكتاب ينكر على بعض اهــل عصره من المتكسبين بالفقــه لاجل الرياسة والاغراض الدنيوية لا حبا في العلم لذاته كأن يجتهــد في اول طلبــه ويكــد في التحصيل حتى اذا حصل على وظيفــة او منصب (ضرب بالدفاتر وجه الحائط وألقاها خلف الستور لعدم الباعث فيه من جهة نفسه والمنشط على العلــم والمرغب فيه فهذا مثله كمن يتعلم مهنــة ويتدرب فيها حتى يدركهــا ثم يذهب الى دكان فيعتاش بتلك المهنة فلا يعد هذا من اهل العلم في قليل ولا كثير) •

ومن هذا النص نفهم من سلوك الشوكاني انه درس العلم واجتهــد فيه حبا لذات العلم على الرغم من انه تولى بعد ذلك اكبر منصب ينتهي اليه عالم مثله •

وفي آخر الكتاب يعرض لمسائل فقهية ابتدعها المبتدعون لتكون سببا في عرقلة الاجتهاد وتعطيل منهاج الشريعة السمحاء ويقدم لذلك فصلا قيما في ان الشريعة دعت الى جلب المصالــح والتكافؤ بين المسلمين • ثم ينقد الفقهاء في افتعالهم لما أسموه بالحيل الفقهية فأسقطوا بهذا جوهر المقاصد التي أرادها الاسلام من تشريعه وينقدهم بعد ذلك فيما ابتكروه في اصول الفقه وعرف عندهم بالاجماع والقياس والشوكاني ينفرد عن علماء عصره بانكار هذا •

واخيرا يتعرض للبلاء الطارىء الذي دب في اوصال الامة الاسلامية

من تقديس اصحاب القبور والدجالين من المتصوفة والمشعوذين وتضخيمهم لمسألة التمذهب فمزقوا بهذا أوصال الامــة الاسلامية الى جزئيات تفت من قوتهم •

وبعد فالكتاب من اهم ما وضعه الشوكاني من مصنفات علمية يفخــر بها تراثنا اليمني قديمه وحديثه وكان تأليفه في فترة نضوجه العلمي وهو وان لم يشير الى سنة تاريخ وضع كتابه الا اني اخمن انها كانت سنة ١٢١٦ بدليل اشارته الى حادثة ثورة العامة في صنعاء خلال كتابة مصنفه هذا •

★ ★ ★

ولا يظن ظان حين يجد الشوكاني ينقد بشدة بعض جهلة عصره من مدعي العلم انه متحامــل على المذهب الزيدي وعلى علمائه فهذا بعيد عن الصحــة لان الشوكاني يعترف بتبعيته للمذهب وتقديره له وهو يقدمه لقارئه في صورته الناصعة البعيدة عن التعصب والتقليد ولا ادل على ذلك من اهتمامه بشرح بعض كتبــه الرئيسية كالازهار وشفاء الاوام بل انه دافع عن وجهة المذهب الزيدي حول مسألة الصحابة في كتابه ارشاد الغبي وفي غيره •

وحري بالمذهب الزيدي ان يظهر فيه فطاحلــة من المفكرين امثــال الشوكاني ومحمد بن ابراهيم الوزير وصالح بن مهــدي المقبلي والامير الصنعاني ومن قبلهم الامام الهادي يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٢٩٩هـ الذي حارب المقلدة والمجبرة في اكثر من رسالة وضعها • فالمذهب الزيدي قد اخذ على نفسه بظاهرة النقد البناء والحرية في الاختيار والاجتهاد ولم يحصر نفسه في فئة معينة من الشيوخ كما هو الحال عند كثير من اصحاب المذاهب الذين يجعلون من اقوال شيوخهم وأئمتهم منزلة لا يصل اليها

الحديث النبوي اذا صح وتواتر وتلك آفة الامة الاسلامية التي مني بها في عصوره الغابرة .

فكان ظهور العلامة الشوكاني وامثاله ظاهرة صحية يعتز بها المذهب الزيدي وهو يعترف بهذا ــ اعني الشوكاني ــ في كتابه « البدر الطالع » فيقول :

« ان في الديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عددا يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الادلة ويعتمدون على ما صح في امهات الحديث وما يلتحق بها من دواوين الاسلام المشتملة على سنة سيد الانام ولا يرفعون الى التقليد رأسا لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو اهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان واصول ولغة وعدم اخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية ولو لم يكن لهم الا مزية التقيد بنصوص الكتاب والسنة طرح التقليد فان هذه خصيصة خص الله بها اهل هذه الديار في هذه الازمنة الاخيرة ولا توجد في غيرهم الا نادرا ولا ريب ان في سائر الديار المصرية والشامية من العلماء الكبار من لا يبلغ غالب أهل ديارنا الى رتبته ولكنهم لا يفارقون التقليد الذي هو دأب من لا يعقل حجج الله ورسوله » .

وهكذا يبين الشوكاني سر عظمة المذهب الزيدي الذي يكمن في القول بالاجتهاد وعدم التعصب لفئة من دون فئة .

ولولا هذه الخصيصة ما ظهر امثال العلامة محمد بن ابراهيم الوزير في القرن التاسع فهو اذا ما قورن بعالم غيره من علماء الامة الاسلامية

الذين اخذوا على انفسهم نفس المنهج الذي سلكه امثال ابن تيمية ــ مثلا ــ فانه يتفوق عليه بمراحل وخاصة اذا علمنا ان ابن تيمية على الرغم من اجتهاده وتحرره الفكري الا انه لا يخلو من ربقة التقليد بدليل انك لا تقف له على نص واحد ينقد فيه اتباع مذهبه الحنبلي في حين يغرق كتبه بالتهجمات العديدة على اصحاب المذاهب الاخرى من أشعرية ومتصوفة ومتكلمين وغيرهم وهذا ما لا نجده عند مفكرنا ابن الوزير وغيره من مفكري اليمن الذي بلغ ببعضهم ــ وهو ابن الوزير ايضا ــ ان ينقد شيخه العلامة محمد بن علي في مؤلف ضخم يقع في اربعة مجلدات هذا اذا ما قارنا بخصائص اخرى يتميز بها الفكر الاسلامي في اليمن على غيره من اصحاب المذاهب الاخرى في خارج البلاد اليمنية .

ومن هنا يأتي نقد الشوكاني لعلماء عصره وانت تلمس في هذا النقد لهجة مريرة يتميز بها اسلوب الشوكاني الوجداني وربما مكنه من هذا الكلام منصبه الكبير الذي تولاه في زمن الامام المنصور علي بن العباس المتوفى سنة ١٢٢٤ . وهو منصب قضاء اليمن العام بل انه في بعض الاحيان قد استعمل اسلوب الحكام والولاة ، وهو نفسه قد تعرض لارهاب نفسي نتيجة لمذهبه الصريح في الاخذ بالحرية الفكرية وانسمعه يصور لنا ذلك بأسلوبه الفني فيقول في معرض كلامه عن تلك الحادثة التي سببها بعض كتبه :

« ان على الطالب ان يكون صلب الجنان ولا يهوله وما يهوله بعض الناس فانه بهذا يرفع من شأن الحق ويكبت اعداءه » .

ويسرد لنا في ذلك قصصا واقعية حدثت له ثم يقول للطالب :

« هب صدق ما حدسته من القتل والنفي في سبيل عقيدتك وحصول

المحنة عليك ونزول الضرر بك فهل انت كل العالم وجميع الناس ام تظن انك مخلد في هذه الدار ام ماذا عسى ان يكون اذا عملت بالعلم فنهاية ما ينزل عليك ان تكون قتيلا للحق وشهيدا للعلم فتظفر بالسعادة الابدية وتكون قدوة لاهل العلم الى آخر الدهر وخزيا لاهل البدع القاصمة لظهورهم الخ... » .

* * *

المخطوطة التي رجعنا اليها في تحقيق الكتاب نسخة جيدة كتبت سنة ١٢٤٠ اي قبل وفاة الشوكاني بعشر سنوات وهي منسوخة ومقابلة عن مسودة المؤلف .

ثم رأينا ان نستأنس في التحقيق بأصل الكتاب المنسوخ بقلم الشوكاني والمحفوظة بمكتبة الجامع رقم ٣٠٢ فرجعنا اليه ولم نجد هناك فرقا يذكر .

وها نحن الآن نقدم الى القارىء الكريم تحفة من تحف الشوكاني العلمية ليستفيد منها في ذكرى الشوكاني المائة والخمسين سنة .

فرحم الله الشوكاني رحمة الابرار وطيب ثراه .

عبد الله محمد الحبشي

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأصلي وأسلم على رسولك وآله وأسألك التثبيت والهداية وأعوذ بك من الخذلان والغواية .

وبعد فإنّي قد عزمتُ عزم الله لي على الخير على أن أجمع في هذه الورقات ما ينبغي لطالب العلم اعتماده في طلبه والتحلي به في إيراده وإصداره وابتدائه وانتهائه ، وما يشرع فيه ويتدرج إليه حتى يبلغ مراده على وجه يكون به فائزاً بما هو الثمرة والعلة الغائبة التي هي اول الفكر وآخر العمل . وسميته (أدب الطلب ومنتهى الأرب) .

وإني أتصور الآن أن الكلام بمعونة الله ومشيئته لا بدّ أن يتعدى إلى فوائد ومطالب ينتفع بها المنتهي كما ينتفع بها المبتدىء ويحتاج إليها الكامل كما يحتاج إليها المقصّر ويعدها المتحققون بالعرفان من أعظم الهدايا فأول ما على طالب العلم أن يحسن نيته ويصلح طويّته ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له والأمر الذي أراده هو الشريعة التي شرعها الله سبحانه لعباده وبعث بها رسله وأنزل بها كتبه ، ويجرد نفسه عن ان يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا أو يخلطه بما يكدره من الإرادات التي ليست منه كمن يريد به الظفر بشيء من المال أو يصل به إلى نوع من الشرف أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا أو جاهٍ يحصله به ، فإن العلم طيّب لا يقبل غيره ولا يحتمل

الشركة والروائح الخبيثة إذا لم تغلب على الروائح الطيّبة فأقل الأحوال أن تساويها وبمجرّد هذه المساواة لا تبقى للطيّب رائحة والماء الصافي العذب الذي يستلذه شاربه كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح فضلاً عن غير الماء من القاذورات بل تنقص لذته بمجرد وجود القذاة فيه ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات وهيهات ذاك فإن مَن أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة فقد أراد الشطط وغلط أقبح الغلط ، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلّها وأعلاها ، وقد قال الله سبحانه (واعبدوا الله مخلصين له الدين) (١) فقيّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديث (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرءٍ ما نوى) وهو ثابت في دواوين الإسلام كلها ، وقد تلقته الأمة بالقبول ، وان كان أحادياً أجمع جميع أهل الإسلام على ثبوته وصحته . وقد تقرّر في علم البيان والأصول بأن (إنما) من صيغ الحصر وثبت القول بذلك عن الصحابة روي عن ابن عباس أنه احتجّ على اختصاص الربا بالنسية بحديث الربا في النسية ولم يخالفه الصحابة في فهمه وإنما خالفوه في الحكم مستدلين بأدلة أخرى مصرحة بثبوت ربا الفضل ، وكما أن هذا التركيب يفيد ما ذكرناه من الحصر كذلك لفظ الأعمال بالنية أو بالنيات كما ورد في بعض ألفاظ الحديث الثابتة في الصحيح فإن الألف واللام تفيد الاستغراق وهو يستلزم الحصر وهكذا ورد في بعض ألفاظ الحديث لا عمل إلا بنيّة وهي أيضاً من صيغ الحصر بل هي أقواها والمراد بالأعمال هنا أفعال الجوارح حتى اللسان فتدخل الأقوال ومن نازع في ذلك فقد أخطأ ، ثم لا بدّ لقوله بالنيات من تقدير متخلق عام لعدم ورود دليل يدل على التعلق الخاص فيقدر الوجود أو الكون أو الاستقرار أو الثبوت أو ما يفيد مفاد ذلك فيكون التقدير إنما وجود الأعمال وكونها واستقرارها أو ثبوتها بالنيات فلا وجود أو لا كون أو لا استقرار أو لا ثبوت لما لم يكن كذلك وهو ما ليس فيه ، لا يقال أن

تقدير الثبوت والوجود والكون ونحوها يستلزم عدم وجود الذات أو عدم النية وقد وجدت في الخارج، لأنا نقول المراد الذات الشرعية وهي غير موجودة ولا اعتبار بوجودات غير شرعية ونفي الذات هو المعنى الحقيقي فلا يُعدل عنه إلى غيره إلاّ لصارف ولا صارف هنا على أنه لو فُرض وجود صارف إلى المعنى المجازي لم يكن المقدر ههنا إلاّ الصحة أو ما يفيد مفادها وهي مستلزمة لنفي الذات ، فتقرر بمجموع ما ذكرنا أن حصول الأعمال وثبوتها لا يكون إلاّ بالنية ، فلا حصول أو لا ثبوت لما ليس كذلك فكل طاعة من الطاعات وعبادة من العبادات إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طويّة لا اعتداد بها ولا التفات إليها بل هي إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التي هي بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء .

ومن أهم ما يجب على طالب العلم تصوّره عند الشروع واستحضاره عند المباشرة بل وفي كل وقت من أوقات طلبه مبتدياً ومنتهياً متعلّماً وعالماً أن يقرّ في نفسه أن هذا العمل الذي هو بصدده هو تحصيل العلم شرعه اللهلعباده والمعرفة لما تعبّدهم في محكم كتابه وعلى لسان رسوله والوقوف على أسرار كلام الله عزّ وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن هذا المطلب الذي هو بسبب تحصيله ليس هو من المطالب التي يقصدها مَن هو طالب للجاه والمال والرياسة بل هو مطلب يتأجّر به الربّ سبحانه وتكون غايته العلم بما بعث الله به رسله وأنزل فيه كتبه وذلك سبب الظفر من عند الله من خير ومثل هذا لا مدخل فيه لعصبية ولا مجال عنده لحمية بل هو شيء بين الله سبحانهوبين جميع عباده تعبّدهم به تعبّداً مطلقاً أو مشروطاً بشروط وأنه لا يخرج عن ذلك فرد من أقدامهم بل أقوامهم متساوية في ذلك عالمهم وجاهلهم وشريفهم ووضيعهم وقديمهم وحديثهم ليس لواحد منهم أن يدعي أنه غير متعبّد بما تعبّد الله به عباده أو أنه خارج عن التكليف أو أنه غير محكوم

عليه بأحكام الشرع ومطلوب منه ما طلبه الله من سائر الناس فضلاً عن أن يرتقي إلى درجة التشريع وإثبات الأحكام الشرعية وتكليف عباد الله سبحانه بما يصدر عنه من الرأي فإن هذا أمر لم يكن إلاّ لله سبحانه لا لغيره من البشر كائناً من كان إلاّ فيما فوّضه إلى رسله وليس لغير الرّسل في هذا مدخل بل الرّسل منهم متعبّدون بما تعبّدهم الله به مكلّفون بما كلفوا به مطلوبون بما طلبه منهم وتخصيصهم بأمور لا تكون لغيرهم لا قاب خروجهم عن كونهم كذلك بل هم من جملة البشر ومن سائر العباد في التكليف بما جاؤوا به عن الله وقد أخبروا بهذا وأخبر به الله عنهم كما في غير موضع من الكتاب العزيز ومن السنّة النبوية وكما وقفنا عليه في التوراة والأنجيل والزّبور مكرراً في كل واحد منها وإذا كان هذا حال الرسل عليهم الصلاة والسلام في التعبّد بالأوامرّ الشرعية والتوقف في التبليغ على ما أمرهم تعالى بتبليغه فلا يشرعون للناس إلاّ ما أذن لهم به وأمرهم بإبلاغه وليس لهم من الأمر شيء إلاّ مجرّد البلاغ عن الله والتوسط بينه وبين عباده فيما شرعه لهم وتعبّدهم به كما هو معنى الرسول والرسالة لغةً وشرعاً عند مَن يعرف علم اللغة ومصطلح أهل الشرع ولا ينافي هذا وقوع الخلاف بين أئمة الأصول في إثبات اجتهاد الأنبياء ونفيه فإن الخلاف المحرر في هذه المسألة لفظي عند من أنصف وحقق فكيف بحال غيرهم من عباد الله ممن ليس هو من أهل الرسالة ولا جعله الله من أهل العصمة كالصحابة فالتابعين فتابعيهم من أئمة المذاهب فسائر حملة العلم فإن من زعم أن لواحد من هؤلاء أن يحدث في شرع الله ما لم يكن فيه أو يتعبّد عباد الله بما هو خارج عن ما هو منه فقد أعظم على الله الفرية وتقوّل على الله تعالى بما لم يقل وأوقع نفسه في هوّة لا ينجو منها إلاّ طرحهـا في مطرح سوء ووضعها في موضع شرّ ونادى على نفسه بالجهل والجرأة على الله تعالى والمخالفة لما جاءت به الشرائع وما أجمع عليه أهلها فإن هذه رتبة لم تكن إلاّ لله ومنزلة لا ينزلها غيره ولا يدّعيها سواه فمن

ادعاها لغيره تصريحاً أو تلويحاً فقد أدخل نفسه في باب من أبواب الشرك وكان ذلك هو الفائدة التي استفادها من طلبه والربح الذي ربحه من تعبه ونصبه وصار اشتغاله بالعلم جنايةً عليه ومحنةً له ومصيبةً أصاب بها نفسه وبليّة قادها إليها ومعصية كان عنها بالجهل وعدم الطلب في راحة وهكذا من لم يحسن لنفسه الاختيار ولا سلك فيهـا مسالك الأبرار ولا اقتدى بمن أمر الله الاقتداء به من أهل العلم الذين جعلهم محلاّ لذلك ومرجعة .

فإذا تقرر لك هذا وعلمت بما فيه من الضرر العظيم الذي يمحق بركة العلم ويشوّه وجهه ويصيّره بعد أن كان من العبادات التي لا تشبهها طاعة ولا تماثلها قربة معصيةً محضة وخطيئة خالصة تبيّن لك نفع ما أرشد إليه من تحري الإيمان الذي من أعظم أركانه وأهم ما يحصّله لك أن تكون منصفاً لا متعصّب في شيء من هذه الشريعة فإنها وديعة الله عندك وأمانته لديك فلا تخنها وتمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الإسلام بأن تجعل ما يصدر عنه من الرأي ويروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعاً لا متشرعاً ومكلِّفاً لا مكلَّفاً ومتعبِّداً لا متعبَّداً وفي هذا من الخطر عليك والوبال لك ما قدّمناه فإنه وإن فضلك بنوع من أنواع العلم وفاق عليك بمدرك من مدارك الفهم فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكوماً عليه متعبداً بما أنت متعبّد فضلاً عن أن يرتفع عن هذه الدرجة إلى درجة يكون رأيه فيها حجة على العباد واجتهاده لديها لازماً لهم بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق وتقرّ له بعلو الدرجة اللائقة به في العلم معتقداً أن ذلك الاجتهاد الذي اجتهده والاختيار الذي اختاره لنفسه بعد إحاطته بما لا بدّ منه هو الذي لا يجب عليه غيره ولا يلزمه سواه لما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من طرق أنّه (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر) وفي خارج الصحاح من طرق انه إذا أصاب فله عشرة أجور وقد صححه الحاكم في المستدرك وفضل الله

واسع وعطاؤه جمّ وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك أو خطأه خطأ عليه بل عليك أن توطن نفسك على الجد والاجتهاد والبحث بما يدخل تحت طوقك وتحيط به قدرتك حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذي لا معدن سواه والموطن الذي هو أول الفكر وآخر العمل فإن ظفرت به فقد تدرجت من هذه البداية إلى تلك النهاية وإن قصرت عنه لم تكن ملوماً بعد أن قررت عند نفسك وأثبت في تصوّرك أنه لا حجة إلاّ لله ولا حكم إلاّ منه ولا شرع إلاّ ما شرعه وان اجتهادات المجتهدين ليست بحجة على أحد ولا هي من الشريعة في شيء بل هي مختصة بمن صدرت عنه لا تتعداه إلى غيره ولا يجوز له أن يحمل عليه أحداً من عباد الله ولا يحل لغيره أن يقبلها عنه ويجعلها حجة عليه يدين الله بها فإن هذا شيء لم يأذن الله به وأمر لم يسوغه لأحد من عباده ولا يغرّك ما استدل به القائلون بجواز التقليد فإنه لا دلالة في شيء مما جاءوا به على محلّ النزاع وقد أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل وهو (القول المفيد في حكم التقليد) [1] فارجع إليه إن بقي في صدرك حرج فإنك تقف فيه على ما يريحك ويثلج به صدرك ويفرخ عنده روعك .

فإن قلت وكيف يقتدر على تصوّر ما أرشدت الى تصوره ويتمكن من توطين نفسه على ما دللت عليه مَن أراد الشروع في العلم بادىء بدء وهو إذ ذاك لا يدري ما الشرع ولا يتعقل الحجة ولا يعرف الإنصاف ولا يهتدي إلى ما هديته إليه إلاّ بعد أن يتمرّن ويمارس ويكون له من العلم ما يفهم به ما تريد منه ، قلت : ما أرشدتُ إليه يعرف بمجرد العقل وسلامة الفطرة وعدم ورود ما يرد عليها مما يغيرها وعلى فرض ورود شيء من المغيّرات عليها كاعتقاد حقية التقليد ونحوه فارتفاع ذلك يحصل بأدنى تنبيه فإن هذا أمر يقبله الطبع بأول وهلة لمطابقته للواقع وحقيته وكل ما كان كذلك فهو مقبول والطبائع تنفعل له انفعالاً بأيسر عمل وأقل إرشاد وهذا أمرٌ يعلمه كل أحد ويشترك في معرفته أفراد الناس على اختلاف طبقاتهم ولهذا نبّه عليه الشارع

(١) طبع في مصر سنة ١٣٤٠هـ.

فقال (كل مولود يُولدُ على الفطرة ولكن أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه[1] وهو ثابت في الصحيح .

وإني أخبرك أيها الطالب عن نفسي تحدثاً بنعمة الله سبحانه ثم تقريباً لما ذكرت لك من أن هذا الأمر كامن في طبائع الناس ثابت في غرائزهم وانه من الفطرة التي فطر الله الناس عليها إني لما أردت الشروع في طلب العلم ولم أكن إذ ذاك قد عرفت شيئاً منه حتى ما يتعلق بالطهارة والصلاة إلاّ مجرّد ما يتلقاه الصغير من تعليم الكبير لكيفية الصلاة والطهارة ونحوهما فكان أول بحث طالعته بحث كون الفرجين من أعضاء الوضوء في الأزهار وشرحه لأن الشيخ الذي أردت القراءة عليه والأخذ عنه كان قد بلغ في تدريس تلامذته إلى هذا البحث فلما طالعت هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ رأيت اختلاف الأقوال فيه سألت والدي رحمه الله عن تلك الأقوال أيها يكون العمل عليه فقال يكون العمل على ما في الأزهار فقلت صاحب الأزهار أكثر علماً من هؤلاء قال لا قلت فكيف كان اتّباع قوله دون أقوالهم لازماً فقال اصنع كما يصنع الناس فإذا فتح الله عليك فستعرف ما يؤخذ به وما يترك فسألت الله عند ذلك أن يفتح عليّ من معارفه ما يتميز لي به الراجح من المرجوح وكان هذا في أول بحث نظرته وأول موضع درسته وقعدت فيه بين يدي العلم فاعتبر بهذا ولا تستبعد ما أرشدتك إليه فتحرم بركة العلم وتمحق فائدته .

ثم ما زلت بعد كما وصفت لك أنظر في مسائل الخلاف وأدرسها على الشيوخ ولا أعتقد ما يعتقده أهل التقليد من حقية بعضها بمجرد الألف والعادة والاعتقاد الفاسد والاقتداء بمن لا يقتدى به بل أسائل من عنده علم بالأدلة عن الراجح وأبحث في كتب الأدلة عن ما له تعلق بذلك وأستروح إليه وأتعلل به مع الجد في الطلب واستغراق الأوقات في العلم خصوصاً علوم الاجتهاد وما يلتحق بها فإني نشطت إليها نشاطا زايداً لما كنت أتصوره

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة شهير اخرجه الترمذي عن ابي هريرة .

من الانتفاع بها حتى فتح الله بما فتح ومنح ما منح فله الحمد كثيراً حمداً
لا يحاط به ولا يمكن الوقوف على كنهه .

فإذا وطّنتَ نفسك أيها الطالب على الإنصاف وعدم التعصب لمذهب
من المذاهب ولا لعالم من العلماء بل جعلتَ الناس جميعاً بمنزلة واحدة في
كونهم منتمين إلى الشريعة محكوماً عليهم بما لا يجدوا لأنفسهم عنها مخرجاً
ولا يستطيعون تحولاً فضلاً عن أن يرتقوا إلى واحد منهم أو يلزمه تقليده
وقبول قوله فقد فزت بأعظم فوائد العلم وربحت بأنفس فرائده ، ولأمر
ما جعل صلى الله عليه وآله وسلم المنصف أعلم الناس وإن كان مقصراً فإنه
أخرج الحكم في المستدرك وصححه مرفوعاً أعرف الناس أنصرهم بالحق
إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على أسته هكذا
في حفظي فليراجع المستدرك ، فانظر كيف جعل صلى الله عليه وآله وسلم
المنصف أعلم الناس وجعل ذلك هو الخصلة الموجبة للاعلمية ولم يعتبر غيرها
وإنما كان أبصر الناس بالحق إذا اختلف الناس لأنه لم يكن لديه هوى ولا
حميّة ولا عصبية لمذهب من المذاهب أو عالم من العلماء فصفت غريزته عن
أن تتكدر بشيء من ذلك فلم يكن له مأرب ولا مقصد إلاّ مجرد معرفة ما جاء
عن الشارع فظفر بذلك بسهولة من غير مشقّة ولا تعب لأنه موجود إما في
كتاب الله وهو بين أظهرنا في المصاحف الشريفة مفسر بتفاسير العلماء الموثوق
بهم وإما في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي أيضاً موجودة قد
قد ألف أهل العلم في أدلة المسائل من السنّة كتباً متنوعة منها ما هو على
أبواب الفقه ومنها ما هو على حروف المعجم فكان تناوله يسيراً ، ثم قد تكلم
الأئمة على صحتها وحسنها وضعفها فجاؤوا بما لا يحتاج الناظر معه إلى غيره
ووضعوا في ذلك مؤلفات مشتملة على ذلك اشتمالاً على أحسن وجه وأبدع
أسلوب ثم أوضحوا ما في السنّة من الغريب بل جمعوا بين المتعارضات ورجحوا
ما هو راجح ولم يدعوا شيئاً تدعو إليه الحاجة فإذا وقف على ذلك من قد
تأهّل للاجتهاد وظفر بعلومه أخذه أخذ غير أخذ مَن لم يكن كذلك وعمل
عليه مطمئنة به نفسه ساكنة إليه نافرة عن غيره هاربة منه .

واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف والوقوع في موبقات
التعصب كثيرة جداً فمنها وهو أكثرها وقوعاً وأشدها بلاءً ان ينشأ طالب
العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معيّن واقتدوا بعالم
مخصوص وهذا الداء قد طبق في بلاد الإسلام وعم أهلها ولم يخرج عنه إلاّ
أفراد قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة وقد لا يوجد لأن هؤلاء الذين
ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة وأن ما خرج عنها
خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين (وكل حزب بما لديهم فرحون) ، فأهل
هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة
وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك والسبب إنهم نشأوا فوجدوا آباءهم
وسائر قراباتهم على ذلك ورثه الخلف عن السلف والآخر عن الأول وانضم
إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن
وجدوه قبلهم ، وإذا وُجد فيهم مَن يعرف والمحققين فهو لا يستطيع أن
ينطق بذلك مع أخص خواصه وأقرب قرابته فضلاً عن غيره لما يخافه على
نفسه أو على ماله أو على جاهه بحسب اختلاف المقاصد وتباين العزائم الدينية
فيحصل من قصورهم مع تغيّر فطرهم بمن أرشدهم إلى البقاء على ما هم
عليه وانه الحق وخلافه الباطل وسكوت من له فطنة ولديه عرفان وعنده
إنصاف عن تعليمهم معالم الإنصاف وهدايتهم إلى طرق الحق ما يوجب جمودهم
على ما هم عليه واعتقادهم أن الحق مقصور عليه منحصر فيه وأن غيره ليس
من الدين ولا هو من الحق فإذا سمع عالماً من العلماء يفتي بخلافه أو يعمل
على ما لا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ومن الدّعاة إلى البدعة وهذا إذا
عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه فإن تمكن من ذلك فعله معتقداً أنه من
أعظم ما يتقرّب به إلى الله ويدخره في صحائف حسناته ويتاجر الله به ،
وهذا معلوم لكل أحد وقد شاهدنا منه ما لا يأتي عليه حصر ولا تحيط به عبارة
بل قد بلغ هذا المتعصب في معاداة من يخالفه الى حد تجاوز به عداوته لليهود
والنصارى ولو علم المخدوع المغرور بأن سعيه ضلال وعمله وبال وأنه من

(الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً) لأقصر عن غوايته وارعوى عن بعض جهله لكنه جهل قدر نفسه وخسران سعيه وتحامى غيره من أهل المعرفة والفهم إرشاده إلى الحق وتنبيهه على فساد ما هو فيه مخافة على نفسه منه وممن يشابهه في ذلك فتعاظم الأمر وعم البلاء وتفاقم الأمر وعمّ الضرر . ولو نظر ذلك المتعصب بعين الإنصاف ورجع إلى عقله وما تقتضيه فطرته الأصيلة لكف عن فعله وأقصر عن غيه وجهله ولكنه قد حيل بينه وبين ذاك وفرغ الشيطان منه إلاّ من عصم الله وقليل ما هم وهكذا صاحب المعرفة وحامل الحجة وثاقب الفهم لو وطّن نفسه على الإرشاد وتكلم بكلمة الحق ونصر الله سبحانه ونصر دينه وقام في تبيين ما أمره الله بتبيينه لحمد مسراه وشكر عاقبته وأراه الله سبحانه من بدائع صنعه وعجائب وقايته وصدق ما وعد به من قوله (ولينصرنّ الله من ينصره) إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ما يزيده ثباتاً ويشد من عضده ويقوي قلبه في نصرة الحق ومعاضدة أهله .

ومن تأمل الأمر كما ينبغي عرف أن كل قائم بحجة الله إذا بيّنها للناس كما أمره الله وصدع بالحق وضرب بالبدعة في وجه صاحبها وألقم المتعصب حجراً وأوضح له ما شرعه الله لعباده وانه في تمسّكه بمحض الرأي مع وجود البرهان الثابت عن صاحب الشرع كخابط عشوى وراكب العمياء فإن قبل منه ظفر بما وعده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأجر في حديث (لأن يهدي الله بك على يديك رجلاً) الحديث ، وإن لم يقبل منه كان قد فعل ما أوجب الله عليه وخلّص نفسه من كتم العلم الذي أمره الله بإفشائه وخرج من ورطة أن يكون من الذين يكتمون ماأنزل الله من البينات والهدى ودفع الله عنه ما سوّلته له نفسه الأمّارة من الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة وانتهى حاله إلى أن يكون كعبه الأعلى وقوله الأرفع ولم يزده ذلك إلاّ رفعةً في الدنيا والآخرة وحظا عند عباد الله وظفراً بما وعد الله به عباده المتقين ،

وهم وإن أرادوا أن يضعوه بكثرة الأقاويل وتزوير المطاعن وتلفيق العيوب وتواعدوه بإيقاع المكروه به وإنزل الضرر عليه فذلك كله ينتهي إلى خلاف ما قدّروه وعكس ما ظنوه وكانت العاقبة للمتقين كما وعد به عباده المؤمنين (ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله ولا عدوان إلاّ على الظالمين) .

ولقد تتبّعت أحوال كثير من القائمين بالحق المبلغين له كما أمر الله المرشدين إلى الحق فوجدتّهم ينالون من حسن الأحدوثة وبُعد الصّيت وقوّة الشهرة وانتشار العلم ونفاق المؤلفات وطيرانها وقبولها في الناس ما لا يبلغه غيرهم ولا يناله من سواهم وسأذكر لك هنا جماعةً ممن اشتهرت مذاهبهم وانتشرت أقوالهم وطارت مصنفاتّهم بعدهم وما أصابهم من المحنة ما نالهم كإمام دار الهجرة مالك بن أنس فإنه بلي بخصوم وعاداه ملوك ، فنشر الله مذاهبه في الأقطار واشتهر من أقواله ما ملأ الأنجاد والأغوار كذلك الإمام أحمد بن حنبل فإنه وقع له من المحن التي هي منح ما لا يخفى على من له اطّلاع وضُرب بين يدي المعتصم العباسي ضرباً مبرحاً وهمّوا بقتله مرة بعد مرة وسجنوه في الأمكنة المظلمة وكبلوه بالحديد ونوعوا له أنواع العذاب فنشر الله من علومه ما لا يحتاج إلى بيان ولا يفتقر إلى إيضاح وكانت العاقبة له فصار بعد ذلك إمام الدنيا غير مدافع ومرجع أهل العلم غير منازع ودوّن الناس كلماته وانتفعوا بها وكان يتكلم بالكلمة فتطير في الآفاق فإذا تكلم بالكلمة في رجل بجرح تبعه الناس وبطل علم المجروح وإن تكلّم في رجل بتعديل كان هو العدل الذي لا يحتاج بعد تعديله إلى غيره ، ثم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري أصابه من محمد بن يحيى الذهلي[1] وأتباعه من المحنة ما

---

(١) هو محمد بن يحيى بن عبد الله الذهلي بالولا النيسابوري ولد سنة ١٧٢ وكان من حفاظ الحديث له رحلة واسعة فزار بغداد والبصرةوغيرهما في طلب الحديث واشتهر وروى عنه البخاري اربعة وثلاثين حديثا وانتهت اليه مشيخة الحديث بخراسان وجمع حديث الزهري توفي سنة ٢٥٨ .

مات به كمداً ، ثم جعل الله تعالى كتابه الجامع الصحيح كماترى أصح كتاب في الدنيا وأشهر مؤلف في الحديث وأجلّ دفتر من دفاتر الإسلام ، ثم انظر أحوال من جاء بعد هؤلاء بدهر طويل كابن حزم المغربي [١] فإنه أصيب بمحن عظيمة بسبب ما أظهره من إرشاد الناس إلى الدليل والصدع بالحق وتضعيف علم الرأي حتى أفضى ذلك إلى امتحان الملوك له وإيقاعهم به وتشريده من مواطنه وتحريق مصنفاته ومع ذلك نشر الله من علومه ما صار عند كل فرقة وفي كل بلاد وبين ظهراني كل طائفة ، ثم كذلك شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية أحمد بن عبد الحليم [٢] فإنه لما أبان للناس فساد الرأي وأرشدهم إلى التمسك بالدليل وصدع بما أمره الله به ولم يخف في الله لومة لائم قام عليه طوائف من المنتمين إلى العلم ، المنتحلين له من أهل المناصب وغيرهم فما زالوا يحاولون ويصاولون ويسعون به إلى الملوك ويعقدون له مجالس المناظرة ويفتون تارة بسفك دمه وتارةً بتشريده وتارةً باعتقاله فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه وترجمه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه بتراجم لم يتيسر لهم مثلها ولا ما يقارنها لأحد من الذين يتعصبون لهم ويدأبون في نشر فضائلهم ويطرؤون في إطرائهم وجعل الله له من ارتفاع الصيت وبُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه واشتغلوا بأمره فعاداه قوم وخالفهم آخرون والكل معترفون بقدره معظمون له خاضعون لعلومه واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهار حتى ذكره المترجمون لهم في تراجمهم فيقولون وكان من المائلين إلى ابن تيمية أو المائلين عنه .

وهذه الإشارة إنما هي لقصد الإيضاح لك لتعلم بما يصنعه الله لعباده

(١) المغربي الاندلسي من مشاهير العلماء توفي سنة ٤٥٦ .
(٢) وفاته سنة ٧٢٨ .

وعلماء دينه وحملة حجته. وفي كل عصر من هذا الجنس من تقوم به الحجة على العباد .

وانظر في أهل قطرنا فإنه لا يخفى عليك حالهم إن كنت ممن له اطلاع على أخبار الناس وبحث عن أحوالهم كالسيد الإمام محمد بن إبراهيم الوزير [١] فإنه قام داعياً إلى الدليل في ديارنا هذه في وقت غربة وزمان ميل من الناس إلى التقليد واعراض عن العمل بالبرهان فناله من أهل عصره من المحن ما اشتملت عليه مصنفاته حتى ترسل عليه من ترسل من مشائخه برسالة حاصلها الإنكار عليه لما هو فيه من العمل بالدليل وطرح التقليد وقام عليه كثير من الناس وثلبوه بالنظم والنثر ولم يضير ذلك شيئاً بل نشر الله من علومه وأظهر من معارفه ما طار كل مطار .

ثم جاء بعده مع طول فصل وبُعد عهد السيد العلامة الحسين أحمد الجلال [٢] والعلامة صالح بن مهدي المقبلي [٣] فنالا من المحن والعداوة من أهل عصرهما ما حمل الأول على استقراره في هجرة الجراف [٤] منعزلاً عن الناس وحمل الثاني على الارتحال إلى الحرم الشريف والاستقرار فيه حتى توفاه الله فيه ومع هذا فنشر الله من علومهما وأظهر مؤلفاتهما ما لم يكن لأحد من أهل عصرهما ما يقاربه فضلاً عن أن يساويه .

ثم كان في العصر الذي قبل عصرنا هذا السيد العلامة محمد بن إسماعيل

(١) من مشاهير العلماء في اليمن توفي سنة ٨٤٠ .
(٢) توفي سنة ١٠٨٤ له مؤلفات كثيرة (انظر ترجمته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ١٢٩) .
(٣) توفي سنة ١١٠٨ من مؤلفاته العلم الشامخ وهو مطبوع (مصادر ص ١٣٢) .
(٤) من ضواحي صنعاء من الجهة الشمالية .

الأمير [1] وله في القيام بحجة الله والإرشاد إليها وتنفير الناس عن العمل بالرأي وترغيبهم إلى علم الرواية ما هو مشهور معروف فعاداه أهل عصره وسعوا به إلى الملوك ولم يتركوا في السعي عليه بما يضره جَهداً وطالت بينه وبينهم المصاولة والمقاولة ولم يظفروا منه بطائل ولا نقصوه من جاه ولا مال ورفعه الله عليهم وجعل كلمته العليا ونشر له من المصنفات المطوّلة والمختصرة ما هو معلوم عند أهل هذه الديار ولم ينتشر لمعاصريه المؤذين له المبالغين في ضرره بحث من المباحث العلمية فضلاً عن رسالة فضلاً عن مؤلف بسيط فهذه عادة الله في عباده فاعلمها ويتقنها .

وكان شيخنا السيد العلامة عبد القادر بن أحمد [2] رحمه الله من أكثر الناس نشراً للحق وإرشاداً له وتلقيناً له وهدماً لما يخالفه فجعله الله علماً يُقتدى به ومرجعاً يأوي إليه أهل عصره وأخضع له كل مخالف له واعترف له كل واحد بأنه إمام عصره وعالمه ومجتهده ولم يضره ما كان يناله به المخالفون له من الغيبة التي هي غاية ما يقدرون عليه ونهاية ما يبلغون إليه .

وإني أخبرك أيها الطالب عن نفسي وعن الحوادث الجارية بيني وبين أهل عصري ليزداد يقينك وتكون على بصيرة فيما أرشدتك إليه اعلم أني كنت عند شروعي في الطلب على الصفة التي ذكرتها لك سابقاً ثم كنت بعد التمكن من البحث عن الدليل والنظر في مجاميعه أذكر في مجالس شيوخي ومواقف تدريسهم وعند الاجتماع بأهل العلم ما قد عرفته من ذلك لا سيما عند الكلام في شيء من الرأي يخالف الدليل أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف وترك الدليل القوي أو أخذ بدليل عام وبعمل

(١) توفي ١١٨٢ من اجلاء العلماء (مصادر ص ٦٢) .
(٢) توفي سنة ١٢٠٧ (انظر مصادر الفكر الاسلامي ص ٢٣٤) .

خاص أو بمطلق وطرح المقيّد أو بمجمل ولم يعرف المبيّن بمنسوخ ولم ينتبه للناسخ أو بأول ولم يعرف بآخر أو بمحض رأي ولم يبلغه أن في تلك المسألة دليلاً يتعيّن عليه العمل به فكنت إذا سمعت بشيء من هذا لا سيما في مواقف المتعصبين ومجامع الجامدين تكلمت بما بلغت إليه مقدرتي وأقل الأحوال أن أقول استدلّ هذا بكذا وفلان المخالف له بكذا ودليل فلان أرجح لكذا ، فما زال أسراء التقليد يستنكرون ذلك ويستعظمونه لعدم الفهم به وقبول طبائعهم له حتى ولد ذلك في قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم .

ثم كنت إذا فرغت من أخذ فن من الفنون أو مصنّف من المصنفات على شيوخي أقبل جماعة من الطلبة إليّ وعوّلوا عليّ في تدريسهم في ذلك فكان يأخذ أترابي شيئاً من الحسد الذي لا يخلو عنه إلاّ القليل ثم تكاثر الطلبة عليّ في علوم الاجتهاد وغيرها وأخذوا عني أخذاً خالياً عن التعصب سالماً من الاعتساف فكنتُ أقرر لهم دليل كل مسألة وأوضح لهم الراجح فيها وأصرّح لهم بوجوب المصير إلى ذلك وكانوا قد تمرّنوا وعرفوا علوم الاجتهاد وذهب عنهم ما تكدرت به فطرهم من المغيّرات فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسداً وبغضاً وأطلقوا ألسنتهم بذلك وكان مع ذلك ترد إليّ أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين بصنعاء وغيرهم من أهل البلاد البعيدة والمدائن النائية فأحرر الجوابات عليهم في رسائل مستقلة ويرغب تلامذتي لتحصيل ذلك وتنتشر في الناس فإذا وقف عليه المتعصبون ورأوه يخالف ما يعتقدون استشاطوا غضباً وعرضوا ذلك على مَن يرجون منه الموافقة والمساعدة فمن ثالب بلسانه ومعترض بقلمه وأنا مصمّم على ما أنا فيه لا أنثني عنه ولا أميل عن الطريقة التي أنا فيها وكثيراً ما يرفعون ذلك إلى من لا علم عنده من رؤساء الدولة الذين لهم في الناس شهرة وصولة فكان في كل حين يبلغني من ذلك العجب ويناصحني من يظهر لي المودّة ومن لاتخفى عليه حقيقة ما أقوله وحقيته مع اعترافهم بأن ما أسلكه هو ما أخذه الله على الذين حملوا الحجة

لكنهم يتعللون بأن الواجب يسقط بدون ذلك ويذكرون أحوال أهل الزمان وما هم عليه وما يخشونه من العواقب فلا أرفع لذلك رأساً ولا أعوّل عليه ، وكنت أتصوّر في نفسي أن هؤلاء الذين يتعصبون عليّ ويشغلون أنفسهم بذكري والحطّ عليّ هم أحد رجلين إمّا جاهل لا يدري أنه جاهل ولا يهتدي بالهداية ولا يعرف الصواب وهذا لا يعبأ الله به أو رجل متميز له حظ من علم وحصّة من فهم لكنه قد أعمى بصيرته الحسد وذهب بإنصافه حب الجاه وهذا لا ينجع فيه الدواء ولا تنفع عنده المحاسنة ولا يؤثر فيه شيء ، فما زلت على ذلك وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرّة والمصلحة العائدة على ما أنا فيه بما هم فيه أكثر من المفسدة .

ولقد اشتد بلاهم وتفاقمت محنتهم في بعض الواقعات فقاموا قومة شيطانية وصالوا صولة جاهلية وذلك انه ورد إليّ سؤال في شأن ما يقع من كثير من المقصّرين من الذم لجماعة من الصحابة صانهم الله وغضب على من ينتهك أعراضهم المصونة فأجبت برسالة (١) ذكرت فيها ما كان عليه أئمة الزيدية من أهل البيت وغيرهم ونقلت اجماعهم من طرق وذكر كلمات قالها جماعة من أكابر الأئمة وظننت أن نقل اجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية ويردّهم عن طرق الغواية فقاموا بأجمعهم وحرروا جوابات زيادة على عشرين رسالة (٢) مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا ينفق إلاّ على بهيمة واشتغلوا بتحرير ذلك وأشاعوه بين العامة ولم يجدوا عند الخاصة إلاّ الموافقة تقية لشرهم وفراراً من معرّتهم وزاد الشر وتفاقم حتى أبلغوا ذلك إلى أرباب

(١) هي رسالته المسماة ارشاد الغبي الى مذهب اهل البيت في صحب النبي مخطوطة .

(٢) جمعت في كتاب بعنوان اظهار الخبي وانظر كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ١٤١ .

الدولة والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم وأبلغوه إلى مقام خليفة العصر (١) حفظه الله وعظم القضية عليه جماعة ممن يتصل به فمنهم من يشير عليه بحبسي ومنهم من ينتصح له بإخراجي من مواطني وهو ساكت لا يلتفت إلى شيء من ذلك وقاية من الله وحماية لأهل العلم ومدافعة عن القائمين بالحجة في عباده ، ولم تكن لي إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة ولا اتصال بهم ، واشتد لهج الناس بهذه القضية وجعلوها حديثهم في مجامعهم وكان من بيني وبينهم مودّة يشيرون عليّ بالفرار أو الاستتار وأجمع رأيهم على أني إذا لم أساعدهم على أحد الأمرين فلا أعود إلى مجالس التدريس التي كنت أدرّس بها في جامع صنعاء فنظرت ما عند تلامذتي فوجدت أنفسهم قوية ورغبتهم في التدريس شديدة إلاّ القليل منهم فقد كادوا يستترون من الخوف ويفرون من الفزع فلم أجد لي رخصةً في البعد عن مجالس التدريس وعدت وكان أول درس عاودته عند وصولي إلى الجامع في أصول الفقه بين العشائين فانقلب من بالجامع وتركوا ما هم فيه من الدرس والتدريس ووقفوا ينظرون إليّ متعجبين من الإقدام على ذلك لِما قد تقدر عندهم من عظم الأمر وكثرة التهويل والوعيد والترهيب حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء في صنعاء فضلاً عن المعاودة للتدريس ثم وصل وأنا في حال ذلك الدرس جماعة لم تجرِ لهم عادة بالوصول إلى الجامع وهم متلفعون بثيابهم لا يعرفون وكانوا ينظرون إليّ ويقفون قليلاً ثم يذهبون ويأتي آخرون حتى لم يبقَ شك مع أحد أنها إن لم تحصل منهم فتنة في الحال وقعت مع خروجي من الجامع فخرجت من الجامع وهم واقفون على مواضع من طريقي ، فما سمعت من أحدهم كلمة فضلاً عن غير ذلك وعاودت الدروس كلها وتكاثر الطلبة المتميزون زيادة على ما كانوا عليه في كل فن وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدي مخافةً على أنفسهم من الدولة والعامة فكان الأمر على خلاف

(١) هو المنصور علي بن العباس المتوفى سنة ١٢٢٤ .

ما ظنه وكنت أتعجب من ذلك وأقول في نفسي هـذا من صنع الله الحسن
ولطفه الخفي لأن من كان الحامل له على ما وقع الحسد والمنافسة لم ينجح
كيده بل كان الأمر على خلاف ما يريد .

ومن عجيب ما أشرحه لك أنه كان في درس بالجامع بعد صلاة العشاء
الآخرة في صحيح البخاري يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية
وإثبات السماع جماعة ويحضره من عامة الناس جمع جم لقصد الاستفادة
بالحضور ، فسمع ذلك وزير رافضي من وزراء الدولة وكانت له صولة
وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد وله تعلق بأمر الأجناد فحمله ذلك على أن
استدعى رجلاً من المساعدين له في مذهبه فنصب له كرسياً في مسجد من
مساجد صنعاء ثم كان يسرج له الشمع الكثير في ذلك المسجد حتى يصير
عجباً من العجب فتسامع به الناس وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة
والنظر إلى ما لا عهد به والرجل الذي على الكرسي يملي عليهم في كل وقت
ما يتضمن الثلب لجماعة من الصحابة صانهم الله ، ثم لم يكتف ذلك الوزير
بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إلي لقصد
الفتنة فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة ودخلوا الجامع على هيئة منكرة
وشاهدتهم عند وصولهم ، فلما فرغت الصلاة قال لي جماعة من معارفي إنه
يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري فلم تطب نفسي بذلك واستعنت
بالله وتوكلت عليه وقعدت في المكان المعتاد وقد حضر بعض التلاميذ وبعضهم
لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصول أولئك الأجناد ، ولما عقدت الدرس
وأخذت في الإملاء رأيت أولئك يدورون حول الحلقة من جانب إلى جانب
ويقعقعون بالسلاح ويضربون سلاح بعضهم في بعض ثم ذهبوا ولم يقع شيء
بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته . ثم أن ذلك الوزير أكثر السعاية إلى المقام
الإمامي هو ومن يوافقه على هواه ويطابقه في اعتقاده من أعوان الدولة واستعانوا
برسائل بعضها من علماء السوء وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يظنهم

من لا خبرة له في عداد أهل العلم . وحاصل ما في تلك الرسائل إني قد أردت
تبديل مذهب أهل البيت عليهم السلام وانه إذا لم يتدارك ذلك الخليفة بطل
مذهب آبائه ونحو هذا من العبارات المفتراة والكلمات الخشنة والأكاذيب
الملفقة . ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعني وإياه
طلب العلم ونظمنا جميعاً عقد المودة وسابق الإلفة فرأيته يقول فيها مخاطباً
لإمام العصر ان الذي ينبغي له ويجب عليه أن يأمر جماعة يكبسون منزلي
ويهجمون مسكني ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من
الاجتهادات المخالفة للمذهب ، فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب
ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدي لما صدقت وفيها من هذا الزور
والبهت والكلمات الفظيعة شيء كثير وهي في نحو ثلاثة كراريس ، وعند
تحرير هذه الأحرف [١] قد انتقم الله منه فشرده أمام العصر إلى جزيرة من
جزائر البحر مقروناً في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة
وأهلكه الله في تلك الجزيرة (ولا يظلم ربك أحداً) وكان حدوث هذه الحادثة
عليه ونزول هذه الفاقرة به بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضي الذي
ألف له تلك الرسالة استجلاباً لما عنده وطلباً للقرب إليه وتودداً له . ومن
جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير رسالة إلى بعض
مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية وفيها من الزور ومحض الكذب
ما لا يظن بمن هو دونه وما حمله على ذلك إلا الطمع في الوزير فعاقبه الله
بقطع ما كان يجري عليه من الخليفة وأصيب بفقر مدقع وفاقة شديدة حتى
صار عبرة من العبر وكان يفد إلي يشكو حاله وما هو فيه من الجهد والبلاء

(١) **هذا الفقيه المشار اليه هنا هو الفقيه اسماعيل بن عز الدين بن محمد النعمي اشترك مع العامـة في ثورتهم ضد الشوكاني سنة ١٢١٦ ونفي الى جزيرة زيلع توفي سنة ١٢٢٠ وله رسالـة في الرد على الشوكاني بعنـوان السيف الباتر المضي لكشف الايهام والتمويه في ارشاد الغبي (انظر كتابنا مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ص ١٣٩) .**

فأبلغ جهدي في منفعته وما يسد فاقته وهكذا جماعة من المترسلين عليّ المبالغين في إنزال الضرر بي أرجعهم الله إليّ راغمين وأحوجهم لمعونتي مضطرين ولم أعاقب أحداً منهم بما أسلفه ولا كافيته بما قدّمه . فانظر صنع الله مع من عودي وأوذي لأجل تمسكه بالإنصاف ووقوفه عند الحق . اللهم إني أحمدك على جميل صنعك وجزيل فضلك وجميل طولك حمداً يتجدّد بتجدّد الأوقات ويتعدد بعدد المعدودات . وإني لم أكن أهلاً لما أوليته فأنت له أهل وبه حقيق ، لا أحصي ثناء عليك أ ت كما أثنيت على نفسك .

ومما أسوقه إليك أيها الطالب وأعجبك منه أنه كان لي صديق بمدينة من مدائن اليمن جمعني وإياه الطلب والإلفة والوداد وكان عالي القدر رفيع المنزلة في العلم كبير السن بعيد الصيت مشهور الذكر ولعله كان يفيد الطلبة في الفقه قبل مولدي وقرأ عليه بعض شيوخي ورحل إلى صنعاء وطلب علوم الاجتهاد في أيام طلبي لها وكان بيني وبينه من المودة أمر عظيم وله معي مذاكرات ومباحثات وترسلات في فوائد كثيرة هي في مجموع رسائلي ، فلما حدث ما حدث من قيام ما قام عليّ من الخاصة والعامة وكان إذ ذاك قد فارق صنعاء وعاد إلى مدينته وعكف عليه الطلبة واستفادوا به في الفنون فقاموا عليه وقالوا أنه بلغ إلينا ما حدث من أليفك الذي تكثر الثناء عليه والمذاكرة له من مخالفة المذهب والتظهر بالاجتهاد ، فإن كنت موافقاً له قمنا عليك كما قام عليه أهل صنعاء وإن كنت تخالفه فيما ظهر منه فترسّل عليه فوصلت منه رسالة في عدة كراريس وما حمله على ذلك إلاّ المداراة لهم والتقية منهم وظاهرها المخالفة وباطنها الموافقة مع حسن عبارة وجودة مسلك ولم أستنكر ذلك منه ولا انّبه عليه فإن الصدع بالحق والتظهر بما لا يوافق الناس من الحق لا يستطيعه إلاّ الأفراد وقليل ما هم .

ووصلت رسائل من جماعة آخرين في مدائن بعيدة من صنعاء فيها ما هو موافق لي مقوٍّ لما ذهبت إليه وفيها ما هو مخالف لذلك (ولا يزالون مختلفين)

وليس بعجيب خذلان من خذلني ولم يقم بنصري ولم يصدع بالحق في أمري من علماء صنعاء العارفين بالعلوم المتمسكين منها بجانب يفرقون به بين الحق والباطل فثورة العامة يتقيها غالب الناس ولا سيما إذا حطبوا في جبل من ينتمي إلى دولة ويتصل بملك ويتأيد بصولة ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره وينصر دينه ويؤيد شرعه .

وبالجملة فالشرح لما حدث لي من الحوادث في هذا الشأن يطول ولو ذهبت أسردها وأذكر ما تعقبها من ألطاف الله التي هي من أعظم العبر ومنحه التي لا تبلغها الأفهام ولا تحيط بها الأوهام ولم يفِ بذلك إلاّ مصنف مستقل وليس المقصود ههنا إلاّ ما نحن بصدده من تنشيط طالب العلم وترغيبه في التمسك بالإنصاف والتحلي بحلية الحق والتلبس بلباس الصدق وتعريفه بأن قيامه في هذا المقام كما أنه سبب الفوز بخير الآخرة هو أيضاً سبب الوصول إلى ما تطلبه أهل الدنيا من الدنيا وأن له الثار على من خالفه والظهور على من ناوأه في حياته وبعد موته وأنه بهذه الخصلة الشريفة التي هي الإنصاف ينشر الله علومه ويظهر في الناس أمره ويرفعه إلى مقام لا يصل إلى أدنى مراتبه من يتعصب في الدين ويطلب رضاء الناس بإسخاط رب العالمين .

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف ويصدر عنها البعد عن الحق وكتم الحجة وعدم ما أوجبه الله من البيان حب الشرف والمـال اللذين هما أعداء على الإنسان من ذئبين ضاريين كما وصف ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن هذا هو السبب الذي حرف به أهل الكتاب كتب الله المنزلة على رسله وكتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدى كما وقع من أحبار اليهود ، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز وأخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الثابت عنه في الصحيح ، وبهذا السبب بقي من بقي على الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم وبه نافق من نافق ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السبب

عجائب مودعة بطون كتب التاريخ وكم من عالم قد مال إلى هوى ملك من الملوك فوافقه على ما يريد وحسن له ما يخالف الشرع وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب بل قد وضع بعض المحدثين للملوك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما وقع من وهب بن وهب [1] البختري مع الرشيد ووقع من آخر في حديث لا سبق إلاّ في خفّ أو حافر أو نصل فزاد في الحديث أو جناح موافقة للملك الذي رآه يلعب بالحمام ويسابق بينها ووضع جماعة مناقب لقوم وآخرون مثالب لآخرين لا حامل لهم على ذلك إلاّ حب الدنيا والطمع في الحطام والتقرب إلى أهل الرئاسة بما ينفق لديهم ويروج عليهم نسأل الله الهداية والحماية من الغواية .

وكم قد سمعنا ورأينا في عصرنا من أهله فكثيراً ما نرى الرجل يعتقد في نفسه اعتقاداً يوافق الحق ويطابق الصواب فإذا تكلم عند من يخالفه في ذلك ويميل إلى شيء من البدعة فضلاً عن أن يكون من أهل الرئاسة وممن بيده شيء من الدنيا فضلاً عن أن يكون من الملوك وافقه وساعده وسانده وعاضده وأقل الأحوال أن يكتم ما يعتقده من الحق ويغمط ما قد تبين له من الصواب عند من لا يجوز منه ضرراً ولا يقدّر منه نفعاً فكيف ممن عداه وهذا في الحقيقة من تأثير الدنيا على الدين والعاجلة على الآجلة ، وهو لو أمعن نظره وتدبر ما وقع فيه لعلم أن ميله إلى هوى رجل أو رجلين أو ثلاثة أو أكثر مما يجاملهم في ذلك المجلس ويكتم الحق مطابقة لهم واستجلاباً لمودتهم واستبقاء لما لديهم وفراراً من نفورهم هو من التقصير بجانب الحق

(1) هو ابو البختري وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمعه من بني المطلب بن اسد بن عبد العزى قاض من العلماء له معرفة بالاخبار والانساب متهم بوضع الحديث وولاه الرشيد القضاء بعسكر المهدي قال الامام احمد بن حنبل هو اكذب الناس كان يضع الحديث غالب ليله توفي سنة ٢٠٠ (الاعلام ج ٩ ص ١٥١) .

والتعظيم لجانب الباطل ، فلولا أن هؤلاء النفر لديه أعظم من الرب سبحانه لما مال إلى هواهم وترك ما يعلم أنه مراد الله سبحانه ومطلبه من عباده .

وكفاك بهذه الفاقرة العظيمة والداهية الجسيمة ، فإن رجلاً يكون عنده فرد من أفراد عباد الله أعظم قدراً من الله سبحانه ليس بعد تجريه على الله شيء ، أرشدنا الله إلى الحق بحوله وطوله .

ومن غريب ما أحكيه لك من تأثر هوى الملوك والميل إلى ما يوافق ما ينفق عندهم واقعةٌ معي مشاهدة لي وإن كانت الوقائع في هذا الباب لا يأتي عليها الحصر وهي مودعة بطون الدفاتر معروفة عند من له خبرة بأحوال من تقدم . وذلك أنه عقد خليفة العصر حفظه الله مجلساً جمع فيه وزرائه وأكابر أولاده وكثيراً من خواصه وحضر هذا المجلس من أهل العلم ثلاثة أنا أحدهم وكان عقد هذا المجلس لطلب المشورة في فتنة حدثت بسبب بعض الملوك ووصول جيوشه إلى بعض الأقطار الإمامية وتخاذل كثير من الرعايا واضطرابهم وارتجاف اليمن بأسره بذلك السبب فأشرت إلى الخليفة بأن أعظم ما يتوصل به إلى دفع هذه النازلة هو العدل في الرعية والاقتصار في المأخوذ منهم على ما ورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء وإخلاص النية في ذلك وإشعار الرعية في جميع الأقطار والعزم عليه على الاستمرار ، فإن ذلك من الأسباب التي تدفع كل الدفع وتنجع أبلغ النجع فإن اضطراب الرعايا ورفع رؤوسهم إلى الواصلين ليس إلاّ لما يبلغهم من اقتصارهم على الحقوق الواجبة وليس ذلك لرغبة في شيء آخر . فلما فرغت من أداء النصيحة انبرى أحد الرجلين الآخرين وهو ممن حظي من العلم بنصيب وافر ومن الشرف بمرتبة عليّة ومن السن بنحو ثمانين سنة وقال إن الدولة لا تقوم بذلك ولا تتم إلاّ بما جرت به العادة من الجبايات ونحوها ثم أطال في هذا بما يتحير عنده السامع ويشترك في العلم بمخالفته للشريعة العالم والجاهل والمقصّر والكامل وذكر أنه قد

أخذ الجباية ونحوها من الرعية فلان وفلان وعدد جماعة من أئمة العلم ممن لهم شهرة وللناس فيهم اعتقاد . وهذا مع كونه عناداً للشريعة وخلافاً لما جاءت به وجرأة على الله نصباً للخلاف بينه وبين من عصاه وخالف ما شرعه هو أيضاً مجازفة بحتة في الرواية عن الذين سماهم ، بل هو محض الكذب . وإنما يروى على بعض المتأخرين ممن لم يسمّه ذلك القائل وهذا البعض الذي يروى عنه ذلك إنما فعله أياماً يسيرة ثم طوى بساطه وعلم أنه خلاف ما شرعه الله فتركه . وإنما حمله على ذلك رأي رآه وتدبير دبّره ثم تبين له فساده ، فانظر أرشدك الله ما مقدار ما قاله هذا القائل في ذلك الجمع الحافل الذي شمل الإمام وجميع المباشرين للأعمال الدولية والناظرين في أمر الرعية . ولم ينتفع هذا القائل بمقالته لا من زيادة جاه ولا مال بل غاية ما استفاده ونهاية ما وصل إليه اجتماع الألسن على ذمّه . واستعظام الناس لما صدر منه .

وهكذا جرت عادة الله في عباده فإنه لا ينال من أراد الدنيا بالدين إلاّ وبالاً وخسراناً عاجلاً أم آجلاً خصوصاً من كان من الحاملين لحجة الله المأمورين بإبلاغها إلى العباد . فإن خيره في الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه على حدود الشريعة فإن زاغ عنها زاغ عنه . وقد صرح الله سبحانه بما يفيد هذا في غير موضع من كتابه العزيز . فأنت أيها الحامل للعلم لا تزال بخير ما دمت قائماً بالحجة مرشداً إليها ناشراً لها غير مستبدل بها عرضاً من أعراض الدنيا أو مرضاةً من أهلها .

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف وكتم الحق وغمط الصواب ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء فإن الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك ومعرفة بالحق ورغوب إليه فيخطىء في المناظرة ويحمله الهوى ومحبة الغلب وطلب الظهور على التصميم على مقاله وتصحيح خطأه وتقويم معوجّه بالجدال والمراء . وهذه الذريعة الإبليسية والدّسيسة الشيطانية قد وقع بها من وقع في مهاوي من التعصبات ومزالق من التعسفات عظيمة

الخطر مخوفة العاقبة . وقد شاهدنا من هذا الجنس ما يقضي منه العجب ، فإن بعض من يسلك هذا المسلك قد يجاوز ذلك إلى الحلف بالإيمان على حقيقة ما قاله وصواب ما ذهب إليه . وكثيراً منهم يعترف بعد أن تذهب عنه سورة الغضب وتزول عنه نزوة الشيطان بأنه فعل ذلك تعمداً مع علمه بأن الذي قاله غير صواب . وقد وقع مع جماعة من السلف من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر وصار ذلك مذاهب تُروى وأقوال تُحكى كما يعرف ذلك من يعرف .

ومن الأسباب المقتضية للتعصب أن يكون بعض سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول ومال إلى رأي فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب والقول بذلك القول وإن كان يعلم أنه خطأ وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه أنه صحيح ويتطلب له الحجج ويبحث عن ما يقوّيه وإن كان بمكان من الضعف ومحل من السقوط وليس له في هذا حظ ولا معه فائدة إلاّ مجرد المباهاة لمن يعرفه والتزيّن لأصحابه بأنه في العلم معرق وإن بيته قديم فيه . ولهذا ترى كثيراً منهم يستكثر من قال جدنا قال والدنا واختار كذا صنع كذا فعل كذا . وهذا لا شك أن الطباع البشرية تميل إليه ولا سيما طبائع العرب فإن الفخر بالأنساب والتحدث بما كان للسلف من الأحساب يجدون فيه من اللذة ما لا يجدونه في تعدد مناقب أنفسهم ويزداد هذا بزيادة شرف النفس وكرم العنصر ونبالة الآباء ولكن ليس من المحمود أن يبلغ بصاحبه إلى التعصب في الدين وتأثير الباطل على الحق فإن اللذة التي يطلبها والشرف الذي يريده قد حصل له بكون من سلفه ذلك العالم ولا يضيره أن يترك التعصب له ولا يمحق عليه شرفه بل التعصب مع كونه مفسداً للحظ الأخروي يفسد عليه أيضاً الحظ الدنيوي فإنه إذا تعصّب لسلفه بالباطل فلا بد أن يعرف كل من له فهم أنه متعصب وفي ذلك عليه من هدم الرفعة التي يريدها والمزية التي يطلبها ما هو أعظم عليه وأشد من الفائدة التي يطلبها بكون له قريب عالم . فإنه لا ينفعه صلاح غيره مع

فساد نفسه . وإذا لم يعتقد فيه السامع التعصب اعتقد بلادة الفهم ونقصان الإدراك وضعف التحصيل . لأن الميل إلى الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك وقوة فهم وفضل دراية وصحة رواية ، بل ذلك دأب من ليست له بصيرة نافذة ولا معرفة نافعة . فقد حصل عليه بما تلذذ به وارتاح إليه من ذكر شرف السلف ما حقق عند سامعه بأنه من خلف الخلف .

ولقد رأيت من أهل عصري في هذا عجباً فإن بعض من جمعني وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد يتعصب لبعض المصنفين من قرابته تعصب مفرطاً حتى انّه إذا سمع من يعترض عليه أو يستبعد شيئاً قاله اضطرب وتزبّد وجهه وتغيّرت أخلاقه سواء عليه من اعترض بحق أو بباطل فإنه لا يقبل سمعه في هذا كلاماً ولا يسمع من نصيح ملاماً ومع هذا فهو بمحل من الإنصاف ومكان من العرفان قد تحصلت له علوم الاجتهاد تحصّلاً قوياً ونظر في الأدلة نظراً مشبعاً ، وكان صدور مثل هذا منه يحملني في سن الحداثة وشرخ الشباب على تحرير مباحث انقض بها رسائل ومسائل من كلام قريبه قاصداً بذلك إيقاظه ورده إلى صواب الصواب، وكنت إذا أردت إغضابه أو الانتصاف منه ذكرت بحثاً من تلك الأبحاث أو مسألة من تلك المسائل التي اعترضتها وبهذا السبب تجد من كان له سلف على مذهب من المذاهب كان على مذهبه سواء كان ذلك المذهب من مذاهب الحق أو الباطل . ثم تجد غالب العلوية شيعة وغالب الأموية عثمانية ، وكان تعظيم عثمان في الدولة الأموية عظيماً وأهل تلك الدولة مشغولون بحفظ مناقبه ونشرها وتعريف الناس إياها وكانوا إذ ذاك يثلبون من كانت بينه وبينه عداوة أو منافسة ، ثم لما جاءت الدولة العباسية عقبها كان العباس عند أهلها أعظم الصحابة قدراً وأجلهم وكذلك ابنه عبد الله وتوصلت خلفاء بني العباس بكثير من شعراء تلك الدولة إلى تفضيل العباس على علي ثم تفضيل أولاد العباس على أولاد علي وكان الناس

في أيامهم هم عندهم أهل البيت ، ويطبقون ما ورد من فضائل الآل عليهم وأولاد علي إذ ذاك إنما هم عندهم خوارج لقيامهم عليهم ومنازعتهم لهم في الملك ، ولقد كان بنو أمية قبلهم هكذا يعتقد أهل دولتهم فيهم أنهم هم الآل والقرابة وعصبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن العلوية والعباسية ليسوا من ذلك في ورود ولا صدر بل أطبقوا هم وأهل دولتهم على لعن علي ولا يعرف لديهم إلاّ بأبي تراب والمنتسب إليه والمعظم له ترابي لا يقام له وزن ولا يعظم له جانب ولا تُرعى له حرمة . ثم قامت الدولة العبيدية فانتسبوا إلى علي وسموا دولتهم الدولة العلوية الفاطمية ثم أفرطوا في التشيع وغالوا في حب علي وبغض كثير من الصحابة واشتغل الناس بفضائل علي ونشرها وبالغوا في ذلك حتى وضع لهم علماء السوء أكاذيب مفتراة وقد جعل الله ذلك الإمام في غنى عنها بما ورد في فضائله .

فالناشيء في دولة ينشأ على ما يتظهّر به أهلها ويجد عليه سلفه فيظنه الدين الحق والمذهب العدل ثم لا يجد من يرشده إلى خلافه إن كان قد تظهّر أهله بشيء من البدع وعلموا على خلاف الحق لأن الناس إما عامة وهم يعتقدون في تلك البدع التي نشأوا عليها ووجدوها بين ظهرانيهم إنما هي الدين الحق والسنّة القويمة والنحلة الصحيحة ، وإما خاصة ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها بل وعامتها فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في الناس لخشي على نفسه وأهله وماله وعرضه ، ومنهم من يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه . وقد يترك التكلم بالحق الذي هو خلاف ما عليه الناس استجلاباً لخواطر العوام ومخافة من نفورهم عنه . وقد يترك التكلم بالحق لطمع يظنه ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس في مستقبل الزمان ، كمن يطمع في نيل رئاسة من الرئاسات ومنصب من المناصب كائناً ما كان ويرجو حصول رزق من السلطان أو أي فائدة فإنه

يخاف أن تفوت عليه هذه الفائدة المظنونة والرئاسة المطموع فيها فيتظهّر بما يوافق الناس ويتفق عندهم ويميلون إليه ليكون له ذلك ذخيرة وبذا عندهم ينال بها عرض الدنيا الذي يرجوه فكيف تجد ذلك الناشيء بين من كان كذلك من يرشده إلى الحق ويبيّن له الصواب ويحول بينه وبين الباطل ويجنبه الغواية وهيهات ذلك فالدنيا مؤثرة والدين تبع لها ، ومن شك في هذا فليخبرنا من ذاك الذي يستطيع أن يصرخ بين ظهراني دولة من تلك الدول بما يخالف اعتقاد أهلها وتألفه عامتها وخاصتها ووقوع مثل ذلك نادراً ، إنما يقوم به أفراد من مخلصي العلماء ومنصفيهم وقليل ما هم فإنهم لا يوجدون إلاّ على قلة وإعواز . وهم حملة الحجة على الحقيقة والقائمون ببيان ما أنزل الله والمترجمون للشريعة وهم العلماء حقاً ، وأما غيرهم ممن يعلم كما يعلمون ولا يتكلم كما يتكلمون بل يكتم ما أخذ الله عليه بيانه ويعمل بالجهل مع كونه عالماً بأنه جهل ويقول بالبدعة مع اعتقاده أنها بدعة ، فهذا ليس بأهل لدخوله في مسمى العلم ولا يستأهل أن يوصف بوصف من أوصافه أو يدخل في عداد أهله بل هو متظهر ، وأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته بالجهل والبدعة مطابقة لأهل الجهل والابتداع وتنفيقاً لنفسه عليهم واستجلاباً لقلوبهم ومداراة لهم حتى يبقى عليه جاهه ، ويستمر له رزقه الجاري عليه من بيت مال المسلمين أو وقفهم أو نحو ذلك ، فهذا هو من البائعين عرض الدين بالدنيا المؤثرين العاجلة على الآجلة فضلاً عن أن يستحق الدخول في أهل العلم والوصول إلى هذا العلم ، ومن شك فيما ذكرته أو تردد في بعض ما سقته فليمعن النظر في أهل عصره هل يستطيع أحد من أهل العلم أن يخالف ما يهواه السلطان من المذاهب فضلاً عن أن يصرح للناس بخلافه هذا على فرض أن ذلك الذي يهواه الملك بدعة من البدع الشنيعة التي لا خلاف في شناعتها ومخالفتها للشريعة كما تعتقده الخوارج والروافض فإن السنّة الصريحة المتواترة التي لا خلاف فيها قد جاءت بقبح ذلك وذم فاعله وضلاله .

فانظر هداك الله وإياي من يتكلم من أهل العلم الساكنين في أرض الخوارج كبلاد عمان ونحوها بما يخالف مذهب الخوارج أو ينكر ذلك عليهم أو يرشد الناس إلى الحق . وكذلك من كان ساكناً من أهل العلم ببلاد الروافض كبلاد الأعاجم ونحوها هل تجد رجلاً منهم يخالف ما هم عليه من الرفض فضلاً عن أن ينكره عليهم بل قد تجد غالب من في بلاد أهل البدع من العلماء الذين لا تخفى عليهم مناهج الحق وطرائق الرشد يتظهرون للملوك والعامة بما يناسب ما هم عليه ويوهمونهم بأنهم يوافقونهم وأن تلك البدعة التي هم عليها ليست ببدعة بل هي سنة وحق وشريعة ويعملون كعملهم ويدخلون في ضلالهم فيكونون ممن أضله الله على علم .

فمن كان من أهل العلم هكذا فهو لم ينتفع بعمله فضلاً عن أن ينتفع به غيره فعلمه محنة له وبلاء عليه والجاهل خير منه بكثير فإنه فعل البدعة ووقع في غير الحق معتقداً أن ما فعله هو الذي تعبّده الله به وأراده منه، فيا من أخذ الله عليه البيان ، وعلمه السنّة والقرآن إذا تجرّبت على ربك بترك النبذة عليك وطرح ما أمرك به . فقف عند هذه المعصية وكفى بها وقس ما علمته كالعدم لا عليك ولا لك ودع المجاورة لهذه المعصية إلى ما هو أشد منها وأقبح من ترويج بدع المبتدعين والتحسين لها وإيهامهم أنهم على الحق فإنك إذا فعلت ذلك كان علمك لا علمت بلاء على أهل تلك البدع بعد كونه بلاء عليك لأنهم يفعلون تلك البدع على بصيرة ويتشددون فيها ولا تنجع فيهم بعد ذلك من موعظة واعظ ولا نصيحة ناصح ولا إرشاد مرشد لاعتقادهم فيك ، لا كثّر الله في أهل العلم من أمثالك فإنك عالم محقق متقن قد عرفت علوم الكتاب والسنّة ، فلم يكن في علماء السوء شرّ منك ولا أشد ضرراً على عباد الله . وقد جرت قاعدة أهل البدع في سابق الدهر ولاحقه بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ويبالغون في إشهارها وإذاعتها فيما بينهم ويجعلونها حجة لبدعتهم ويضربون بها وجه من أنكر عليهم

كما تجده في كتب الروافض من الروايات لكلمات وقعت من علماء الإسلام فيما يتعلق بما شجر بين الصحابة وفي المناقب والمثالب فإنهم يطيرون عند ذلك فرحاً ويجعلونه من أعظم الذخائر والغنائم .

فإن قلت لا شك فيما أرشدت إليه من وجوب الصدع بالحق والهداية إلى الإنصاف وتأثير ما قام عليه الدليل الصحيح على محض الرأي وبيان ما أنزله الله للناس وعدم كتمه لكن إذا فعل العالم ذلك وصرخ بالحق في بلاد البدع وأرشد إلى العمل بالدليل في مدائن التقليد قد لا يتأثر عن ذلك إلاّ مجرد التنكيل به والهتك لحرمته وإنزال الضرر به .

قلت إنما سألت هذا السؤال وجئت بهذا المقال ذهولاً عما قدمته لك وأوضحته وكررت من حفظ الله للمتكلمين بالحق ولطفه بالمرشدين لعباده إلى الإنصاف وحمايته لهم عن ما يظنه من ضعف إيمانه وخارت قوته ووهت عزيمته فارجع النظر فيما أسلفته وتدبّر ما قدمته تعلم به صدق ما وعد الله به عباده المؤمنين من أن العاقبة للمتقين .

ثم هب صدق ما حدسته ووقوع ما قدرته وحصول المحنة عليك ونزول الضرر بك فهل أنت كل العالم وجميع الناس أم تظن أنك مخلد في هذه الدار أم ماذا عسى يكون إذا عملت بالعلم ومشيت على الطريقة التي أمرك الله بها فنهاية ما ينزل عليك ويحل بك أن تكون قتيلاً للحق وشهيداً للعلم فتظفر بالسعادة الأبدية وتكون قدوة لأهل العلم إلى آخر الدهر وخزياً لأهل البدع وقاصمة لظهورهم وبلاءً مصوباً عليهم وعاراً لهم ما داموا متمسكين بضلالهم سادرين في عمايتهم واقعين في مزالقهم ، وكم قد سبقك من عباد الله إلى هذه الطريقة وظفر بهذه المنزلة العلية وفيهم لك القدوة وبهم الأسوة .

فانظر يا مسكين من قطّعته السيوف ومزقته الرماح من عباد الله في الجهاد

فإنهم طلبوا الموت ورغبوا في الشهادة والبيض تغمد في الطلا والرماح تغرز في الكلا والموت بمرأى منهم ومسمع يأتيهم من أمامهم وخلفهم ومن عن يمينهم وشمالهم فأين أنت من هؤلاء ولست إلاّ قـائماً بين ظهراني المسلمين تدعوهم إلى ما شرعه الله وترشدهم إلى تأثير كتاب الله وسنّة رسوله على محض الرأي والبدع ، فإن الذي يظن بمثالك ممن يقوم بمقامك إن لم تنجذب له القلوب باديء بدى ويتبعه النـاس بأول نداء ان يستنكر النـاس ذلك عليه ويستعظموه منه وينالوه بألسنتهم ويسيئوا القالة فيه فيكثروا الغيبة له فضلاً عن أن يبلغ ما يصدر منهم إلى الإضرار ببدنه أو ماله فضلاً عن أن ينزل به منهم ما نزل بأولئك وهب انه ناله أعظم ما جوّزه وأقبح ما قدره فليس هو بأعظم مما أصيب به من قتل في سبيل الله .

وها أنا أرشدك على ما تستعين به على القيام بحجة الله والبيان لما أنزله وإرشاد الناس إليه على وجه لا تتعاظمه وتقدر فيه ما كنت تقدره من تلك الأمور التي جبنت عند تصوّرها وفرقت بمجرد تخيلها وهو أنك لا تأتي الناس بغتة وتصك وجوههم مكافحة ومجاهرة وتنعي عليهم ما هم فيه نعياً صراحاً وتطلب منهم مفارقة ما ألفوه طلباً مضيقاً وتقتضيه اقتضاءً حثيثاً بل أسلك معهم مسالك المتبصرين في جذب القلوب إلى ما يطلبه الله من عباده ورغبهم في ثواب المنقادين إلى الشرع المؤثرين للدليل على الرأي وللحق على الباطل فإن كانوا عامة فهم أسرع الناس انقياداً لك وأقربهم أمتثالاً لما تطلبه منهم ولست تحتاج معهم إلى كثير مؤنة بل اكتف معهم بترغيبهم في التعلم لأحكام الله ثم علمهم ما علمك الله منها على الوجه الذي جاءت به الرواية وصح فيه الدليل فهم يقبلون ذلك منك قبولاً فطرياً ويأخذونه أخذاً خلقياً لأن فطرتهم لم تتغير بالتقليد ولا تكدرت بالممارسة لعلم الرأي ، ما لم يتسلط عليهم شيطان من شياطين الإنس قد مارس علم الرأي واعتقد انه الحق وأن غيره الباطل وأنه لا سبيل للعامة إلى الشريعة إلاّ بتقليد من هو مقلد له واتباع من يتبعه

فإنه إذا تسلط على العامة مثل هذا وسوس لهم كما يوسوس الشيطان وبالغ في ذلك لأنه يعتقد ذلك من الدين ويقطع بأنه في فعله داعٍ من دعاة الحق وهاد من هداة الشرع وإن غيره على ضلالة ، وهذا وأمثاله هم أشد الناس على من يريد إرشادهم إلى الحق ودفعهم عن البدع لأن طبائعهم قد تكدرت وفطرهم قد تغيرت وبلغت في الكثافة والغلظة والعجرفة إلى حد عظيم لا تؤثر فيه الرقى ولا تبلغ إليه المواعظ فلم تبقَ عندهم سلامة طبائع العامة حتى ينقادوا إلى الحق بسرعة ولا قد بلغوا إلى ما بلغ إليه الخاصة من رياضة أفهامهم وتلطيف طبائعهم بممارسة العلوم التي تتعقل بها الحجج الشرعية ويعرف بها الصواب ويتميز بها الحق حتى صاروا إذا أرادوا النظر في مسئلة من المسائل أمكنهم الوقوف على الحق والعثور على الصواب .

وبالجملة فالخاصة إذا بقي فيهم شيء من العصبية كان إرجاعهم إلى الإنصاف متيسر غير متعسر بإيراد الدليل الذي تقوم به الحجة لديهم فإنهم إذا سمعوا الدليل عرفوا الحق وإذا حاولوا وكابروا فليس ذلك عن صميم اعتقاد ولا عن خلوص نية فرياضة الخاصة بإيراد الأدلة عليهم وإقامة حجج الله وإيضاح براهينه وذلك يكفي فإنهم لما قد عرفوه من علوم الاجتهاد ومارسوه من الدقائق لا يخفى عليهم الصواب ولا يلتبس عليهم الراجح بالمرجوح والصحيح بالسقيم والقوي بالضعيف والخالص بالمغشوش .

ورياضة العامة بإرشادهم إلى التعلم ثم بذل النفس لتعليمهم ما هو الحق في اعتقاد ذلك المعلم بعد أن صار داعياً من دعاة الحق ومرشداً من مرشدي المسلمين ، ثم ترغيبهم بما وعد الله به وإخبارهم بما يستحقه من فعل كفعلهم من الجزاء والأجر ، ثم يجعل لهم من القدوة بأفعاله مثل ما يجعله لهم من القدوة بأقواله أو زيادة فإن النفوس إلى الاقتداء بالفعال أسرع منها إلى الاقتداء بالقوّال .

والعقبة الكؤود والطريق المستوعرة والخطب الجليل والعبء الثقيل إرشاد

طبقة متوسطة بين طبقة العامة والخاصة وهم قوم قلّدوا الرجال وتلقوا علم الرأي ومارسوه حتى ظنوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقة العامة وتميّزوا عنهم وهم لم يتميزوا في الحقيقة عنهم ولا فارقوهم إلاّ بكون جهل العامة بسيطاً وجهل هؤلاء جهلاً مركباً . وأشد هؤلاء تغييراً لفطرته وتكديراً لخلقته أكثرهم ممارسة لعلم الرأي وأثبتهم تمسكاً بالتقليد وأعظمهم حرصاً عليه ، فإن الدواء قد ينجع في أحد هؤلاء في أوائل أمره وأما بعد طول العكوف على ذلك الشغف به والتحفظ له فما أبعد التأثير وما أصعب القبول لأن طبائعهم ما زالت تزداد كثافة بازدياد تحصيل ذلك وتستفيد غلظة وفظاظة باستفادة ذلك ، وبمقدار ولوعهم بما هم فيه وشغفهم به تكون عداوتهم للحق ولعلم الأدلة وللقائمين بالحجة .

ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه واستفظعه فإن غالبهم لا يتصوّر بعد تمرّنه فيما هو فيه إلاّ منصباً يثب عليه أو يتيماً يشاركه في ماله أو أرملة يخادعها عن ملكها أو فرصةً ينتهزها عند ملك أو قاض فيبلغ بها إلى شيء من حطام الدنيا ولا يبقى في طبائع هو لا شيء من نور العلم وهدى أهله وأخلاقهم بل هم أشبه شيء بالجبابرة وأهل المباشرة للمظالم ، ومع هذا فهم أشد خلق الله تعصباً وتعنتاً وبُعداً من الحق ورجوعهم إلى الحق من أبعد الأمور وأصعبها لأنه لم يبق في أفهامهم فضلة لتعقّل ذلك وتدبّره بل قد صار بعضها مستغرقاً بالرأي وبعضها مستغرقاً بالدنيا ، فإن قلت فهل بقي مطمع في أهل هذه الطبقة وكيف الوصول إلى إرشادهم الى الإنصاف وإخراجهم عن التعصب .

قلت لا مطمع إلاّ بتوفيق الله وهدايته فإنه إذا أراد أمراً يسّر أسبابه وسهّل طرائقه وأحسن ما يستعمله العالم مع هؤلاء ترغيبهم في العلم وتعظيم أمره والإكثار من مدح علوم الاجتهاد وأن بها يعرف أهل العلم الحق من

الباطل ويميّزون الصواب من الخطأ وأن مجرّد التقليد ليس من العلم الذي ينبغي عد صاحبه من جملة أهل العلم لأن كل مقلد يقر على نفسه بأنه لا يعقل حجج الله ولا يفهم ما شرعه لعباده في كتابه وعلى لسان رسوله وأن من ظفر من طلبه وفاز من كده ونصبه لمجرّد اتباع فرد من أفراد علماء هذه الأمة وتقليده وقبول قوله دون حجته فلم يظفر بطائل ولا نال حظاً ، فإن بقي في من كان من هذه الطبقة نصيب من علو الهمة وحظ من شرف النفس وقسط من الرغبة في نيل ما هو أعلى مناقب الدنيا والآخرة فقد تميل نفسه إلى العلم بعض الميل فيأخذ من علوم الاجتهاد بنصيب ويفهم بعض الفهم فيعرف أنه كان معلّلاً لنفسه بما لا يسمن ولا يغني من جوع ومشتغلاً بما لا يرتقي به إلى شيء من درجات العلم فهذا الدواء لأهل هذه الطبقة من أنفع الأدوية وهو لا يؤثر بعض التأثير إلاّ مع كون ذلك المخاطب له بعض استعداد للفهم وعنده إدراك وهو القليل ، أما من كان لا يفهم شيئاً فيه من علوم الاجتهاد وإن أجهد نفسه وأطال عناها وأعظم كدّها كما هو الغالب على أهل هذه الطبقة ، فإنهم إذا استفرغوا وسعهم في علم الرأي وأنفقوا في الاشتغال به شطراً من أعمارهم وسكنت أنفسهم إلى التقليد سكوناً تاماً وقبلته قبولاً كليّاً لم تبقَ فيهم بقية لفهم شيء من العلوم وقد شاهدنا من هذا الجنس من لا يأتي عليه الحصر قد تقتضيه في بعض الأحوال رغبة تجذبه إلى النظر في علم النحو فلا يفهمه قط فضلاً عن سائر علوم الاجتهاد التي يفتتحها الطلبة بهذا العلم فمن كان على هذه الصفة وبهذه المنزلة لا يأتي إرشاده إلى تعلّم علوم الاجتهاد بفائدة ، وأحسن ما يستعمله معه من يريد تقليل تعصبه وبعض دفع ما قد تغيّرت به فطرته هو أن ينظر العالم من عمل بذلك الدليل الذي هو الحق من قدماء المقلدين فيذكرهم انه قد خالف إمامهم في تلك المسألة فلان وفلان ممن هو في طبقته أو أعلا طبقة منه وليس هو بالحق أولى

من المخالفين له فإن قبل ذهنهم هذا فقد انفتح باب العلاج للطبيب لأنه ينتقل معهم من ذلك إلى ما استدلّ به أمامهم وما استدلّ به من خالفه وينتقل منه إلى وجوه الترجيح مبتدئاً بما هو أقرب إلى قبول فهم ذلك العليل ، ثم ينقله من مرتبة إلى مرتبة حتى يستعمل من الدواء ما يقلّل تلك العلة فإنه إذا أدرك العليل ذهاب شيء منها حصل له بعض نشاط يحمله على قبول ما يذهب بالبقية ولكن ما أقل من يقبل شيئاً من هذه الأدوية ، فانه قد ارتكز في ذهن غالب هؤلاء إن الصحة والسلامة لهم هي في نفس العلة التي قد تمكنت من أذهانهم فسرت إلى قلوبهم وعقولهم وأشربوا من حبها زيادة على ما يجده الصحيح عن العلة من محبة ما هو فيه من الصحة والعافية وسبب ذلك أنهم اعتقدوا أن إمامهم الذي قلدوه ليس في علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، ثم قبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل وزاد بزيادة الأيام والليالي حتى بلغ إلى حدّ يتسبب عنه ان جميع أقواله صحيحة جارية على وفق الشريعة ليس فيها خطأ ولا ضعف وأنه أعلم الناس بالأدلة الواردة في الكتاب والسنّة على وجه لا يفوت عليه منها شيء ولا تخفى منها خافية ، فإذا أسمعوا دليلاً في كتابِ الله أو سنّة رسوله قالوا لو كان هذا راجحاً على ما ذهب إليه إمامُنا لذهب إليه ولم يتركه لكنه تركه لما هو أرجح منه عنده، فلا يرفعون لذلك رأساً ، ولا يرون بمخالفته بأساً .

وهذا صنيع قد اشتهر عنهم وكاد أن يعمهم قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر على اختلاف المذاهب وتباين النحل، فإذا قال لهم القائل اعملوا بهذه الآية القرآنية أو بهذا الحديث الصحيح . قالوا لست أعلم من أمامنا حتى نتبعك ، ولو كان هذا كما تقول لم يخالفه من قلّدناه فهو لم يخالفه إلاّ إلى ما هو أرجح منه .

وقد ينضم إلى هذا من بعض أهل الجهل والسفه والوقاحة وصف ذلك الدليل الذي جاء به المخاطب لهم بالبطلان والكذب إن كان من السنّة ولو تمكنوا من تكذيب ما في الكتاب العزيز إذا خالف ما قد قلّدوا فيه لفعلوا .

وأما في ديارنا هذه فقد لقنهم من هو مثلهم في القصور والبعد عن معرفة الحق ذريعة إبليسية ولطيفة مشؤومة هي أن دواوين الإسلام الصحيحين والسنن الأربع وما يلتحق بها من المسندات والمجاميع المشتملة على السنّة إنما يشتغل بها ويكرر درسها ويأخذ منها ما تدعو حاجته إليه من لم يكن من اتباع أهل البيت لأن المؤلفين لها لم يكونوا من الشيعة ، فيدفعون بهذه الذريعة الملعونة جميع السنّة المطهرة لأن السنة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي ما في تلك المصنفات ولا سنة غير ما فيها ، وهؤلاء وإن كانوا يعدون من أهل العلم ولا يستحقون أن يذكروا مع أهله ولا تنبغي الشغلة بنشر جهلهم وتدوين غباوتهم لكنهم لما كانوا قد تلبّسوا بلباس أهل العلم وحملوا دفاتره وقعدوا في المساجد والمدارس اعتقدتهم العامة من أهل العلم وقبلوا ما يلقنونهم من هذه الفواقر فضلوا وأضلوا وعظمت بهم الفتنة وحلّت بسببهم الرزية فشاركوا سائر المقلدة في ذلك الاعتقاد في أئمتهم الذين قد قلدوهم واختصوا من بينهم بهذه الخصلة الشنيعة والمقالة الفظيعة فإن أهل التقليد من سائر المذاهب يعظمون كتب السنّة ويعترفون بشرفها وأنها أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وأنها هي دواوين الإسلام وأمهات الحديث وجوامعه التي عوّل عليها أهل العلم في سابق الدهر ولاحقه بخلاف أولئك فإنها عندهم بالمنزلة التي ذكرنا فضمّوا إلى شنعة التقليد شنعة أخرى هي أشنع منها وإلى بدعة التعصب بدعة أخرى هي أفظع منها (١) ولو كان لهم أقل حظ من علم وأحقر نصيب من فهم لم يخف عليهم أن هذه الكتب لم يقصد مصنفوها الا جمع ما بلغ إليهم من السنّة بحسب ما بلغت إليه مقدرتهم وانتهى إليه علمهم

(١) كان هذا عند قلة من العلماء والا من يتأمل أمهات كتب الحديث في اليمن يجدهم يرجعون الى سائر كتب الحديث ومن يتأمل ما اورده القاسم ابن محمد في الاعتصام والامير الحسين في شفاء الأوام والمتوكل على الله احمد بن سليمان في اصول الاحكام وغيره يجد الكثير من التقولات من صحيح البخاري ومسلم وغيره .

ولم يتعصبوا فيها لمذهب ولا اقتصروا فيها على ما يطابق بعض المذاهب دون بعض بل جمعوا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ليأخذ كل عالم منها بقدر علمه وبحسب استعداده ، ومن لم يفهم هذا فهو بهيمة لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به النوع الإنساني وغاية ما ظفر به من الفائدة بمعاداة كتب السنّة التسجيل على نفسه بأنه مبتدع أشد ابتداع فإن أهل البدع لم ينكروا جميع السنّة ولا عادوا كتبها الموضوعة لجمعها بل حق عليهم اسم البدعة عند سائر المسلمين بمخالفة بعض مسائل الشرع .

فانظر أصلحك الله ما يصنع الجهل بأهله ويبلغ منهم حتى يوقعهم في هذه الهوّة فيعترفون على أنفسهم بما يقشعرّ له جلد الإسلام وتبكي منه عيون أهله . وليتهم نزّلوا كتب السنّة منزلة فن من الفنون التي يعتقدون أن أهله أعرف به من غيرهم واعلم ممن سواهم . فإن هؤلاء المقلدة على اختلاف مذاهبهم وتباين نحلهم إذا نظروا في مسألة من مسائل النحو بحثوا كتب النحاة وأخذوا بأقوال أهله وأكابر أئمته كسيبويه والأخفش ونحوهما ولم يلتفتوا إلى ما قاله من قلدوهم في تلك المسألة النحوية لأنهم يعلمون أن لهذا الفن أهلاً هم المرجوع إليهم فيه ، فلو فرضنا أنه اختلف أحد المؤلفين في الفقه من أهل المذاهب المأخوذ بقولهم المرجوع إلى تقليدهم وسيبويه في مسألة نحوية لم يشك أحد أن سيبويه هو أولى بالحق في تلك المسألة من ذلك الفقيه لأنه صاحب الفن وإمامه .

وهكذا لو احتاج أحد من المقلدين أن ينظر في مسألة لغوية لرجع إلى كتب اللغة وأخذ بقول أهلها ولم يلتفت في تلك المسألة إلى ما قاله من هو مقلّد له ولا عمل عليه ولا سيما إذا عارض ما يقوله من هو من أئمة اللغة وخالف ما يوجد في كتبها وهكذا لو أراد أحدهم أن يبحث عن مسئلة أصولية أو كلامية أو تفسيرية أو غير ذلك من علوم العقل والنقل لم يرجع في كل فن

إلاّ إلى أهله ولا يعوّل على سواهم لأنه قد عرف أن أهل تلك الفنون أخبر بها وأتقن لها وأعرف بدقائقها وخفياتها وراجحها ومرجوحها وصحيحها وسقيمها بخلاف من يقلّدونه فإن وإن كان في علم الفقه بارعاً عارفاً به لكنه في هذه الفنون لا يرتقي إلى أقل أهله رتبة وأحقرهم معرفة ولا يرضى مقلدوه أن يعارضوا بقوله في هذه الفنون قول من هو من أهلها وإذا عرفت هذا من صنيعهم وتبينته فقل لهم ما بالكم تركتم خير الفنون نفعاً وأشرفه أهلاً وأفضله واضعاً وهو علم السنة فإنكم قد علمتم أن اشتغال أهل هذا العلم به أعظم من اشتغال أهل سائر الفنون بفنونهم وتنقيحهم له وتهذيبه والبحث عن صحيحه وسقيمه ومعرفة علله والإحاطة بأحوال رواته وإتعاب أنفسهم في هذا الشأن ما لا يتعبه أحد من أهل الفنون في فنونهم حتى صار طالب الحديث في تلك العصور لا يكون طالباً إلاّ بعد أن يرحل إلى أقطار متباينة ويسمع من شيوخ عدة ويعرف العالي والنازل والصحيح وغيره على وجه لا يخفى عليه مخرج الحرف الواحد من الحديث الواحد فضلاً عن زيادة على ذلك ، وفيهم من يحفظ مائة ألف حديث إلى خمسمائة ألف حديث إلى ألف ألف حديث هي على ظهر قلبه لا تخفى عليه منها خافية ولا يلتبس عليه فيها حرف واحد ، ومع هذا الحفظ والإتقان في المتون كذلك يحفظون ويتقنون أسانيدها على حد لا يخفى عليهم من أحوال الرواة شيء ولا يلتبس عليهم ما كان فيه من خير وشرّ وجرح وتعديل ويتركون من وجدوا في حفظه أدنا ضعف أو كان به أقل تساهل أو أحقر ما يوجب الحرج .

وبالجملة فمن عرف الفنون وأهلها معرفة صحيحة لم يبقَ عنده شك ان اشتغال أهل الحديث بفنهم لا يساويه اشتغال سائر أهل الفنون بفنونهم ولا يقاربه بل لا يعدّ بالنسبة إليه كثير شيء فإن طالب الحديث لا يكاد يبلغ من هذا الفن بعض ما يريده إلاّ بعد أن يفني صباه وشبابه وكهولته وشيوخته فيه ويطوّف الأقطار ، ويستغرق بالسماع والكتب الليل والنهار ، ونحن نجد

الرجل يشتغل بفن من تلك الفنون العام والعامين والثلاثة فيكون معدوداً من محققي أهله ومتقنيهم فما بالكم أيها المقلدة إذا أردتم الرجوع إلى فن السنّة لم تصنعوا فيه كما تصنعونه في غيره من الرجوع إلى أهل الفن وعدم الاعتداد بغيرهم وهل هذا منكم إلاّ التعصب البحت والتعسف الخالص والتحكم الصرف فهلاّ صنعتم في هذا الفن الذي هو رأس الفنون وأشرفها كما صنعتم في غيره فرجعتم إلى أهله وتركتم ما تجدونه مما يخالف ذلك في مؤلفات المشتغلين بالفقه الذين لا يفرّقون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب كما يعرف ذلك من يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان، ومن اراد الوقوف على حقيقة هذا فلينظر مؤلفات جماعة هم في الفقه بأعلا رتبة مع التبحر في فنون كثيرة كالجويني [١] والغزالي [٢] وأمثالهما فإنهم إذا أرادوا أن يتكلموا في الحديث جاءوا بما يضحك منه سامعه ويعجب لأنهم يوردون الموضوعات فضلاً عن الضعاف ولا يعرفون ذلك ولا يفطنون به ولا يفرقون بينه وبين غيره ، وسبب ذلك عدم اشتغالهم بفن الحديث كما ينبغي فكانوا عند التكلم فيه عبرة من العبر ، وهكذا حال مثل هذين الرجلين وأشباههم من أهل طبقتهم مع تبحرهم في فنون عديدة فما بالك بمن يتصدى للكلام في فن الحديث ويشتغل بإدخاله في مؤلفاته وهو دون أولئك بمراحل لا تحصر وهكذا تجد كثيراً من أئمة التفسير الذين لم يكن لهم كثير اشتغال بعلم السنة كالزمخشري [٣] والفخر [٤] الرازي وغالب من جاء بعدهم فإنهم يوردون في تفاسيرهم الموضوعات التي لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم الحديث في كونه موضوعاً مكذوباً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك المفسر قد أدخله في تفسيره واستدل به على

---

(١) الملقب بامام الحرمين وفاته سنة ٤٧٨ .
(٢) شهير وفاته سنة ٥٠٥ .
(٣) وفاته سنة ٥٣٨ .
(٤) وفاته سنة ٦٠٦ .

ما يقصده من تفسير كتاب الله سبحانه وهكذا أئمة اصول الفقه فإن أكثر من يشتغل الناس في هذا الزمان بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ولا يميزون شيئاً منه بل يذكرون في مؤلفاتهم الموضوعات ويبنون عليها القناطر .

وبهذه الأسباب تلاعب الناس بهذا الفن الشريف وكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبح كذب فصار من له تمييز يقضي من صنيعهم العجب إذا وقف على مؤلفاتهم ومع ذلك فهم لا يشعرون بما هم فيه من الخطأ والخطل والزلل وهم الموقعون لأنفسهم في هذه الورطة بعدم رجوعهم في هذا الفن بخصوصه إلى أهله المشتغلين به كما يرجعون إلى أهل سائر الفنون عند احتياجهم إلى مسألة من مسائله ، ولست أظن سبب تخصيصهم لهذا الفن الشريف الجليل بعدم الرجوع إلى أهله دون غيره إلاّ ما يجده الشيطان في تزيين مثل ذلك لهم من المحال في الدين وإثبات الأحكام الشرعية بالأكاذيب المختلقة وإغفال كثير من مهمات الدين لعدم علم المتكلمين في الفقه بأدلتها .

وأنت لا يخفى عليك بعد هذا أن إنصاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله كائناً ما كان فإنه لو ذهب العالم الذي قد تأهل للاجتهاد يأخذ مثلاً الحديث عن أهله ثم يريد أن يأخذ ما يتعلق بتفسيره في اللغة عنهم كان مخطئاً في أخذ المدلول اللغوي عنهم ، وهكذا أخذ المعنى الإعرابي عنهم فإنه خطأ بل يأخذ الحديث عن أئمته بعد أن يكشف عن سنده وحال رواته ثم إذا احتاج إلى معرفة ما يتعلق بذلك الحديث من الغريب رجع إلى الكتب المدوّنة في غريب الحديث ، وكذا سائر كتب اللغة المدونة في الغريب وغيره ، وإذا احتاج إلى معرفة بنية كلماته رجع إلى علم الصرف ، وإذا احتاج إلى معرفة إعراب أواخر كلمة رجع إلى علم النحو ، وإذا أراد الاطلاع على ما في ذلك الحديث من دقائق العربيـــة وأسرارهـــا رجع إلى علم المعاني والبيان ، وإذا أراد أن يسلك طريقة الجمع والترجيح بينه وبين غيره رجع إلى علل

أصول الفقه ، فالعالم إذا صنع هذا الصنع ظفر بالحق من أبوابه ، ودخل إلى الإنصاف بأقوى أسبابه ، وأما إذا أخذ العلم عن غير أهله ورجح ما يجده من الكلام لأهل العلم في فنون ليسوا من أهلها وأعرض عن كلام أهلها فإنه يخبط ويخلط ويأتي من الأقوال والترجيحات بما هو في أبعد درجات الإتقان وهو حقيق بذلك ، فإن من ذهب يقلد أهل علم الفقه فيما ينقلونه من أحاديث الأحكام ولم يقتد بأئمة الحديث ولا أخذ عنهم واعتمد مؤلفاتهم كان حقيقاً بأن يأخذ بأحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويفرّع عليها مسائل ليست من الشريعة فيكون من المتقولين على الله بما لم يقل المكلفين عباده بما لم يشرعه فيضل ويضل ولا بد أن يكون عليه نصيب من وزر العاملين بتلك المسائل الباطلة إلى يوم القيامة فإنه قد سن لهم سنناً سيئة ويصدق عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أفتى بفتيا غير ثبت فإنما اثمه على الذي أفتاه أخرجه أحمد في المسند وابن ماجه ، وفي لفظ من أفتى بفتيا بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه ، أخرجه أحمد وأبو داود ورجال أسناده أئمة ثقات وليس هذا بمجتهد حتى يقال انه ان أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر بل هذا مجازف متجرّ على شريعة الله متلاعب بها لأنه عمد إلى من لا يعرف علم الشريعة المطهرة فرواها عنه وترك أهلها بمعزل ، فإن كان يعلم أن أخذ ما يستدل به من الأحاديث عن غير أهل الفن فهو قد أتى ما أتاه من الاستدلال بالباطل وإثبات المسائل التي ليست بشرع عن عمد وقصد فما أحقه أن يعاقب على ذلك ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال من روى عني حديثاً يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ، وفي رواية يظن أنه كذب ، والحديث ثابت في صحيح مسلم وغيره ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جماعة من الصحابة أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار ، فهذا العامد إلى كتب من لا يعرفون صحيح الأحاديث من باطلها ولا يميزونها بوجه من وجوه التمييز كالمشتغلين بعلم الفقه والمشتغلين بعلم الأصول قد دخل تحت حديث

فهو أحد الكاذبين ، لأن من كان كذلك فهو مظنة للكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يكن عن عمد منه وقصد لأنه أقدم على رواية ما لا يدري أصحيح هو أم باطل ، ومن أقدم على ما هذا شأنه وقع في الكذب وأما إذا كان الناقل من غير أهل الفن لا يدري أن من نقل عنه لا تمييز له فهذا جاهل ليس بأهل لأن يتكلم على أحكام الله فاستحق العقوبة من الله بإقدامه على الشريعة وهو بهذه المنزلة التي لا يستحق صاحبها أن يتكلم معها على كلام فرد من أفراد أهل العلم فكيف على كلام الله ورسوله ، فبعداً وسحقاً للمتجرّين على الله وعلى شريعته بالإقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم ، وقد كثر هذا الصنع من جماعة يبرزون في معرفة مسائل الفقه التي هي مشوبة بالرأي إن لم يكن هو الغالب عليها ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم ، ثم تكبر أنفسهم عندهم لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم وأخذ العامة بأقوالهم في دينهم فيظنون أنهم قد عرفوا ما عرفه الناس وظفروا بما ظفر به علماء الشريعة المتصدرون للتأليف والكلام على مسائل الشريعة فيجمعون مؤلفات هي مما قمشت [1] وطم حبْلُ الحاطب صُنْعُ من لا يدري لمن لا يفهم ، ثم يأخذها عنهم من هو أجهل منهم وأقصر باعاً في العلم فينتشر في العالم وتظهر في الملة الإسلامية فاقرة من الفواقر وقاصمة من القواصم ، وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب إلى الله بأعظم القرب وتاجره بأحسن متاجرة وهو فاسد الظن باطل الاعتقاد مستحق لسخط الله وعقوبته ، لأنه أقدم في محل الإحجام وتحلّى بما ليس له ، ودخل في غير مدخله ، ووضع جهله على أشرف الأمور وأعلاها وأولاها بالعلم والإتقان والتمييز وكمال الإدراك فهذا هو بمنزلة القاضي الذي لا يعلم بالحق فهو في النار سواء حكم بالحق أو الباطل ، بل هذا الذي أقدم على تصنيف الكتب وتحرير المجلدات في

(1) قمش : الشيء جمعه من هنا وهناك .

الشريعة الإسلامية مع قصوره وعدم بلوغه إلى ما لا بد لمن يتكلم في هذا الشأن منه أحق بالنار من ذلك القاضي الجاهل لأنه لم يصب بجهل القاضي الجاهل مثل من أصيب بمصنفات هذا المصنف المقصّر ، ومن فتح الله عليه من معارفه بما يعرف به الحق من الباطل والصواب من الخطأ لا يخفى عليه ما في هذه المصنفات الكائنة بأيدي الناس في كل مذهب ، فإنه يقف من ذلك على العجب ، ففي بعض المذاهب يرى أكثر ما يقف عليه في مصنف من مصنفات الفقه خلاف الحق وفي بعضها يجد بعضه صواباً وبعضه خطأ وفي بعضها يجد الصواب أكثر من الخطأ ثم يعثر على ما يحرره مصنفو تلك الكتب من الأدلة لتلك المسائل التي قد دوّنوها فيجد فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع وقد جعلها المصنف شيئاً واحداً وعمل بها جميعها من غير تمييز وعارض بين الصحيح والموضوع وهو لا يدري ، ورجح الباطل على الصحيح وهو لا يعلم. فما كان أحق هذا المصنف لا كثّر الله في أهل العلم من أمثاله بأن يؤخذ على يده ويقال له اترك ما لا يعنيك ولا تشتغل بما ليس من شأنك ولا تدخل فيما لا مدخل لك فيه ، ثم إذا فات أهل عصره أن يأخذوا على يده فلا ينبغي أن يفوت من بعدهم أن يأخذوا على أيدي الناس ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذي لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل . ولا يميز بين ما هو من الشريعة وما ليس منها فما أوجب هذا عليهم ، فإن هذا المشوم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية شديدة وفعل منكراً عظيماً وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر في الناس مسائل الدين ، ويظن من اتبعه في الأخذ عنه أن هذا الذي جاء به هذا المصنف هو الشريعة ، فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم وفتنة شديدة ، وهذا هو السبب الأعظم في اختلاط المعروف بالمنكر في كتب الفقه وغلبة علم الرأي على علم الرواية ، فإن المتصدر للتصنيف في كتب الفقه وإن بلغ في إتقانه وإتقان علم الأصول وسائر الفنون الآلية إلى حد يتقاصر عنه الوصف ، إذا لم يتقن علم السنّة ويعرف صحيحه من سقيمه ، ويعول على أهله في إصداره وإيراده

كانت مصنفاته مبنية على غير أساس ، لأن علم الفقه هو مأخوذ من علم السنة إلاّ القليل منه وهو ما قد صرح بحكمه القرآن الكريم ، فما يصنع ذو الفنون بفنونه إذا لم يكن عالماً بعلم الحديث متقناً له معوّلاً على المصنفات المدونة فيه .

وبهذه العلة تجد المصنفين في علم الفقه يعوّلون في كثير من المسائل على محض الرأي ويدونونه في مصنفاتهم وهم لا يشعرون أن في ذلك سنّة صحيحة يعرفها أقل طالب لعلم الحديث ، وقد كثر هذا جداً من المشتغلين بالفقه على تفاقم شره وتعاظم ضرره . وجنوا على أنفسهم وعلى الشريعة وعلى المسلمين. وإذا شككت في شيء من هذا فخذ أي كتاب شئت من الكتب المصنفة في الفقه وطالعه تجد الكثير الواسع ، وكثيراً ما تجد في ذلك من المسائل التي لم تدع إليها حاجة ولا قام عليها دليل بل مجرّد الفرض والتقدير وما يدور في مناظرة الطلبة ويسبق إليه أذهانهم ، فإن هذا يكون في الابتداء سؤالاً ومناظرة ثم يجيب عنه من هو من أهل الفقه وغالب من يتصدّر منهم وينفق بينهم هو من لا التفات له إلى سائر العلوم ولا اشتغال منه بها ولا يعرف الحجة ولا يعقلها فيدون الطلبة جوابه ويصير حينئذ فقيهاً وعلماً ،وهو كلام جاهل لا يستحق الخطاب ، ولا يعوّل على مثله في جواب ، لو تكلم معه المتكلم في فن من فنون الاجتهاد لكان ذلك عنده بمنزلة من يتكلم بالعجمية ويأتي بالمعميات ويتعمد الألغاز ، فيا هذا الجاهل لا كثّر الله في أهل العلم من أمثالك ، ألاّ تقتصر على ما قـــد عرفته من كلام من تقلده فإذا سألك سائل عن شيء منه نقلته له بنصه ، وإن سألك عما لم يكن منه قلت لا أدري فما بالك والكلام برأيك وأنت جاهل لعلم الرأي فضلاً عن علم الرواية ، وعاطل عن كل معقول ومنقول لم تحط من علم الفقه الذي ألفه أهل مذهبك إلاّ بمختصر من المختصرات ، فضلاً عن مؤلفات غير أهل مذهبك في الفقه فضلاً عن المؤلفات في سائر العلوم ، فأنت من علامات القيامة ، ومن دلائل رفع العلم ، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنك وعن أمثالك

وأبان لنا أنه يتخذ الناس رؤوساً جهالاً فيفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون ، فأنت ممن يُفتي بغير علم ، ويتعمد الضلالة لنفسه والإضلال للناس ، فاربع[1] على طلعك وأقصر من غوايتك واترك ما ليس من شأنك ، ودع مثل هذا لمن علمه الله علم الكتاب والسنّة وأطلعه على أسرارهما بما فتح له من المعارف الموصلة إليهما ، فأنت إن وكلت الأمر إلى أهله وألقيت عنان هذا المركب إلى فارسه دخل إلى الشرع من أبوابه ، ووصل إلى الحق من طريقه ، وحطّ عن عباد الله كثيراً من هذه التكاليف التي قد كلفهم بها أمثالك من الجهال ، وأراحهم من غالب هذه الأكاذيب التي يسمونها علماً ، فإن ذلك شيء الجهل خير منه .

ولقد عظمت المحنة على الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة حتى بطل كثير من الشريعة الصحيحة التي لا خلاف بين المسلمين في ثبوتها لاشتهارها بين هل العلم ، ووجودها إما في محكم الكتاب العزيز أو في ما صح من دواوين السنّة المطهّرة التي هي مشتهرة بين الناس اشتهاراً على وجه لا يخفى على من ينسب إلى العلم وأن كان قليل الحظ فيه وسبب ذلك إن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنّة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعةمنحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه ،ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً ، فإذا سمعوا آية من كتاب الله أو حديثاً من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة من أهل طبقتهم كان ذلك هيّناً عندهم

(1) اي توقف .

كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله ، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب بل مفهوم من مفاهيمه ، وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفاً مستقلاً من أدلة الكتاب والسنّة يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ما يجاوز المئين أو الألوف كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذي قد عرفه من الفقه لم يلتفت إلى شيء من ذلك . ولو انضم إلى الكتاب والسنّة المنقولة في ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من ينتسب إلى العلم على خلاف ما في ذلك المختصر لم يرفع رأسه إلى شيء من ذلك ، ولا أستبعد أنه لو جاءه نبي مرسل أو ملك مقرّب يخبره أن الحق الذي شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر لم يسمع منهما ولا صدّقهما بل لو انشقت السماء وصرخ منها ملك من الملائكة بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذي في المختصر لم يصدقه ولا رجع إلى قوله ، وأعظم من هذا أنك ترى الواحد منهم يعترف بأنه مقلد ثم يحفظ عن شيخه مسألة يعترف أنها من أفكاره وأنه لم يسبق إليها مع اعترافه بأن ذلك الشيخ مقلّد واعترافه بأن تقليد المقلد لا يصح ثم يأخذ هذه المسألة عن شيخه ويعمل بها قابلاً لها قبولاً تاماً ساكناً إليها منثلج الخاطر بها مؤثر لها على أدلة الكتاب والسنّة وأنظار المبرزين من العلماء ولو أجمعوا جميعاً فإن إجماعهم ودليلهم لا يثني هذا الفدم الجافي الجلف عن كلام شيخه المقلّد الذي سمعه منه ، وبالجملة ممن كان بهذه المنزلة فهو ممن طبع الله على قلبه وسلبه نور التوفيق فعمي عن طريق الرشاد وضل عن سبيل الحق ، ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه ولا يستأهل الاشتغال به ، فإنه وإن كان في مسلاخ إنسان وعلى شكل بني آدم فهو بالدوابّ أشبه وإليها أقرب ويا ليته لو كان دابة ليسلم من معرّته عباد الله وشريعته . ولكن هذا المخذول مع كونه حماري الفهم بهيمي الطبع قد شغل نفسه بالحط على علماء الدين المبرزين

المشتغلين بالكتاب والسنّة وعلمهما وما يوصل إليهما وعاداهم أشد العداوة وكافحهم بالمكروه مكافحة ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل .

ولقد جاءت هذه الأزمنة في ديارنا هذه بما لم يكن في حساب ولا خطر ببال إبليس أن تكون له مثل هذه البطانة ولا ظن أنه ينجح كيده فيهم إلى هذا الحد ويبلغون في طاعته هذا المبلغ ، فإن غالبهم قد ضمّ إلى ما قدمنا من أوصافه وصفاً أشد منها وأشنع وأقبح وهو أنه إذا سمع قائلاً يقول قال رسول الله أو يملي سنداً فيقول حدثنا فلان عن فلان قامت قيامته وثار شيطانه واعتقد أن هذا صنع أعداء أهل البيت الناصبين لهم العداوة المخالفين لهديهم .

فانظر ما صنع هذا الشيطان فإن في نسبته للمشتغلين بالسنّة المطهرة إلى مخالفة أهل البيت طعناً عظيماً على أهل البيت لأنه جعلهم في جانب والسنّة في جانب آخر وجعل بينهما عناداً وتخالفاً فانظر هذه الشيعي المحب لأهل البيت القائم في نشر مناقبهم كان أول ما قرره من مناقبهم النداء في الناس بأن من عمل بالسنّة المطهرة أو رواها أو أحبها فهو مخالف لأهل البيت وحاشى لأهل البيت أن يكونوا كما قال فهم أحق الأمة باتباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاهتداء بهديه والاقتداء بكلامه .

ولقد رأينا هؤلاء الذين يسخطون على السنّة المطهرة ويعادون من اشتغل بها وعكف عليها يسمع أحدهم في المساجد والمدارس علوم الفلسفة وسائر علوم غير الشريعة يقرأها الطلبة على الشيوخ فلا ينكر ذلك ولا يرى به بأساً . فإذا سمع حدثنا فلان عن فلان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان هذا أشد على سمعه من علم أرسطاطاليس وأفلاطون وجالينوس بل أثقل على سمعه من فرعون وهامان . فقبح الله أهل البدع وقلّل عددهم وأراح منهم فإنهم أضرّ على الشريعة من كل شيء قد شغلوا أنفسهم بمسائل معروفة

هي رأس مذهبهم وأساسه وتركوا ما عدا ذلك وعابوه وعادوا أهله . انظر الرافضة فإنك تجد أكثر ما لديهم وأعظم ما يشتغلون به ويكتبونه ويحفظونه مثالب الصحابة رضي الله عنهم المكذوبة عليهم ليتوصلوا بذلك إلى ما هو غاية ما لديهم من السّب والثلب لهم صانهم الله وكبت مبغضيهم . ثم يعتبرون الناس جميعاً بهذه المسألة فمن وافقهم فيها فهو المسلم حقاً المحق وإن فعل ما فعل ، ومن خالفهم في هذه المسألة فهو المبطل المبتدع وإن كان على جانب من الورع وحظ من التقوى لا يقادر قدرهما ، وقد يضمون إلى هذه المسألة التظهر بجمع الصلوات . وترك الجُمَعْ كما قلته في أبيات :

تشيّع الأقوام في عصرنا منحصرٌ في بدع تبتدع

عداوة السنّة والثلب لـلأسلاف والجمع وترك الجمع

وأما معيار التشيع في ديارنا هذه عند جماعة من الزيدية لا عند جميعهم فيزيدون على هذه الأربع خامسة وهي التظهر بترك بعض من سنن الصلاة كالرفع والضم فإن أهل الطبقة التي ذكرنا لك أنها أصل الشر إذا رأوا من يفعل الرفع والضم ونحوهما كالتوجه في الصلاة بعد التكبيرة والتورّك في التشهد الأخير والدعاء في الصلاة بغير ما قد عرفوه عادوه عداوة أشد من عداوتهم لليهود والنصارى وظنوا أنه على شريعة آخرة وعلى دين غير دين الإسلام وأوقعوا في أذهان العوام انه ناصبي فانتقلوا من فعله لهذه السنن أو أحدها إلى النصب الذي هو بغض عليّ وحكموا عليه به حكماً جازماً ، فانظر هذا الصنع الشنيع الذي هو شبيه بلعب الصبيان .

ومما أحكيه لك إني أدركت في أوائل أيام طلبي رجلاً يقال لهالفقيه صالح النهمي قد اشتهر في الناس بالعلم والزهد وطلب علوم الاجتهاد طلباً قوياً فأدركها

(١) زاد على النسخة (في اربع بدع) .

إدراكاً جيداً فرفع يديه في بعض الصلوات ورآه يفعل ذلك بعض المدرسين في علم الفقه المشهورين بالتحقيق فيه والإتقان له فقال: اليوم ارتدّ الفقيه صالح. فانظر هذه الكلمة من مثل هذا مع شهرته في الناس واجتماع كثير من طلبة علم الفروع عليه في جامع صنعاء وشيبه الناصع وثيابه الحسنة كيف موقعها في قلوب العامة وما تراهم يعتقدون في الفاعل لذلك بعد هذا فأبعد الله هذا عالماً وذهب بهذا علماً ، وإن كان لا عالم ولا علم فإن من لا يعقل الحجة ولا يفهم إلاّ مجرّد الرأي لا الرواية ليس من العلم في شيء ، ولا يستحق الدخول في باب من أبوابه ، ولا ينبغي وصفه بشيء من صفاته فيا هذا لا حيّاك الله أيكون فعل سنّة الرفع التي اجتمع على روايتها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العشرة المبشرة بالجنة ومعهم زيادة على أربعين صحابياً ردة وكفراً وخروجاً من الملة الإسلامية ،اتدري ما صنعت بنفسك يا جاهل عمدت إلى سنّة من السنن الثابتة ثبوتاً متواتراً فتركتها ، ولم تقنع لمجرد إنكار ثبوتها بل جاوزت ذلك إلى أن جعلتها ردة ، فجنيت على صاحب الشريعة أولاً ، ثم على كل مسلم يفعل هذه السنة ثانياً ، ثم على نفسك ثالثاً ، فخبت وخسرت وخبطت خبطاً ليس من شأن من هو مثلك من أسراء التقليد واتباع التعصب وكفّرت عالماً من علماء المسلمين ، يفعل سنة من سنن سيد المرسلين ، فما بالك وهذا وأنت تعترف على نفسك أنك لا تعرف الحق ولا تعقل الصواب في مسائل الطهارة والتحلي والوضوء والصلاة ، فكيف قمت ههنا مقام تكفير المسلمين والحكم عليهم بصريح الردة جازماً بذلك متحدّثاً به مطمئناً إليه ، فما أوجب إنكار مثل هذا المنكر على أئمة المسلمين وأولي الأمر منهم ، فإن التنكيل بهذا المتكلم بمثل هذا الكلام بالحبس وسائر أنواع التعزير التي تردعه وتردع أمثاله من أهل التعصب عن انتهاك أعراض المسلمين والتلاعب بعلماء الدين من أعظم ما يتقرّب به المتقربون ، وأفضل ما يفعله من ولاه الله من أمر عباده شيئاً ، فإن غالب ما يصدر من هؤلاء المتعصبة من تمزيق أعراض

علماء الدين المتمسكين بالسنن الصحيحة الثابتة في هذه الشريعة هو راجع إلى الطعن على الشريعة والرد لما جاءت به ، وتقليب السنن بدعا ، والبدع سنناً والأخذ على أيدي هؤلاء حتى يدعوا ما ليس من شأنهم ، ويقلعوا عن غوايتهم ، ويقصروا عن ضلالتهم ، واجب على كل مسلم ، وإذا لم تتناول أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا لم تتناول غيره .

ومن هذا الجنس الذي يفعله أهل التعصب فرارهم عن علماء الإنصاف وطعنهم على من اتصل بهم أو أخذ عنهم وتحذيرهم للعامة وللطلبة عن مجالسة من كان كذلك وإخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ويخرجهم عما هم فيه من المذهب الذي هم عليه ، ثم يذكرون عند هذا التحذير والإنذار مطاعن يطعنون بها على ذلك العالم لمجرد سماعها يثور غضب كل مسلم ويلتهب طبع من يسمع ذلك كائناً من كان فيقولون مثلاً لذلك العامي أو الطالب هذا العالم الذي تتصل به يبغض عليّ بن أبي طالب أو يبغض أهل البيت أو نحو هذه العبارت الفظيعة ، فعند سماع ذلك تقوم قيامة هذا المسكين ، وليس بملوم فإنه جاهل جاء إليه من له ثياب أهل العلم وسمتهم وشكلهم فقال له ان ذلك العالم يعتقد كذا أو يقول كذا فصدقه ، فالذنب محمول على ذلك القائل ، ولا يكون إلاّ من أهل تلك الطبقة التي هي منشأ الشر ومنبع الفتنة ، وقد اشتهر على ألسن الناس في صنعاء وما يتصل بها أن العلماء المجتهدين ومن يأخذ عنهم ويتصل بهم في هذه العصور يقال لهم سنيّة ، وهذا هو اللقب الذي يتنافس فيه المتنافسون ، فإن نسبة الرجل إلى السنة تنادي أبلغ نداء ، وتشهد أكمل شهادة ، بأنه متلبس بها ، ولكنه لما صار في اصطلاح هؤلاء المتعصبة يطلق على من يعادي عليّاً ويوالي معاوية ، افتراء منهم على أهل العلم ، واجتراء على المسلمين ، استصعب ذلك من استصعبه عند إطلاقه عليه في السن هؤلاء الذين هم بالدواب أشبه ، ولم أجد أهل ملة من الملل ولا فرقة من الفرق الإسلامية ، أشد بهتاً وأعظم كذباً وأكثر افتراء من الرافضة ،

فإنهم لا يبالون بما يقولون من الزور كائناً ما كان ، ومن كان مشاركاً لهم في نوع من أنواع الرفض وإن قلّ كان فيه مشابهة لهم بقدر ما يشاركهم فيه ، فهذا الذي نجده في ديارنا هذه يختلف باختلاف المشاركة المذكورة ، فمن تلاعب به الشيطان ولم يزل ينقله من درجة إلى درجة حتى وصل به إلى الرفض البحت كما تشاهده في جماعة فلا مطمع في كفّه عن الطعن والثلب لخير القرون فضلاً عن أهل عصره وليس يفلح من كان هكذا ولا يرجع إلى حق ولا ينزع عن باطل ، فإن تظاهر بالإنصاف والإقلاع عن البدعة والتلبس بالسنّة فالغالب أن ذلك يكون لجلب مصلحة له دنيوية أو دفع مفسدة يخشى ضررها ولا يصح إلاّ في أندر الأحوال ، فالهداية بيد الله يهدي من يشاء وقد شاهدنا من خضوع هؤلاء لأطماع الدنيا وان كانت حقيرة ما لا يمكن التعبير عنه ، فإنه لو طلب منه بعض أهل الدنيا أن يخرج من مذهبه لكان سريع الإجابة قريب الانفعال حتى ينال ذلك الغرض الدنيوي وهو لا محالة راجع إلى ما كان فيه ، ومن كان دون هذا فهو أقل ضرراً منه للإسلام وأهله ولنفسه وأقرب إلى الإنصاف ، ثم من كان أقل تلبساً بهذه البدعة كان أقل شراً وأخفّ ضراً . وهو يرجع عنها إذا طلب العلم ومارس فنونه وعكف على علم الحديث ، فإن لم يكن متأهلاً لطلب العلوم فليلازم أهله المتصفين بالإنصاف العارفين بالحق المهتدين بهدي الدليل ، وقد شاهدنا كثيراً ممن كان كذلك يقلع عنه وتنحلّ من عُقَد ما قد أصابه عقدة بعد عقدة حتى تصفو وتذهب ما تكدرت به فطرته ويدخل إلى الحق من أبوابه بحسب استعداده وبقدر فهمه .

ومن آفات التعصب الماحقة لبركة العلم أن يكون طالب العلم قد قال بقول في مسألة كما يصدر ممن يفتي أو يصنف أو يناظر غيره ويشتهر ذلك القول عنه فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه وإن علم انه الحق وتبين له فساد ما قاله ، ولا سبب لهذا الاستصعاب إلاّ تأثير الدنيا على الدين

فإنه قد يسوّل له الشيطان أو النفس الأمّارة أن ذلك ينقصه ويحط من رتبته ويخدش في تحقيقه ويغض من رئاسته ، وهذا تخيل مختل وتسويل باطل ، فإن الرجوع إلى الحق هو يوجب له من الجلالة والنبالة وحسن الثناء ما لا يكون في تصميمه على الباطل بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والازراء عليه والاستصغار لشأنه ، فإن منهج الحق واضح المنار يفهمه أهل العلم ويعرفون براهينه ولا سيما عند المناظرة فإذا زاغ عنه زائغ تعصباً لقول قد قاله أو رأي رآه فإنه لا محالة يكون عند من يطلع على ذلك من أهل العلم أحد رجلين ، إما متعصب مجادل مكابر إن كان له من الفهم والعلم ما يدرك به الحق ويتميز به الصواب ، أو جاهل فاسد الفهم باطل التصوّر إن لم يكن له من العلم ما يتوصل به إلى معرفة بطلان ما صمّم عليه وجادل عنه ، وكلا هذين المطعنين فيه غاية الشين وكثيراً ما تجد الرجلين المنصفين من أهل العلم قد تباريا في مسألة وتعارضا في بحث فبحث كل واحد منهما عن أدلة ما ذهب إليه فجاءا بالمتردية والنطيحة على علم منه بأن الحق في الجانب الآخر وأن ما جاء به لا يسمن ولا يغني من جوع ،وهذا نوع من التعصب دقيق جداً يقع فيه كثير من أهل الإنصاف ولا سيما إذا كان بمحضر من الناس وأنه لا يرجع المبطل إلى الحق إلاّ في أندر الأحوال ، وغالب وقوع هذا في مجالس الدرس ومجامع أهل العلم .

ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السنّ بالنسبة إلى من يناظره أو قليل العلم أو الشهرة في الناس والآخر بعكس ذلك فإنه قد تحمله حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفةً منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً أو أقل منه علماً أو أخفى شهرة ظنّاً منه أن في ذلك عليه ما يحط منه وينقص ما هو فيه ، وهذا الظن فاسد فإن الحط والنقص إنما هو في التصميم على الباطل ، والعلوّ والشرف في الرجوع إلى الحق بيد من كان وعلى أي وجه حصل .

ومن الآفات ما يقع تارة من الشيوخ وأخرى من تلامذتهم فإن الشيخ قد يريد التظهر لمن يأخذ عنه بأنّه بمحل من التحقيق وبمكان من الإتقان فيحمله ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمه إلى الباطل لئلاّ يظن من يأخذ عنه أنه يخطىء ويغلط ، وهو لو عرف ما عند ذلك الذي يأخذ عنه العلم ان رجوعه عن الخطأ إلى الصواب أعظم في عينه وأجل عنده وزاده ذلك رغبة فيه ومحبة له ، وإذا استمر على الغلط وصمم على الخطأ كان عنده دون منزلة الرجوع إلى الحق بمنازل ، وهكذا التلميذ قد يخطر بباله التزين لشيخه والتجمل عنده بأنه قوي الفهم سريع الإدراك صادق التصور فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ والتشبث بما دفع له من الغلط .

وبالجملة فالأسباب المانعة من الإنصاف لا تخفى على الفطن وفي بعضها دقة تحتاج إلى تيقظ وتدبر وتتفق في كثير من الحالات لأهل العلم والفهم والإنصاف ، فالمعيار الذي لا يزيغ أن يكون طالب العلم مع الدليل في جميع موارده ومصادره لا يثنيه عنه شيء ولا يحول بينه وبينه حائل ، فإذا وجد في نفسه نزوعاً إلى ما غيرهو المدلول عليه بالدليل الصحيح وأدرك منها رغبة للمخالفة وتأثيراً لغير ما هو الحق ، فليعلم عند ذلك أنه قد أصيب بأحد الأسباب السابقة من حيث لا يشعر ، ووقع في محنة فإن عرفها بعد التدبّر فليجتنبها كما يجتنب العليل ما ورد عليه من الأمور التي كانت سبباً لوقوعه في المرض ، وإن خفيت عليه العلة التي حالت بينه وبين اتباع الحق فليسأل من له ممارسة للعلم ومعرفة بأحوال أهله كما يسأل المريض الطبيب إذا لم يعرف علته ولا اهتدى إليها فقد يكون دفع العلة بمجرّد تجنب الأسباب الموقعة فيها كالحمية التي يرشد إليها كثير من الأطباء إذا لم تكن العلة قد استحكمت ، وقد يكون دفعها باستعمال الأدوية التي تقاوم المادة الكائنة في البدن وتدافعها حتى تغلبها .

وهكذا علة التعصب فإنه إذا عرف سببه أمكن الخروج منه باجتنابه ،

وإن لم يعرف سأل أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب فإنه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفاً وأقرب نفعاً وأنجع برءاً مما يجده العليل عند الأطباء .

واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم وذهاب رونقه وزوال ما يترتب عليه من الثواب كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وتمزيق الأعراض واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل وقد لا يخلو عصر من العصور ولا قطر من الأقطار من وقوع ذلك لا سيما إذا اجتمع في المدينة والقرية مذهبان أو أكثر وقد يقع من ذلك ما يفضي إلى إحراق الديار وقتل النساء والصبيان كمثل ما كان يقع بين السنيّة والشيعة ببغداد فإنهم كانوا يفعلون في كل عام فتناً ويهرقون الدماء ويستحلون من بعضهم البعض ما لا يستحلونه من أهل الذمة بل قد لا يستحلونه من الكفار الذين لا ذمة لهم ولا عهد ، وهذا يعرفه كل من له خبرة بأحوال الناس ، ومن أراد الاطلاع على تفاصيل ما كان يقع بينهم في بغداد بخصوصها فلينظر في مثل تاريخ ابن جرير وفي تواريخ الذهبي وتاريخ ابن كثير ونحو ذلك فإنه يسجل في حوادث كل سنة شيئاً من ذلك في الغالب ، وقد تنتهي بهم التعصبات والمناقضات إلى ما هر من أنواع الجنون والحماقات القبيحة كما وقع في كتب التواريخ أن أهل السنّة ببغداد أركبوا امرأة على جمل وأركبوا رجلين آخرين وسمّوا المرأة عائشة والرجلين طلحة والزبير ومشوا معهم وتحزبوا وتجمعوا فسمع بذلك الشيعة من أهل الكرخ فأقبلوا مشرعين بالسلاح والكراع وقاتلوا أهل السنّة قتالاً شديداً وضربوا المرأة المسماة عائشة والمسمى طلحة والزبير ضرباً مبرحاً .

ومن غرائب مناقضاتهم أن الشيعة لما اجتمعوا لزيارة الحسين بن عليّ رضي الله عنه في عاشوراء اجتمعت السنيّة وخرجوا يزورون مصعب بن

الزبير وجعلوا ذلك عادة لهم في عاشوراء ، فانظر ما في هذه المناقضة من الجهل فإن مصعباً ليس بمستحق لذلك لأنه لم يكن معروفاً بعلم ولا فضل بل أمير كبير ولي العراق من أخيه عبد الله بن الزبير وسفك من الدماء ما لا يأتي عليه الحصر وبقي كذلك حتى وقع الحرب بينه وبين عبد الملك بن مروان فخذله أهل العراق فقتل،فانظر أي فضيلة لمصعب يستحق بها أن يكون للسنيّة كالحسين للشيعة .

وبالجملة فقد حدثت بسبب الاختلاف بين الطائفتين فواقر عظيمة لو لم يكن منها إلاّ دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة والمسلمين فإن سبب ذلك الوزير الرافضي ابن العلقمي [1] كان بينه وبين الأمير مجاهد الدين الدويدار من العداوة أمر عظيم وكان مجاهد الدين يتعصب على الشيعة تعصباً شديداً حتى أفضى ذلك إلى نهب أهل الكرخ وإحراق بعض مساكنهم فغضب الوزير غضباً شديداً ولم يستطع المكافأة إذ ذاك فحمله ذلك على مكاتبة التتر وترغيبهم في بغداد وتسهيل الأمر عليهم فأقبل (هولاكو) ملك التتر ومعه جيش من التتر عظيم فوصلوا بغداد وأحاطوا بها من جميع جوانبها وما زال الوزير يخدع الخليفة ويفرّق جيوشه ويحول بينه وبين الحزم حتى أعيت الحيلة وتمكن العدو فخرج عند ذلك الوزير إلى التتر وقد تقدم بينهم من المكاتبة ما فيه حرمة وذمة وتكفل لهم بإيقاع الخليفة وأعيان المحل في أيديهم يقتلونهم كيف شاؤوا ثم دخولهم بغداد بعد ذلك،ثم رجع الى الخليفة وأخبره أن سلطان التتر لا يريد استئصاله ولا نزع يده من الخلافة وليس له رغبة إلى ذلك بل مراده أن يكون متصرفاً عن أمر الخليفة كما كان يتصرف عن أمرهم الملوك الحمدانية والبويهيةوالسلجوقية وانه يريد أن يتزوج ابن الخليفة بابنته وما زال يخدع

(1) هو محمد بن احمد العلقمي وزير المستعصم العباسي توفي سنة ٦٥٦

الخليفة ويفتل منه في الذروة والغارب حتى أسعده ومال إلى مقاله وقال له
يخرج هو وأعيان البلد لعقد النكاح فخرج الخليفة وأخوته وأولاده وأعمامه
وأمراؤه وأعيان بغداذ من كل طبقة من الطبقات التي تتصل بالخليفة وكان
الذي عين الخارجين وسمّاهم هو الوزير المذكور فلم يدع أحداً من أركان
الدولة يخشى منه ولا سيما من كان متعصباً على الشيعة كالأمير مجاهد الدين
الدويدار فإنه جعلهم في أول الخارجين لشهود العقد وقد كان أبرم هو وسلطان
التتر أنه سيجعله وزيراً كما كان مع الخليفة العباسي فلما خرج أولئك الأعيان
والخليفة قتلهم التتر جميعاً ثم دخلوا بغداذ فقتلوا من به من الطائفتين لم يبقوا
على شيعي ولا سني وكان جملة القتلى كما نقله كثير من ثقات المؤرخين
ثمانية عشر لكّاً عن ألف ألف قتيل وثماني مائة ألف قتيل .

فانظر هذه الفاقرة العظيمة التي تسببت عن تعصب الوزير الرافضي
لأصحابه من الرافضة لا رحمه الله ، وقد كان يظهر التأسف والتندّم ويقول
انه ما كان يظن ان الأمر يقع هكذا وأنه كان يظن سلامة الشيعة وعدم وصول
الأمر إليهم حسبما قدمه لنفسه ولهم ولم يصل إلى ما شرطه لنفسه من الوزارة
ولا غيرها ، وغاية ما ناله السلامة من القتل . ومات بعد أن اقترف هذه
العظيمة بأيام يسيرة دون سنة،وكان موته كمداً على ما جناه على نفسه خصوصاً
وعلى إخوانه من الرافضة وسائر المسلمين وكان في بعض الأوقات يظهر التجلّد
ويقول لا يبالي بمن قُتل ولا بمن أصيب بعد أن شفى نفسه من الدويدار ،
فانظر هذه الجاهلية التي تظاهر بها هذا الرافضي وانظر ما صنع بالمسلمين
وما جناه الخليفة على نفسه من استخلاصه للوزارة وأمانته على الأسرار والركون
إليه في تدبير الدولة .

وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضي وإن كان حقيراً فإنه لا أمانة
لرافضي قط على من يخالفه في مذهبه ويدين بغير الرفض بل يستحل ماله

ودمه عند أدنا فرصة تلوح له لأنه عنده مباح الدم والمال وكل ما يظهره من
المودة فهو تقية يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة ، وقد جرّبنا هذا تجريباً
كثيراً فلم نجد رافضياً يخلص المودة لغير رافضي وإن آثره بجميع ما يملكه
وكان له بمنزلة الخول وتودّد إليه بكل ممكن ، ولم نجد في مذهب من المذاهب
المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم ، ثم لم نجد عند
أحدٍ ما نجد عندهم من التجرّي على شتم الأعراض المحترمة فإنه يلعن أقبح
اللعن ويسبّ أفظع السب كل من تجري بينه وبينه أدنى خصومة وأحقر جدال
وأقل اختلاف ، ولعل سبب هذا والله أعلم أنهم لما تجرّوا على سب السلف
الصالح هان عليهم سب من عداهم ، ولا جرم فكل شديد ذنب يهون ما دونه ،
وقد يقع بعض شياطينهم في عليّ كرم الله وجهه حرداً عليه وغضباً له حيث
ترك حقه ، بل قد يبلغ بعض ملاعينهم إلى ثلب العرض الشريف النبوي
صانه الله قائلاً انه كان عليه الإيضاح للناس وكشف أمر الخلافة ومن الأقدم
فيها والأحق بها .

وأما تسرع هذه الطائفة إلى الكذب وإقدامهم عليه والتهاون بأمره فقد
بلغ من سلفهم وخلفهم إلى حد الكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه
وعلى صالحي أمته ووقع منهم في ذلك ما يقشعرّ له الجلد،وناهيك بقوم بلغ
الخذلان بغلاتهم إلى إنكار بعض كتاب الله وتحريف البعض الآخر وإنكار
سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاوز ذلك جماعة من زنادقتهم
إلى اعتقاد الألوهية في ملوكهم بل في شيوخ بلدانهم ، ولا غرو فأصل هذا
المظهر الرافضي مظهر الحاد وزندقة ، جعله من أراد كياد الإسلام ستراً له
فأظهر التشيع والمحبة لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استجذاباً لقلوب
الناس لأن هذا أمر يرغب فيه كل مسلم وقصداً للتغرير عليهم ، ثم أظهر
للناس أنه لا يتم القيام بحق القرابة إلاّ بترك حق الصحابة ثم جاوز ذلك إلى
إخراجهم وصانهم الله عن سبيل المؤمنين ، ومعظم ما يقصده بهذا هو الطعن

على الشريعة وإبطالها ، لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم هم الذين رووا للمسلمين علم الشريعة من الكتاب والسنّة . فإذا تمّ لهذا الزنديق باطناً الرافضي ظاهراً القدح في الصحابة وتكفيرهم والحكم عليهم بالردّة بطلت الشريعة بأسرها ، لأن هؤلاء هم حملتها الراوون لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهذا هو العلة الغائية لهم ، وجميع ما يتظهرون به من التشيع كذب وزور ، ومن لم يفهم هذا فهو حقيق بأن يتهم نفسه ويلوم تقصيره ، ولهذا تجدهم إذا تمكنوا وصارت لهم دولة يتظاهرون بهذا ويدعون الناس إليه ، كما وقع من القرامطة والباطنية والإسماعيلية ومن نحا نحوهم ، فأنهم لما تمكنوا أظهروا صريح الكفر والزندقة وفعلوا تلك الأفاعيل من الاستهتار بمحارم الله وما عظمه كنقلهم للحجر الأسود من الحرم إلى هجر ، وكقول رئيس القرامطة اللعين لما سفك دماء الحجاج بالبيت الحرام وفعل به من المنكرات ما هو معروف :

ولو كان هذا البيت لله ربنا — لصبّ علينا النار من فوقنا صبّا
لأنّا حججنا حجّةً جاهليّةً — محلّلةً لم يبق شرقاً ولا غربا

ثم قال لمن بقي في الحرم سالماً من القتل يا حمير أنتم تقولون(ومن دخله كان آمناً)وقد كان أول هذه النحلة القرمطية التظهر بمحبة أهل البيت والتوجع لهم والعداوة لأعدائهم ثم انتهى أمرهم إلى مثل هذا .

وهكذا الباطنية فإن مذهبهم الذي يتظهرون به ويبدونه للناس هو التشيع ولا يزال شياطينهم ينقلون من دخل معهم فيه من مرتبة إلى مرتبة حتى يوقفوه على باب الكفر وصراح الزندقة وإذا تمكن بعض طواغيتهم فعل كما فعل علي بن الفضل الخارج باليمن من دعـاء الناس إلى صريح الكفر ودعوى النبوة ثم الترقي إلى دعوى الألوهية وكما فعله الحاكم العبيدي بمصر من أمر الناس بالسجود له والقيام عند ذكره على صفة معروفة فكان إذا ذكره الخطيب

يوم الجمعة على المنبر قام جميع من المسجد ثم يخرّون ساجدين ثم يقوم بقيامهم من يتصل بالجامع من أهل الأسواق ثم يسري ذلك إلى قيام أهل مصر وما كان يبديه من الأفعال المتناقضة والحماقات الباردة مقصوده من ذلك تجريب أحوال الناس واختيار طاعتهم له في الأمور الباطلة وفي مخالفة الشريعة حتى ينقلهم إلى ما يريده . وكم نعدد لك من هذا .

وبالجملة فإذا رأيت رجلاً قد انتهى به الرفض إلى ذم السلف الصالح والوقيعة فيهم وإن كان ينتمي إلى غير مذهب الإمامية فلا تشك في أنه مثلهم فيما قدمنا لك ، وجرب هذا إن كنت ممن يفهم فقد جرّبناه وجربه من قبلنا فلم يجدوا رجلاً رافضياً يتنزه عن شيء من محرّمات الدين كائناً ما كان ولا تغترّ بالظواهر فإن الرجل قد يترك المعصية في الملأ ويكون أعفّ الناس عنها في الظاهر وهو إذا أمكنته فرصة انتهزها انتهاز من لا يخاف ناراً ولا يرجو جنّة .

وقد رأيت من كان منهم مؤذناً ملازماً للجماعات فانكشف سارقاً ، وآخر كان يؤم الناس في بعض مساجد صنعاء وله سمت حسن وهدي عجيب وملازمة للطاعة وكنت أكثر التعجب منه كيف يكون مثله رافضياً ثم سمعت بعد ذلك عنه بأمور تقشعرّ لها الجلود وترجف منها القلوب ، وكان لي صديق يكثر المجالسة لي والوصول إليّ وفيه رفض يسير وهو متنزّه عن كل محظور ثم ما زال ذلك يزيد به لأسباب حتى صار يصنّف في مثالب جماعة من الصحابة ثم صار يمزّق أعراض جماعة من أحياء أهل العلم والأموات وينسبهم إلى النصب بمجرّد كونهم لا يوافقونه على رفضه . ثم صار يتصل به جماعة ويأخذون عنه من الرفض ما لا يتظاهر بمثله أهل هذه الديار وكنت أعرف منه في مبادىء أمره صلابة وعفّة فقلت إذا كان ولا بدّ من رافضي عفيف فهذا ثم سمعت عنه بفواقر ، نسأل الله الستر والسلامة .

وأما وثوب هذه الطائفة على أموال اليتامى والمستضعفين ومن يقدرون على ظلمه كائناً من كان فلا يحتاج إلى برهان بل يكفي مدّعيه إحالة منكرة على الاستقرار والتتبع فإنه سيظفر عند ذلك بصحة ما ذكرناه .

ولقد جربت أهل عصري في هذه المادة تجريباً عظيماً لتعلقي بما تتعلق به الأطماع واختباري بالناس على اختلاف طبقاتهم ولا شك أن الدنيا مؤثرة وأن الوثوب على مصالحها وتقديمها وانتهاز الفرص فيما يتعلق بها غير مختص بهؤلاء بل هو عام لكل الفرق والزاهد فيها المؤثر للدين عليها هو الشاذ النادر لكن هؤلاء لهم مزيد تكالب وعظيم تهافت وشدة تهالك مع عدم وقوف عند حدود الشرع واقتصار على ما فيها من تحليل وتحريم .

ومن [1] أقرب حوادث الرفض في ديارنا هذه أنه كان جماعة من المتظهرين بالعلم يملون على الناس في جامع صنعاء في شهر رمضان سنة ستعشرة ومائة بعد الألف في كتب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا نحو ثلاثة أو أربعة كل واحد منهم قد اجتمع عليه جماعة كثيرة من العامة وكان أحدهم يملي على كرسيّ مرتفع وتسرج حوله الشمع الكثير فيجتمع من الناس عدد كثير جداً لقصد الفرجة كما يتفق في مثل هذا وكانوا يشوبون المناقب بذكر مثالب بعض الصحابة ويحطون من بعضهم ويصرحون بسب البعض ويتوجعون من البعض وكان ما يصدر من هؤلاء من هذه الأمور إنما هو مطابقة للوزير الرافضي الذي قدمت لك ذكره ولا سيما صاحب الكرسيّ وهذا الوزير لم يكن رفضه لوازع ديني كما يتفق لكثير من أهل الجهل المتعلقين بالرفض فهو أنذل من ذاك وأقل ولكنه يفعل ذلك مساعدة لجماعة من شياطين المتفقهة المتعصبة يدخلون إليه فيقولون انه لم يبق من يحامي على هذا الأمر سواك وانك ركن التشيع وملجأ أهله ونحو هذه العبارات فيبالغ في التظهر

(١) هذه الحادثة اشار اليها المؤلف في البدر الطالع .

بهذه الخصلة ويحب نسبة ذلك إليه فكان الرفض مكملاً لمثالبه متمماً لمعايبه لأنه في كل باب من أبواب القبائح قريع دهره ونسيج وحده فلما تكاثر ما يصدر من أولئك المشتغلين بما لا يعنيهم من ثلب السلف مع ما ينضم إلى ذلك من إدخال الضغائن في قلوب العامة وإيهامهم أن الناس قد تركوا مذهب أهل البيت وفعلوا وفعلوا وكل ذلك كذب فإن الناس هم في هذه الديار زيدية وكثير منهم يجاوز ذلك فيصير رافضياً جلداً ولم يكن في هذه الديار على خلاف ذلك إلاّ الشاذ النادر وهم أكابر العلماء ومن يقتدي بهم فإنهم يعملون بمقتضى الدليل ولا ينتمون إلى مذهب ولا ولا يتعصبون لأحد فهؤلاء هم الذين يقصدهم أولئك الرافضة بكل فاقرة ويرمونهم بالحجر والمدر ويسمونهم بميسم النصب . فلما تفاقم شر أولئك المدرسين وصار الجامع ملعباً لا متعبّداً واشتغل بأصواتهم المصلون عن صلاتهم والذاكرون عن ذكرهم رجح إمام العصر [1] أعزّ الله به الدين منع صاحب الكرسي من الإملاء في الجامع وأمره بالعود إلى المسجد الذي كان يملي فيه . فحضر أولئك المستمعون على عادتهم وكان الإملاء قبل صلاة العشاء فلما لم يحضر شيخهم ذهب بعضهم ليجيء به من بيته فأخبرهم أن الإمام قد منعه وأمره بالعود إلى حيث كان فلم يعذروه ولا سمعوا منه ورجعوا إلى الجامع ثم ثاروا ثورة شيطانية وقاموا قومة طاغوتية فمنعوا من الصلاة في الجامع وما زال ينضم إليهم كل رافضي ومن له رغبة في إثارة الفتنة حتى صاروا جمعاً كثيراً ثم خرجوا فقصدوا بيت المؤذن الذي أظهر عليهم الرأي الإمامي فرجموه حتى كادوا يهدمونه وفيه نساء واطفال قد صاروا في أمر مريع هذا وليس لذلك المؤذن المسكين سعي ولا له قدرة على شيء ولكنه أرسل بالرأي الإمامي والي الأوقاف إليه ووالي الوقف أيضاً ليس له سعي في ذلك ولكنه أرسله إليه بعض من يتصل بالمقام الإمامي ، ثم لما فرغوا من رجم بيت المؤذن ذهبوا ولهم صراخ عظيم وأصوات شديدة إلى بيت والي الأوقاف وهو رجل من أهل العلم من آل رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) هو الامام المنصور علي بن العباس السابق ذكره .

وسلم فرجموا بيته رجماً شديداً حتى غشي على بعض من فيه من الشرائف
فقال لهم قائل ان هؤلاء الشرائف المرجومات هن بنات نبيكم وبنات علي بن
أبي طالب ، ولم يكنّ بنات معاوية ولا بنات عمرو بن العاص وغيرهما ممن
تعادونهم فما لكم ولهن ، فلم يلتفتوا إلى ذلك واستمرّوا على الرجم ثم دخلوا
إلى بعض البيت ونهبوا بعض متاعه وبلغهم ان والي الأوقاف وولده بمسجد
قريب بيته فحاصوا حيصة حُمُر الوحش وصرخوا صرخة الحُمُر الأهلية
وذهبوا إلى ذلك المسجد عازمين على قتله فأغلق عليه بعض الناس مقصورة
المسجد فسلم . ثم ذهبوا بصراخهم وجلبتهم إلى بيت بعض أهل العلم من
أهل البيت النبوي وكان يعظ الناس بالجامع ويتظهر ببعض من السنة فرجموا
بيته رجماً شديداً وفيه شرائف وأطفال . ثم ثاروا إلى بيت بعض وزراء الخليفة
لا لذنب إلاّ لكونه ينافسه ذلك الوزير الرافضي وكونه ينتسب إلى بعض بطون
قريش فرجموه رجماً شديداً ثم كسروا بعض أبوابه ودخلوا وكادوا يتصلون
بمن فيه لولا أنه حماهُ جماعة بالرمي بالبنادق وآخرون بالسلاح ، ويتصل
ببيت هذا الوزير المرجوم بيت وزير آخر من أهل العلم فرجموه ورجمهم
من في بيت الوزير حتى أصابوا جماعة منهم فتركوه ، وسبب رجمهم لبيت
الوزير هذا انه من جملة من يتظهّر بعلم السنّة ثم لما كاد ينقضي الليل فارقوا
ما هم فيه وقد أثاروا فتنة عظيمة ، ومحنة شديدة ولما كان النهار جمع الخليفة
أعوانه وطلبني واستشارني فأشرت عليه بأن يحبس أولئك المدرسين الذين
أثاروا الفتنة في الجامع بسبب ما يصدر منهم من نكاية القلوب وإثارة العوام
فحبسهم ثم أشرت عليه بأنه يأمر بتتبع أولئك الذين رجموا البيوت وفعلوا
تلك الأفاعيل ومن وجدوه حبسوه ويأمر بتتبع جماعة من شياطين الفقهاء
المثيرين للفتنة ففعل وحبسوا جميعاً ، ولكن لم ينصح والي مدينة صنعاء لموافقته
للوزير الرافضي في الرفض ومهابته له ووقوفه عندما يختاره ويرتضيه ، وبعد
أن اجتمع في الحبس جماعة كثيرة من هؤلاء أرسل الإمام حفظه الله لجماعة

من شياطينهم المباشرين للفتنة من الفقهاء فجيء بهم من الحبس إليه وضربهم
بالعصي تحت داره وهو ينظر ، ثم أرسل في اليوم الآخر لجماعة من أهل
السوق المباشرين للفتنة فصنع بهم ما صنع بأولئك، ثم جعل جماعة من شياطين
الجميع في سلاسل وأرسل بهم إلى جزائر البحر على هيئة منكرة فسكنت الفتنة
سكوناً تاماً .

ولقد شاهدت من التعصبات في هذه الفتنة ما بهرني من الخاصة والعامة
أما الخاصة فإني رأيت من أهل بيت الخلافة من أولاد الإمام وغيرهم ومن
الوزراء والأمراء والقضاة وأهل العلم من ذلك ما يعجب منه فإني لما أشرت
على الخليفة بما أشرت خرجت من المكان الذي هو مستقر فيه إلى حجرته وفيها
أكابر أولاده وهم إذ ذاك أمراء الأجناد وعندهم جميع الوزراء وهم جميعاً
في أمر مريج فيهم من يعظم عليه حبس أولئك المدرسين ويراه حطّاً في مرتبة
الرفض ونقصاً من الرافضة وقد فتل منهم ذلك الوزير الرافضي في الذروة
والغارب وأوهمهم أنها ستثور فتنة من العامة والأجناد ، وما زال بعض أولاد
الخليفة يردّد عليّ ذلك ويرغبني في الرجوع عن الشور الذي أشرت به على
الخليفة ويذكر ما قد ألقاه إليه الوزير الرافضي من خشية ثورة الأجناد والعامة
فما زلت أعرفه بالصواب وأذكر له أن هذه الفتنة لو لم تحسم يومنا هذا بحبس
المثيرين لها لهلك غالب الناس في الليلة الواصلة ونهبوا الأموال جهاراً وأنه
سيصل الأمر إلى الخليفة واولاده فضلاً عن غيرهم وعرّفته انه ما سيثور
بسبب ذلك أجناد ولا غيرهم فإن هذا تسكين للفتنة لا إثارة لها ، ولقد حمدوا
هذه المشورة بعد حين وعرفوا أنها صواب وأن بها كان سكون تلك الفتنة
التي غلت مراجلها وكادت تعم جميع أهل صنعاء ثم تسري بعد ذلك إلى
سائر الديار اليمنية .

وأما العامة فلا يتسع المقام لسرد ما شوهد منهم من الصولة والجولة

والاشتغال بهذا الأمر ولقد كنت أرى كثيراً من المنسوبين إلى العلم يبكون رحمةً لإخوانهم المثيرين للفتنة لما حلّ بهم من العقوبة ، ولقد تغيرت بهجة هذه المدينة « العظيمة » وتكدرت مشاربها العلمية وذهب رونق معارفها بما يصنعه جماعة المقصرين المغيّرين لفطرتهم السليمة بما حدث من علم الروافض ودسائسهم التي هي أضرّ على المقصرين من السم القتّال وأدوى على من لم تستحكم معرفته وترسخ في العلوم قدمه من الداء العضال على كثرة من فيها من العلماء المنصفين والطلبة المتميزين والأذكياء الماهرين فإنه قلّ أن يوجد بمدينة من المدائن ما يوجد الآن في صنعاء من رجوع أهل العلم بها إلى ما صح عن الشارع وعدم تعويلهم على الرأي وطرحهم للمذاهب عند قيام الدليل الناهض فإن هذه مزيّة وفضيلة لا تكاد تعرف في سائر الأقطار إلاّ في الفرد الشاذ البالغ من العلم إلى منزلة عليّة مع مراجعته لفطرته وتفكره في طروء ما طرأ من المغيرات وتدبره لما قدمنا ذكره من الأسباب الموجبة للتعصب الحائلة بين المتمذهبين وبين الانصاف وهذا النادر الشاذ يبالغ في الكتم ويستكثر من المجانبة لما يظنه الحق مخافة من وثوب المقلدة عليه وهتكهم له لأنهم لا يقنعون من العالم وإن كان في أعلى درجات الاجتهاد إلاّ بأن يكون مثلهم مقلداً بحتاً مقتدياً بالعالم الذي يقلدونه هم وأسلافهم ، وإن كان هذا العالم الذي يريدون منه ذلك أعلا رتبة وأجلّ قدراً وأكثر علماً من عالمهم الذي يقلدونه كما يجده من له اطلاع على كثير من أحوال الناس ، فإن في علماء المذاهب الأربعة من هو أوسع علماً وأعلا قدراً من إمامه الذي ينتمي إليه ويقف عند رأيه ويقتدي بما قاله في عبادته ومعاملته وفي فتاويه وقضائه ، ويسري ذلك إلى مصنفاته فيرجح فيها ما يرجحه إمامه وإن كان دليله ضعيفاً أو موضوعاً أو لا دليل بيده أصلاً بل مجرّد محض الرأي ، ويدفع من الأدلة المخالفة له ما هو أوضح من شمس النهار تارة بالتأويل المتعسف وحيناً بالزور الملفف مع كونه بمكان من العلم لا يخفى عنده الصواب ولا يلتبس معه الحق ، ولكنه

يفعل ذلك مخافة على نفسه من تلك الطبقة المشومة ، أو تأثيراً لما قد ظفر به من الدنيا والجاه الذي لا يستمر له إلاّ بالموافقة لهم والسلوك فيما يرضيهم وقد يحمله على ذلك الحرص على نفاق مصنفه بينهم واشتهاره عندهم وتداولهم له . وما كان أغناه عن هذه البليّة التي وقع فيها والجناية التي جناها على نفسه في العاجلة والآجلة ، أما في الآجلة فظاهر فإن اشتغاله بذلك التصنيف المشتمل على تأثير رأي فرد من أفراد أهل العلم على ما شرعه الله في محكم كتابه وعلى لسان رسوله من أعظم الذنوب التي تلقاه بين يدي الله فإنه ضالّ مضل مفتون فاتن محارب للشريعة المطهرة معاند لها فعليه إثم بما سنّه من هذه السنّة السيئة وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة وأما في العاجلة فإن مثل هؤلاء الصمّ البكم من المقلدة لا يفرح العاقل بانتشار مصنّفاته عندهم وشيوعها بينهم ، لأنهم لا يفهمون العلم ولا يعرفون أهله ولا فرق بينهم وبين العامة البحت إلاّ مجرد الدعوى والتلبس بلباس أهل العلم والقعود في مقاعد أهله فكما أن العاقل لا يفرح بإقرار جماعة له من البدو والحرّاث أو السوقة من أهل الحياكة والحجامة وسقّاط أهل المهن الدنيئة والمعاشر الوضيعة ، كذلك لا ينبغي له أن يفرح بمثل ذلك من المقلّدة ، فإنهم كما قال القائل :

فإن لم يكنها أو تكنه فإنّه ... أخوها غذّته أمّهُ بلبانها

ومع هذا فإنه يعرّض نفسه بهذا التصنيف لاستقصار أهل العلم الذين هم أهله وعليهم المعوّل فيه لغايته واستحقار ما جاء به والإزراء عليه من كل واحد منهم في عصره ذلك وما بعده من العصور ما دام ذلك المصنف المشؤوم موجوداً على وجه الأرض كما هو معلوم ، فإن المحقق من أهل العلم إذا عثر على شيء من هذه المصنفات المتعسفة الخارجة عن الحق انقبضت أنفسهم عنه واستبردوه وسقط مصنفه عندهم ولم يعدوه من أهل العلم في ورد ولا صدر وألحقوه بالطبقة التي حملته على ذلك الصنع الذي صنعه لهم وأخملوا ذكره في مصنفاتهم التي هي المصنفات المعتبرة .

وبالجملة فما صنع هذا المصنف لنفسه بذلك التصنيف إلاّ ما هو خزي له في الدنيا والآخرة ووبال عليه في الآجلة والعاجلة .

وقد يسلك بعض هؤلاء مسلكاً هو أخس من ذلك المسلك وذلك بأن يورد الأقوال ويحتج لكل واحد منها بما احتج به قائله ويستكثر من إيراد أدلة ما هو الحق منها ويخرجه من مخارجه المقبولة ثم يذكر ما قيل من ضعف دليل ما قال به من يعتقده أهل عصره وقطره وينسب ذلك التضعيف إلى من يعتدّ به من أهل العلم ثم يعترض ذلك التضعيف باعتراض يعرف من هو من أهل العلم والإتقان سقوطه وبطلانه ركوناً منه على أن ذلك لا يخفى على من له قدم في العلم وزعماً انه قد رمز لهم إلى ما هو الحق بإيراد دليله الصحيح وإلى ما يخالفه بإيراد دليله الضعيف ، وانه لم يأتِ بما أتى به من الاعتراض الساقط والتقوية للقول الفاسد إلاّ على وجه لا يخفى على أهل الإتقان ولا يلتبس عند العارفين ، وهو في زعمه قد أرضى الخاصة والعامة وسلك مسلكاً في غاية التحذلق ونهاية التبصّر وهو لا يشعر بأن الخاصة من أهل التحقيق في غنى عن رمزه وهمزه وتحذلقه فإنهم يعرفون مسالك الحق بدون ما زعمه ويأخذون الصواب من معادنه،فنفاق ما جاء به لديهم غاية ما فيه أنهم لا يطعنون عليه بالجهل والقصور والبلادة وبعد الإدراك ولكنه قد فتح للمقصّرين أبواب الطعن على الأدلة الصحيحة وزادهم إلى ما لديهم من البلايا الباطلة بلايا أخرى وجعل بينهم وبين الرجوع إلى الحق ردماً فوق الردم الذي قد كان معموراً ورفع أبنية الباطل وشيّدها ولم يهدم منها بتصنيفه حجراً ولا مدراً لأنه لقنهم المطاعن على الشرع وفتح لهم أبواب المقال على الأدلة وهم لا يعرفون أن اعتراضهم فاسد وأنه لا ينفق ولا يصلح لقصور افهامهم عن إدراك ما هو صحيح أو باطل وضعف معارفهم عن البلوغ إلى درجة التمييز فزادهم بما أفادهم شراً إلى شرهم وتعصّباً إلى تعصبهم وبعداً عن الحق إلى بُعدهم ، ولم ينتفع الخاصة بشيء مما جاء به من الألغاز بل أنزل بهم من

الضرر ما لم يكن قبله ، فإن أهل التعصب يصولون عليهم باعتراضه ويجولون ويدفعون به في وجه من قال بضعف دليل القول الذي قاله من يقلدونه ويجعلون ذلك ذريعة لهم إلى الاغتباط بما هم فيه والتهالك على ما ألفوه ووجدوا عليه آباهم ، وإنما التصنيف الذي يستحق أن يقال له تصنيف والتأليف الذي ينبغي لأهل العلم الذين أخذ الله عليهم بيانه وأقام لهم على وجوبه عليهم برهانه هو أن ينصروا فيه الحق ويخذلوا به الباطل ويهدموا بحججه أركان البدع ويقطعوا به حبائل التعصب ويوضحوا فيه للناس ما نزل إليهم من البيّنات والهدى ويبالغوا في إرشاد العباد إلى الإنصاف ويحبّبوا إلى قلوبهم العمل بالكتاب والسنّة وينفّروهم من اتباع محض الرأي وزائف المقال وكاسد الاجتهاد ، ولا يمنعهم من ذلك ما يخيله لهم الشيطان ويسوّله من أن هذا التصنيف لا ينفق عند المقلدة أو يكون سبباً لجلب فتنة أو نزول مضرة أو ذهاب جاه أو مال أو رئاسة فإن الله ناصر دينه ومتمم نوره وحافظ شرعه ومؤيد من يؤيّده وجاعل لأهل الحق ودعاة الشرع والقائمين بالحجة سلطاناً وأنصاراً واتباعاً وإن كانوا في أرض قد انغمس أهلها في موجات البدع وتكسّعوا(١) في متراكم الضلال ، وقد قدّمنا الإرشاد إلى شيء من هذا .

فإن قلت هؤلاء المتعصبة قد طبقوا جميع أقطار الأرض الإسلامية وصارت المدارس والفتاوي والقضاء وجميع الأعمال الدينية بأيديهم فإن كل مملكة من الممالك الإسلامية يعتزي أهلها إلى مذهب من المذاهب ونحلة من النحل وكل بلاد من البلاد وقطر من الأقطار كثرت أو قلّت لا بد أن يكون أهلها مقلّدين لميت من الأموات يأخذون عنه ما يجدون في مؤلفاته ومؤلفات أتباعه المقلّدين له حتى صارت مسائل مذهبهم نصب أعينهم لا يتحوّلون عنها ولا يخالفونها ويعتقد من تفاقم تعصبه من المقلّدة أن الخروج عن ذلك خروج

(١) تكسع في ضلاله اي ذهب .

من الدين بأسره وإن كانت بقية المذاهب على خلافه في تلك المسألة كما نجده في كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها فما عسى يغني إرشاد فرد من أفراد العلم إلى الإنصاف واتباع نص الدليل في قطر واسع من أقطار الأرض أو مدينة كبيرة من مدائنه فإنه بأول كلمة تخرج منه وأيسر مخالفة يفوه بها يقوم عليه من المقلدة من ينغّص عليه مشربه ويكدّر عليه حاله وأقل الأحوال أن يسعى به هؤلاء المقلدة إلى أمثالهم ممن بأيديهم الأمر والنهي والدولة والصولة فيمنعونه من المعاودة ويتوعدونه بأبلغ توعّد هذا إذا لم يمنعوه من التدريس والإفتاء بمجرّد ذلك ويحولون بينه وبين ما أردت منه بكل حائل وما يصنع المسكين بين مئين من المقلدة كل واحد منهم أجل قدراً منه وأنبل ذكراً وأحسن ثياباً وأفره مركوباً وأكثر اتباعاً عند ألوفٍ مؤلفة من العامة الذين هم بين جند وسوقة وحراث وأهل حرف لا يفهمون خطابا ولا يعقلون حقاً فما ظنك بالعامة إذا بلغهم الخلاف بين فرد من أفراد العلم خامل الذكر وبين جميع من يعدونه عالماً من أهل بلدهم من المدرسين والقضاة والمفتين وهم عدد جم ومقدار ضخم أتراهم يظنون الحق بيد ذلك الفرد ويتبعونه ويقولون بقوله ويدعون من يخالفه من أهل مدينتهم قاطبة هذا ما لا يكون فإنّا نجد العامة في قديم الزمن وحديثه مع الكثرة ولا سيما من كان له من أهل العلم نصيب من دولة كالقضاة فإن الواحد منهم يعدل عند العامة ألوفاً من أهل العلم الذين لا مناصب لهم ولا دولة فكيف إذا انضم إلى ذلك ما يلقيه إليهم المقلدة من الكلمات التي تثير غضبهم وتستطير حميتهم كقولهم هذا الرجل يخالف إمامكم ويدعو الناس إلى الخروج من مذهبه ويزري عليه ويقول انه جاء بغير الحق وخالف الشرع فإنهم عند سماع هذا مع ما قد رسخ في عقائدهم وثبت في عقولهم لا يبالون أي دم سفكوا وأي عرض انتهكوا يعلم هذا كل من له خبرة بهم وممارسة لهم .

قلت هذا السؤال الذي أوردته أيها الطالب للحق الراغب في الإنصاف قد أفادنا أنك لم تفهم ما قدمته لك في هذا الكتاب حق الفهم ولم تتصوره كلية التصور فقد كررت لك في مواضع منه ما تستفيد منه جواب ما أوردته هنا فعاود النظر وكرّر التدبّر وأطل الفكر بعد أن تبالغ في تصفية الفطرة وتستكثر من الاستعداد للقبول ، وهب أنه لم يتقدم ما يصلح أن يكون جواباً لما خطر ببالك الآن من هذا السؤال ، فها أنا أجيب عليك بجوابين الأول جواب مجمل ، والآخر جواب مفصّل ، أما الجواب المجمل فأقول لك بعد تسليم جميع ما أوردته في سؤالك هذا من أن حامل العلم ومبلغ الحجة سيحال بينه وبين ما يريده بأول كلمة تخرج منه فيها مخالفة لما ألفه الناس ولا يقدر بعدها على شيء من الهداية الى الحق والارشاد الى الانصاف لما قدرته من انها ستقوم عليه القيامة وتأزف [1] عليه الآزفة وتضيق عنه دائرة الحق وتنبو عنه جميع المسامع وتؤخذ عليه كل وسيلة فبعد هذا كله قد قام بما اوجب الله عليه وأراد ما طلبه الله منه من الهداية ووفى بما أخذ عليه من العهد وامتثل ما ألزمه به من البيان وصار بذلك من العلماء العاملين القائمين بنشر حجج الله وابلاغ شرائعه وهذا فرضه ليس عليه غيره ولا يجب من سواه فهو لم يكتم ما علّمه الله ولا خان عهد الله ولا خالف أمره ولا اشترى به ثمنا قليلا ولا باعه بعرض من اعراض الدنيا ، فله أجر من مكنه الله من ذلك وخلى بينه وبينه لانه قد قام في المقام الذي افترضه الله عليه وسلك الطريقة التي أمره بسلوكها فحال بينه وبينه من لا يطيق دفعه ولا يقدر على مناهضته فكان ذلك قائما بعذره مسقطا لفرضه موجبا لاستحقاقه لثواب ما قد عزم عليه وأجر ما أراده ، فأي غنيمة أجلّ من غنيمته ونعمة اكبر من نعمته وأين منزلته عند الله من منزلة من فتح الله عليه من ابواب معارفه ولطائف شريعته بما يفرق به بين الحق والباطل

(١) تأزف اي تحين والآزفة من اسماء يوم القيامة .

ويعرف به صواب القول من خطأه فكتم الحجة وآثر على نشرها ما يرجوه
من استدرار خلف من أخلاف الدنيـــا ونيل جاه من الجاهات ورئاسة من
الرئاسات ومعيشة من المعائش فمضى عمره وانقضت حياته كاتما للحجة
مخالفا لأمر الله نابذا لعهده طارحا لما أخذه عليه •

واما الجواب المفصل فاعلم اني لم أرد بما أرشدت اليه في هذا الكتاب
ما خطر ببالك ولا لوم عليّ فقد كررت لك ما قصدته تكريرا لا يخفى على
الفطن فهل طلبت من حامل الحجة ان يقوم بين ظهراني الناس قائلا اجتنبوا
كذا من الرأي اتبعوا كذا من الكتاب والسنة صارخـا بذلك في المحافل
ناطقا به في المشاهد مع علمه بتراكم سحائب الجهل وتلاطم امواج بحـار
التعصب واظلام أفق الانصاف واكفهرار وجه الاسترشاد فان هذا وان كان
مسقطا لما افترضه الله على من استخلصه من عباده لحمل حجته وابلاغ
شريعته لكن لكل عالم قدوة بأنبياء الله وأسوة بمن أرسله من رسله فقد
كانوا عليهم الصلاة والسلام يدبرون عبـاد الله بتدبيرات فيها من الرفق
واللطف وحسن المسلك ما لا يخفى على أهل العلم • فان نبينا صلى الله
عليه وآله وسلم قد تألّف رؤساء المشركين وهم اذ ذاك حديثو عهد بجاهلية
وترك المهاجرين والانصار من الغنيمة وسيوفهـم تقطر من دماء المؤلفين
واتباعهم ومن يشاكلهم فيما كانوا عليه • وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم
انه ترك من كان منافقا على نفاقـه وعصمهم بظـاهر كلمـة الاسلام ولم
يكشفهم ويتلف ما عندهم بعد ان ظهر منهم ما ظهر من النفاق كعبد الله
ابن ابيّ بن سلول رأس المنافقين وقال لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه •
وقد اشتمل الكتّاب والسنّة على ما كان يقع من الانبياء صلوات الله عليهم
وسلامه من تدبير أممهم والرفق بهم واغتنام الفرص في ارشادهم وألقى
ما يحدبهم الى الحق في الوقت بعد الوقت والحالة بعد الحالة على حسب
ما تقبله عقولهم وتحتمله طبايعهم وتفهمه اذهانهم • فالعالم الذي أعطاه
الله الامانة وحمله الحجة وأخذ عليه البيان يورد الكلام مع كل أحد على

حسب ما يقبله عقله وبقدر استعداده فان كان كلامه مع أهل العلم الذين
يفهمون الحجة ويعقلون البرهان ويعلمون ان الله سبحانه لم يتعبد عباده
الا بما أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله وحال بينهم وبين الالتفات الى
ذلك والرجوع اليه والعمـل عليه ما تكدرت به فطرهم وتشوشت عنده
افهامهم من اعتقاد حقية لتقليد او استعظام الامـوات من اهل العلـم او
استقصار انفسهم عن معرفة الحـق بنص الدليـل فعليه ان يعتمد معهم
تسهيل ما تعاظموه من الوقوف على الحق قائلا ان الله تعبّد جميع هذه
الامة بما في الكتاب والسنة ولم يخص بفهم ذلك من كان من السلف دون
من تبعهم من الخلف ولا قصر فضله بما شرعه لجميع عباده على أهل عصر
دون عصر او أهل قطر دون قطر او أهل بطن دون بطن • فالفهـم الذي
خلقه للسلف خلق مثله للخلف والعقل الذي ركبه في الاموات ركب مثله
في الاحياء • والكتاب والسنّة موجودان في الازمنة المتأخرة كما كانا في
الازمنة المتقدمة والتعبّد بهما لمن لحـق كالتعبّد لمن مضى • وعلم لغـة
العرب موجود في الدفاتر عند المتأخرين على وجه لا يشذ منه شيء بعد ان
كان المتقدمون يأخذونه عن الرواة حرفا حرفا ويستفيدون من اربابه كلمة
كلمة • وكذلك تفسير الكتاب العزيز موجـود في التفاسير التي دوّنهـا
السلف للخلف بعد ان كان الواحد منهم يرحـل في تفسير آية من كتاب
الله الى الاقطار الشاسعة • وكذلك الاحاديث المروية عن رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم موجودة في الدفاتر التي جمعها الاول للآخر بعد ان
كان الواحد منهم يرحل في طلب الحديث الواحد الى البـلاد البعيـدة •
وهكذا جميع العلوم التي يستعان بها على فهم الكتاب والسنّة فالوقوف
على الحق والاطلاع على ما شرعه الله لعباده قد سهّله الله على المتأخرين
ويسره على وجه لا يحتاجون فيه من العنايـة والتعب الا بعض ما كان
يحتاجه من قبلهم • وقد قدمنا الاشارة الى هذا المعنى • ثم ان هذا العالم
يوضح لمن يأخذ عنه العلم في كل بحث ما يقتضيه الدليل ويوجبه الانصاف

وهو وان أبى ذلك في الابتداء فلا بد ان يؤثر ذلك البيان في طبعه قبولا
وفي فطرته انقيادا ويحرص على ان تكون اوقاته مشغولة بتدريس الطلبة
في كتب التفسير والحديث وشروحه وفي كتب الفقه التي يتعرض مؤلفوها
لذكر الادلة والترجيح فانه في تدريس هذه المؤلفات يتيسر له من الارشاد
والهداية وتأسيس الحق وتقريب الانصاف ما لا يتيسر له في غيرها وان
كان كلامه مع من هو دون هذه الطبقة فأنفع ما يلقيه اليه هو ترغيبه في
علوم الاجتهاد وتعريفه ان المقصود بهذه العلوم هو الوصول الى ما وصل
اليه علماء الاسلام فاذا جدّ في ذلك فقد انفتحت منه ابواب الهداية
ولاحت عليه أنوار التوفيق ثم اذا تأهل واستعد لفهم الحجة سلك معه المسلك
الاول . ومن كان لا يهتدي الى طلب تلك العلوم بوجه من الوجوه فأقرب
ما يسلكه العالم معه هو ان ينظر الى من قال من أهل العلم الذين يعتقدهم
ذلك المقصر بما قامت عليه الادلة واوجب سلوكه الانصاف فيقول له ان
قول العالم الفلاني قول راجح لقيام الادلة عليه . ثم يصنع معه هذا الصنع
في المسائل التي يعتقدها تقليدا ويجمد عليها قصورا فان انتفع بذلك فهو
المطلوب . وان لم ينتفع فأقل الاحوال السلامة من معرّته والخلوص من
شره .

واما العامة الذين لم يتعلقوا بشيء من علم الرأي فهم أسرع الناس
انقيادا وأقربهم الى القبول ان سلموا من بلايا ما يلقيه اليهم المتعصبون .

وبالجملة فالعالم المتصدي للارشاد المتصدي للهداية لا يخفى عليه ما
يصلح من الكلام مع من يتكلم معه . فهذا هو الذي أردته من نشر حجج
الله وارشاد العباد اليها وقد قدمته بأبسط من هذا وانما كررته هنا لقصد
دفع ما سبق من السؤال .

ومن جملة اسباب التعصب التي لا يشعر بها كثير من المشتغلين بالعلوم
ما يذكره كثير من المصنفين من انه يرد ما خالف القواعد المقررة فان من

لا عناية له بالبحث يسمع هذه المقالة ويرى ما صنعه كثير من المصنفين من
رد الادلة من الكتاب والسنّة اذا خالف تلك القاعدة فيظن انها في اللوح
المحفوظ فاذا كشفها وجدها في الغالب كلمة تكلم بها بعض من يعتقده
الناس من أهل العلم الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى لا مستند لها الا
محض الرأي وبحث ما يُدّعى من دلالة العقل . وكثيرا ما تجد في علم
الكلام الذي يسمونه اصول الدين قاعدة قد تقررت بينهم واشتهرت وتلقنها
الآخر من الاول وخطوها جسرا يدفعون بها الآيات القرآنية والاحاديث
النبوية فاذا كشفت عنها وجدتها في الاصل كلمة قالها بعض حكماء الكلام
زاعما انه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه . وليس الا مجرد الدعوى على
العقل وهو عنه بريء فانه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده بل
قضى به عقل قد تدنس بالبدع وتكدر بالتعصب وابتلي بالجهل بما جاء به
الشرع وجاء بعده من هو اشد بلاء منه واسخف عقلا وأقل علما وأبعد عن
الشرع فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية فدفع بها جميع ما جاء عن الشارع
عرف هذا من عرفه وجهله من جهله . ومن لم يعرف هذا فليتهم نفسه .
فيا لله العجب من مزية يفتريها على العقل بعض من حُرم علم الشرع .
ثم يأتي من بعده فيجعلها أصولا مقررة وقواعد محررة . ويؤثرها على
قول الله عز وجل وقول الانبياء . وهكذا تجد في علم اصول الفقه قاعدة
قد اخذها الآخر عن الاول وتلقنها الخلف عن السلف وبنوا عليها القناطر
وجعلوها اماما لادلة الكتاب والسنة يجيزون ما اجازته ويردون ما ردته .
وليست من قواعد اللغة الكلية ولا من القوانين الشرعية بل لا يستند لها
الا الخيال المختل والظن الفاسد والرأي البحت . ومع هذا فهم يزعمون
ان هذا العلم لا تُقبل فيه الا الادلة القطعية دعوى ظاهرة البطلان واضحة
الفساد . فان غالبها لا يوجد عليه دليل من الآحاد صحيح ولا حسن .
بل لا يوجد احادي ضعيف . وغالب ما يوجد الموضوعات التي لا يمتري
من له حظ من العلم في كذبها كاستدلالهم بمثل حكمي على الواحد حكمي

على الجماعة • وبمثـل نحن نحكم بالظـاهر • ونحو هذه الاكاذيب •
فالمغرور من اغتر بهذه الدلس • والمخدوع من خـدع بها وترقى بها من
كونها موضوعة الى كونها صحيحة ثم من كونها صحيحـة الى كونهـا
قطعية • فيا لله العجب من نفاق مثل هذه الامور على كثير من أهل العلم
وانقراض القرن بعد القرن والعصر بعد العصر • وهي عندهـم مسائـل
قطعية وقواعد مقررة والذنب لمن تكلم بها وذكرها في مؤلفاته ولم يقف
حيث اوقفه الله من جهله بما جاء في الشريعة •

وهكذا ما وقع في كثير من ابواب الفقـه من ذكر قواعد يطردونها في
جميع المسائل ويظنون انها من قواعد الشرع الثابتة بقطعيات الشريعة •
ومن كشف عن ذلك وجد اكثرها مبنيا على محض الرأي الذي ليس عليه
اثارة من علم ولا يرجع الى شيء من الشرع • ومن خفي عليه هذا فليعلم
ان قصوره وعدم اشتغاله بالعلـم هو الذي جنى عليه وغرّه بما لا يغتر به
من عض على العلم بناجذه وكشف عن الامور كما ينبغي •

فعلى من أراد الوصول الى الحـق والتمسك بشعار الانصاف ان
يكشف عن هذه الأمور فانه اذا فعل ذلك هان عليه الخطب ولم يحل بينه
وبين الحق ما ليس من الحق •

ومن اسباب الوقوع في غير الانصاف والتمسك بذيل من الاعتساف•
ان يأخذ طالب الحق أدلة المسائل من مجاميع الفقه التي يعتزي مؤلفها الى
مذهب من المذاهب • فان من كان كذلك يُبالـغ في ايراد أدلة مذهبـه
ويُطيل ذيل الكلام عليها ويصرح تارة بأنها أدلة • وتارة بأنها حجج •
وتارة بأنها صحيحة • ثم يطفف لخصمـه المخالف فيورد أدلته بصيغـة
التمريض • ويعنونها بلفظ الشبه • وما يؤدي هذا المعنى • فاذا اقتصر
طالب الحق على النظر في مثل هذه المؤلفات وقـع في الباطـل وهو يظنه

الحق • وخالف الحق وهو يظنه الباطل • والذي اوقعه في ذلك اقتصاره
في البحث والنظر على ذلك الكتاب الذي الفه ذلك المتعصب • واحسان
الظن به • وغفوله عن ان مواطن الادلة هي مجاميع الحديث كالامهات
وما يلتحق بها • وان هؤلاء هم أهل العلم وأربابه الذين يعرفون صحيحه
من فاسده كما قدمنا الاشارة الى هذا •

ولا بأس بأن ينظر طالب الحق في كتب العلماء المشهورين بالانصاف
الذين لم يتعصبوا لمذهب من المذاهب ولا انتسبوا الى عالـم من العلماء
فانه يستفيد بمطالعـة مؤلفات المنصفين كيفية العمـل عند التعارض •
ويهتدي الى مواقع الترجيح ومواطن ما يحق من الاجتهاد على الوجـه
المطابق •

وهكذا كتب الكلام واصول الفقه فان كل طائفة تصنع هذا الصنع
في الغالب فتصف ما يوافق مذهبها بالحجج القواطع والادلة الراجحة •
وتطفف للمخالف فتورد له ما لا يعجزون عن جوابـه ودفعه • ويتركون
ما لا يتمكنون من دفعـه • وقد يذكرونه على وجه فيه مدخل للدفـع
ويلصقون به ما يفتح فيه ابواب المقال • فليحذر المنصف من الركون على
ما يورده المتذهبون لانفسهم ولخصومهم من الحجج • فانه قد علق بكل
طائفة من العداوة للاخرى ما يوجب عدم القبـول من بعضهم في بعض •

وبالجملة فليس المتعصب بأهل لان يؤخذ الحق من مؤلفاته فانه اذا لم
ينتفع بالعلم ويهتدي بما عرف منه فكيف يهتدي به غيره او يتوصل بما
جمعه الى ما هو الحق • فالمصاب بالعمى لا يقود الاعمى • فان فعل كانت
ظلمات بعضها فوق بعض• والمريض لا يداوي من هو مصاب بمثل مرضه•
ولو كان صادقا فيما يزعمه من اقتداره على المداواة كانت نفسه التي بين
جنبيه احق بذلك منه •

ومن جملة الاسباب المانعة من الانصاف التقليد في علم الجرح والتعديل لمن فيه عصبية من المصنفين فيه كما يجده اللبيب كثيرا • فانه اذا تصدى لذلك بعض المصابين بالتقليد كان العدل عنده من يوافقه في مذهبه الذي يعتقده • والمجروح من خالفه كائنا من كان • ومن خفي عليه فلينظر ما في مصنفات الحفاظ بعد انتشار المذاهب وتقيد الناس بها •

وكذلك ما في كتب المؤرخين فان الموافقة في المذهب حاملة على ترك التعرض لموجبات الجرح وكتم الاسباب المقتضية لذلك فان وقع التعرض لشيء منها نادرا اكثر المصنف من التأويلات والمراوغات والتعسفات الموجبة لدفع كون ذلك الخارج خارجا • وان كان الكلام على احوال المخالفات كان الامر بالعكس من ذلك فالفضائل مغموطة والرذائل منشورة من غير تأويل ولا احسان ظن •

وبالجملة فالاهتمام في الموافق بذكر المناقب دون المثالب• وفي المخالف بالعكس من ذلك • ولا اقول انهم يتعمدون الكذب ويكتمون الحق فهم اعلى قدرا واشد تورعا من ذلك • ولكن رسخ في قلوبهم حب مذاهبهم فأحسنوا الظن بأهلها فتسبب عن ذلك ما ذكرنا ولم يشعروا بأن هذا الصنيع من اشد التعصب واقبح الظلم • بل ظنوا ان ذلك من نصرة الدين ورفع منار المحقين ووضع امر المبطلين غفلة منهم وتقليدا • وقد يقع ذلك بين أهل المذهب الواحد مع اتفاقهم في التقليد لامام واحد واعتقادهم بمعتقد واحد • فاذا تصدى احدهم لتراجم أهل مذهبه أطال ذيل الكلام عند ذكر شيوخه وتلامذته بكل ما يقدر عليه • وكذلك يوسع نطاق المقام عند ترجمته لمن له عليه اي يد كانت فاذا ترجم غير شيوخه وتلامذته وأهل مودته طفف لهم تطفيفا • وأوسعهم ظلما وحيفا • واذا كان هذا مع الاتفاق في المذهب والمعتقد فما ظنك بما يكون مع الاختلاف في المذهب والاتفاق في التسمي باسم واحد اما باعتبار الاعتقاد او باعتبار أمر آخر

كأهل المذاهب الاربعة فانهم اختلفوا في المذاهب مع اتفاقهم على انهم أهل السنة واشتراك غالبهم في اعتقاد قول الاشعري • فان دائرة الأهوية حينئذ تتسع • ومحبة العصبية تكثر • كما تراه كثيرا في تراجم بعضهم لبعض خصوصا فيما بين الحنابلة ومن عداهم من أهل المذاهب الاربعة • وكذلك فيما بين الحنفية ومن عداهم • ومن نظر في ذلك بعين الانصاف علم بالصواب •

دع عنك ما يقع مع الاختلاف في المذاهب والمعتقدات فانه يبلغ الامر الى عداوة فوق عداوة أهل الملل المختلفة • فطالب الانصاف لا يلتفت الى شيء مما يقع من الجرح والتعديل بالمذاهب والنحل • فيقبلون جميعا الا ان يكون ما جاء به المتمذهب مقويا لبدعته • او كان على مذهب لا يرى بالكذب فيه بأسا كما هو عند غلاة الرافضة • واما ما عدى الجرح والتعديل بالمذاهب والمعتقدات فان كان المتكلم في ذلك بريا عن المتمذهب والتعصب كما يُروى عن السلف قبل انتشار المذاهب فأحرص عليه واعمل به على اعتبار صحة الرواية وصدوره في الواقع واما باعتبار كونه جارحا او غير جارح فذلك مفوض الى نظر المجتهد • والذي ينبغي التعويل عليه ان القادح ان كان يرجع الى امر يتعلق بالرواية كالكذب فيها وضعف الحفظ والمجازفة فهذا هو القادح المعتبر • وان كان يرجع الى شيء آخر فلا اعتداد به وان كان المتكلم متلبسا بشيء من هذه المذاهب فهو مقبول في جرح من يجرحه من الموافقين له وتزكية من يزكيه من المخالفين له • واما ما جاء بما يقتضي تعديل الموافق وجرح المخالف فهذا مما ينبغي التوقف فيه حتى يعرف من طريق غيره او يشتهر اشتهارا يقبله سامعه •

ومن الاسباب المانعة من الانصاف ما يقع من المنافسة بين المتقاربين في الفضائل او في الرئاسة الدينية او الدنيوية فانه اذا نفخ الشيطان في أنفهما وترقت المنافسة بلغت الى حد يحمل كل واحد منهما على ان يرد ما

جاء به الآخر اذا تمكن من ذلك وان كان صحيحا جاريا على منهج الصواب ٠
وقد رأينا وسمعنا من هذا القبيل عجائب صنع فيها جماعة من أهل العلم
صنيع أهل الطاغوت ٠ وردوا ما جاء به بعضهم من الحق وقابلوه بالجدال
الباطل والمراء القاتل واني لاذكر أيام اشتغال الطلبة بالدرس عليّ في كثير
من العلوم وكنت أجيب عن مسائل ترد عليّ يحررها الطلبة ويحررها
غيرهم من أهل العلم من أمكنة قريبة وبعيدة ٠ فكان يتعصب على تلك
الاجوبة جماعة من المشاركين لي في تدريس الطلبة في علوم الاجتهاد
وغيرها ٠ وقد يسلكون مسلكا غير هذا فيقع منهم الايهام على العوام
بمخالفة ذلك الكلام لما يقوله من يعتقدون قوله من الاموات فينشأ عن ذلك
فتن عظيمة ، وحوادث جسيمة ٠ وكان بعض نبلائهم يكتب على بعض ما
أكتبه ثم يهديه الى السائل وان كان في بلد بعيد من دون ان يقصده
بسؤال ٠ ولا طلب منه تعقب ما اجبت به من المقال ٠ وقد أقف على شيء
من ذلك فأجده في غاية من الاعتساف فأتعقبه تعقبا فيه كشف عواره
وايضاح بواره ٠ وقد ينضم الى ذلك ذكر كلمات والاستشهاد بأبيات
اقتضاها الشباب والنشاط واشتعال الغضب لما أراه من التعصب والمنافسة
على ما ليس لي فيه اختيار ٠ فان ورود سؤالات السائلين اليّ من العامة
والخاصة وانثيال المستفتين من كل جهة لم يكن بسعي مني ولا احتيال ٠
وكذلك اجتماع نبلاء الطلبة لديّ وأخذهم عني وتعدد دروسهم عندي
ليس لي فيه حيلة ولا هو من جهتي ٠ فكان هذا الصنع منهم يحملني على
مجاوبتهم بما لا يعجبني بعد الصحو من سكر الحداثة والقيام من رقدة
الشباب ٠ لا لكونه غير حق او ليس بصواب ٠ بل لكون فيه من سهام
الملام وصوارم الخصام ما لا يناسب هذا المقام٠ فاذا كان هذا في المشتركين
في التدريس والافتى وهما خارجان عن مناصب الدنيا لانهما في ديارنا لا
يقابلان بشيء من الدنيا لا من سلطان ولا من غيره من نوع الانسان ٠ فما
بالك بالرئاسات التي لها مدخل في الدين والدنيا ٠ او التي هي خاصة

بالدنيا متمحضة لها ٠ فانه لا شك ان التنافس بين أهلها أهم من الرئاسات
الدينية المحضة التي لم تشب بشيء من شوائب الدنيا ٠ فينبغي للمنصف
ان لا يغفل عن هذا السبب ٠ فان النفس قد تنقبض عن كلام من كان
منافسا في رتبة معارضا في فضيلة وان كان حقا ٠ وقد يحصل مع الناظر
فيه زيادة على مجرد الانقباض فيتكلم بلسانه او يحرر بقلمه ما فيه
معارضة للحق ودفع للصواب فيكون مؤثرا لحمية الجاهلية وعصبية
الطاغوت على الشريعة المطهرة ٠ وكفى بهذا فانه من الخذلان البيّن ٠
نسأل الله الهداية الى سبيل الرشاد ٠

ومن أسباب التعصب الحائلة بين من أصيب بها وبين المتمسك بالانصاف
التباس ما هو من الرأي البحت بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد٠
وكثيرا ما يقع ذلك في اصول الفقه فانه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر
والصحيح بالفاسد والجيد بالرديء فربما يتكلم أهل هذا العلم على
مسائل من مسائل الرأي ويحررونها ويقررونها وليست منه في شيء ولا
تعلق لها به بوجه ٠ فيأتي الطالب لهذا العلم الى تلك المسائل فيعتقد انها
منه فيرد اليها المسائل الفروعية ، ويرجع اليها عند تعارض الادلة ٠ ويعمل
بها في كثير من المباحث ، زاعما انها من اصول الفقه ٠ ذاهلا عن كونها من
علم الرأي ٠ ولو علم بذلك لم يقع فيه ولا ركن اليه ٠ فيكون هذا وأمثاله
قد وقعوا في التعصب وفارقوا مسلك الانصاف ورجعوا الى علم الرأي
وهم لا يشعرون بشيء من ذلك ولا يفطنون به بل يعتقدون انهم متشبثون
بالحق متمسكون بالدليل واقفون على الانصاف خارجون عن التعصب ٠
وقل من يسلم من هذه الدقيقة وينجو من غبار هذه الاعاصير ٠ بل هم
اقل من القليل ٠ وما اخطر ذلك واعظم ضرره واشد تأثيره واكثر وقوعه
وأسرع نفاقه على أهل الانصاف وأرباب الاجتهاد ٠

فان قلت اذا كان هذا السبب كما زعمت من الغموض والدقة ووقوع

كثير من المنصفين فيه وهم لا يشعرون فما أحقه بالبيان وأولاه بالايضاح وأجدره بالكشف حتى يتخلص عنه الواقعون فيه وينجوا منه المتهافتون اليه •

قلت أعلم ان ما كان من أصول الفقه راجعا الى لغة العرب رجوعا ظاهرا مكشوفا كبناء العام على الخاص • وحمل المطلق على المقيد ورد المجمل الى المبيّن • وما يقتضيه الامر والنهي ونحو هذه الامور • فالواجب على المجتهد ان يبحث عن مواقع الالفاظ العربية • وموارد كلام أهلها وما كانوا عليه في مثل ذلك • فما وافقه فهو الاحق بالقبول والاولى بالرجوع اليه • فاذا اختلف اهل الاصول في شيء من هذه المباحث كان الحق بيد من هو أسعد بلغة العرب • هذا على فرض عدم وجود دليل شرعي يدل على ذلك • فان وجد فهو المقدر على كل شيء • واذا أردت الزيادة في البيان والتكثر من الايضاح بضرب من التمثيل وطرق من التصوير فاعلم انه قد وقع الخلاف في انه هل يُبنى العام على الخاص مطلقا او مشروطا بشرط ان يكون الخاص متأخرا • ووقع الخلاف في انه هل يُحمل المطلق على المقيّد مع اختلاف السبب ام لا • ووقع الخلاف في معنى الامر الحقيقي هل هو الوجوب او غيره • ووقع الخلاف في معنى النهي الحقيقي هل هو التحريم او غيره • فاذا أردت الوقوف على الحق في بحث من هذه الابحاث فانظر في اللغة العربية واعمل على ما هو موافق لها مطابق لما كان عليه أهلها • واجتنب ما خالفها فان وجدت ما يدل على ذلك من أدلة الشرع كما تقف عليه في الادلة الشرعية من كون الامر يفيد الوجوب والنهي يفيد التحريم فالمسألة أصولية لكونها قاعدة كلية شرعية لكون دليلها شرعيا كما ان ما يستفاد من اللغة من القواعد الكلية اصولية لغوية • فهذه المباحث وما يشابهها من مسائل النسخ ومسائل المفهوم والمنطوق الراجعة الى لغة العرب المستفادة منها على وجه يكون قاعدة

كلية هي مسائل الاصول • والمرجع لها الذي يعرف به راجحها من مرجوحها هو العلم الذي هي مستفادة منه مأخوذة من موارده ومصادره • واما مباحث القياس فغالبها من بحث الرأي الذي لا يرجع الى شيء مما تقوم به الحجة وبيان ذلك انهم جعلوا للعلة مسالك عشرة لا تقوم الحجة بشيء منها الا ما كان راجعا الى الشرع • كمسلك النص على العلة • او ما كان معلوما من لغة العرب كالالحاق بمسلك الغاء الفارق • وكذلك قياس الاولى المسمى عند البعض بفحوى الخطاب • واما المباحث التي يذكرها أهل الاصول في مقاصده كما فعلوه في مقصد الكتاب ومقصد السنة والاجماع • فما كان من تلك المباحث الكلية مستفادا من ادلة الشرع فهو أصولي شرعي • وما كان مستفادا من مباحث اللغة فهو اصولي لغوي • وما كان مستفادا من غير هذين فهو من علم الرأي الذي كررنا عليك التحذير منه • ومن المقاصد المذكورة في الكتب الاصولية التي هي من محض الرأي الاستحسان • والاستصحاب والتلازم •

واما المباحث المتعلقة بالاجتهاد والتقليد وشرع من قبلنا والكلام على أقوال أصحابه فهي شرعية فما انتهض عليه دليل الشرع منها فهو حق • وما خالفه فباطل •

واما المباحث المتعلقة بالترجيح ، فان كان المرجح مستفادا من الشرع فهو شرعي • وان كان مستفادا من علم من العلوم المدونة فالاعتبار بذلك العلم فان كان له مدخل في الترجيح كعلم اللغة فانه مقبول • وان كان لا مدخل له الا لمجرد الدعوى كعلم الرأي فانه مردود •

واذا تقرر هذا ظهر لك منه فائدتان • الاولى ارشادك الى ان بعض ما دونه أهل الاصول في الكتب الاصولية ليس من الاصول في شيء بل هو من علم الرأي الذي هو عن الشرع وما يتوصل اليه به من العلوم بمعزل •

الفائدة الثانية : ارشادك الى العلوم التي تستمد منها المسائل المدونة في الاصول لترجع اليها عند النظر في تلك المسائل حتى تكون على بصيرة ويصفو لك هذا العلم ويخلص عن مشوب الكذب .

فان قلت اذا كان الامر كما ذكرته فما تقول فيما يزعمه أهل الاصول من انه لا يقبل في اثبات مسائله الا الادلة القطعية .

قلت هذه دعوى منهم يكذبها العمل ويدفعها ما دوّنوه في هذا العلم من أدلة مسائله .

فان قلت اذا كان استمداد هذا العلم عندهم من الكلام والعربية والاحكام كما صرحوا به فليس ذلك دعوى مجردة . فانهم قد صرحوا في علم الكلام بأنه لا يقبل في اثبات مسائله الا الادلة القطعية . وصرحوا في الكلام على نقل اللغة انها لا تثبت بالآحاد. واذا كان ما منه الاستمداد مثبتا ببراهين قطعية كان ما استمد منه مثله في ذلك .

قلت هذه دعوى على دعوى وظلمات بعضها فوق بعض . اما علم الكلام فغالب مسائله مبنية على مجرد الدعاوى على العقل التي هي كسراب بقيعة اذا جاءه طالب الهداية لم يجد شيئا . وقد قدمنا الاشارة الى هذا . واما ما كان من مسائله مأخوذا من الشرع فهي مسائل شرعية ولا فرق بين شرعي وشرعي من هذه الحيثية . واما اللغة فقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل يشترط في اثباتها ان يكون النقل متواترا ام لا . والحق بيد من لم يثبت هذا الشرط فان سابق المشتغلين بنقل علم اللغة ولاحقهم قد رأيناهم يثبتونها لمجرد وجود الحرف في بيت من أبيات شعرائهم . وكلمة من كلمات بلغائهم . ومن انكر هذا فهو مكابر لا يستحق تطويل الكلام معه .

(بيان ما ينبغي لطالب العلم تعلمه)

واذا قد انتهى بنا الكلام في بيان الاسباب المانعة من الانصاف الى هذه الغاية . وتغلغل بنا البحث الى ذكر ما ذكرناه من تلك الدقائق التي ينبغي لكل عالم ومتعلم ان تكون نصب عينيه في اقدامه واحجامه . وان تكون ثابتة في تصوره في جميع أحواله . وما أحقها بذلك . وأولاها بالحرص على ما هنالك . فانها فوائد لا توجد في كتاب . وفرائد لا يخلو اكثرها عن قوة كثير من المرشدين المحققين وان حال بينهم وبين ابرازها الى الفعل حجاب .

فلنتكلم الآن على ما ينبغي لطالب العلم أن يتعلمه من العلوم .

فأقول انها لما كانت تتفاوت المطالب في هذا الشأن ، وتتباين المقاصد بتفاوت همم الطالبين واغراض القاصدين . فقد ترتفع همة البعض منهم فيقصد البلوغ الى مرتبة في الطلب لعلم الشرع ومقدما لها يكون عند تحصيلها اماما مرجوعا اليه مستفادا منه مأخوذا بقوله مدرسا مفتيا مصنفا. وقد تقصر همته عن هذه الغاية فتكون غاية مقصده ومعظم مطلبه ونهاية رغبته ان يعرف ما طلبه منه الشارع من احكام التكليف والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه . ولا يحتاج الى غيره من دون ان يتصور البلوغ الى ما تصوره أهل الطبقة الاولى من تعدي فوائد معارفهم الى غيرهم . والقيام في مقام اكابر الائمة . ونحارير هذه الامة . وقد يكون نهاية ما يريده وغاية ما يطلبه امرا دون أهل الطبقة الثانية وذلك كما يكون من جماعة يرغبون الى اصلاح ألسنتهم وتقويم افهامهم بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون اليه من الشرع وعدم تحريفه وتصحيفه وتغيير اعرابه من دون قصد منهم الى الاستقلال . بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج الى الترجيح .

فهذه ثلاث طبقات للطلبة من المتشرعين الطالبين للاطلاع على ما جاء في الكتاب والسنة ، اما كلا او بعضا بحسب اختــلاف المقاصد وتفاوت المطالب .

وثم طبقة رابعة يقصدون الوصول الى علم من العلــوم او علمين او اكثر لغرض من الاغراض الدينية والدنيويــة من دون تصور الوصول الى علم الشرع . فكانت الطبقات اربع . وينبغي لمن كان صادق الرغبــة قوي الفهم ثاقب النظر عزيز النفس شهم الطبع عالي الهمة سامي الغريزة ان لا يرضى لنفسه بالدون . ولا يقنع بما دون الغايــة . ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المبلغين له الى أعلا ما يراد وأرفع ما يستفاد فان النفوس الابية ، والهمم العلية ، لا ترضى بدون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه او مال او رئاسة او صناعة او حرفة حتى قال قائلهم :

اذا غامرت في شرف مدوم ... فلا تقنع بما دون النجــوم
فطعم الموت في أمر حقــير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وقال آخر مشيرا الى هذا المعنى :

اذا لم تكن ملكا مطاعــا ... فكن عبدا لخالقه مطيعــا
وان لم تملك الدنيا جميعا ... كما تهواه فاتركها جميعــا
هما شيئان من ملك ونسك ... ينيلان الفتى شرفا رفيعــا

وقال آخر :

فاما مكانا يضرب النجم دونه ... سرادقه او باكيا لحمــام

وقد ورد هذا المعنى كثيرا في النظم والنثر وهو المطلب الذي تنشط

اليه الهمم الشريفة ، وتقبله النفوس العلية . واذا كان هذا شأنهم في الامور الدنيوية التي هي سريعة الزوال قريبة الاضمحلال ، فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين الى ما هو اشرف مطلبــا واعلا مكسبا وارفع مرادا واجل خطرا واعظم قدرا واعود نفعا واتم فائدة . وهي المطالب الدينيــة مع كون العلم اعلاها واولاها بكل فضيلة وأجلهــا واكملهــا في حصول المقصود ، وهو الخبر الاخروي . فان الله سبحانه قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكتــه فقال (شهد الله انه لا إله الا وهو والملائكة وأولوا العلم) (١) . وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم ، فقــال (انما يخشى الله من عباده العلمــاء) (٢) . وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات . فقــال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٣) . واخبرنا رسول الله الله صلى الله عليه وآله وسلم (بأن العلماء ورثة الانبياء) (٤) . وناهيك بهذه المزية الجليلة ، والمنقبة النبيلة ، فاكرم بنفس تطلب غاية المطالب ، في أشرف المكاسب . وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة ، ولا تساميه منقبة ، ولا تقاربه مكرمة ، فليس بعد ما يتصوره أهل الطبقة الاولى متصور . فان نالوه على الوجه الذي تصوروه فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة وشرف الدنيا والآخرة بما لا يظفر به الا من صنع صنيعهم ونال نيلهــم ، وبلــغ مبالغهم ، وان اخترمهم دونه مخترم ، وحال بينهم وبينه حائل ، فقد اعذروا ، وليس على من طلب جسيما ورام امرا عظيمــا ان منعتــه عنه الموانــع وصرفته عنه

(١) من سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٢) سورة فاطر الآية ٢٨ .
(٣) سورة المجادلة الآية ١١ .
(٤) حديث العلماء ورثة الانبياء اخرجه ابن النجار عن انس (انظر الفتح الكبير ج ٢ ص ٢٥١) .

الصوارف من بأس • وما أحسن ما قاله الشريف الرضي الموسوي (١) :

لا بد ان اركبها صعبة   وقاحة تحت علام وقاح
اجهدها او تنثني بالردا   دون الذي املت او بالنجاح
اما فتى نال المنى فاشتفى   او بطل ذاق الردى فاستراح

وكنت في ايام الطلب وعصر الشباب قد نظمت قصيدة في هذا المعنى على هذا النمط ، اذكر منها الآن ابياتا هي :

قد أتعب السير رحالي وقد   آن لها بعد الوحى (٢) ان تُراح
فما يهاب العتب من فاز من   غاية أمنيته بالنجاح
سعى فلما ظفرت بالمنى   يمينه ألقى العصى واستراح

فيا ايها العالم الصعلوك ، قد ظفرت برتبة ارفع من رتب الملوك ، ونلت من المعالي اعلاها ، ومن المناقب والفضائل اولاها بالشرف وأولاها • فان كل المعالي الدنيوية وان تناهت فليست باعتبار المعالي العلمية والشرف الحاصل بها في ورد ولا صدر • فانه يحصل للعالم اولا وبالذات الفوز بالنعيم الاخروي الدائم السرمدي الذي لا تعدل منه الدنيا بأسرها قيد شرط بل مقدار سوط • ويحصل له ثانيا وبالعرض من شرف الدنيا ما يصغر عنده كل شرف ، ويتقاصر دونه كل مجد ، ويتضاءل لديه كل فخر • وان من فهم مقدار مافي العلوم من العلو كان عند نفسه اعز قدرا واعلا محلا وأجل رتبة من الملوك ، وان كان متضايق المعيشة ، يركب نعليه ويلبس طمريه • وقلت في هذا المعنى من أبيات :

(١) هو محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي شاعر معروف توفي سنة ٤٠٦ .
(٢) الوحى : السير بعجلة .

قد كنت ذا طمرين أمرح في العلا   مرح الاغر بجانب الميدان
ما كنت مضطهدا فأطلب رفعة   او خاملا فاريد شهرة شاني

فاحرص أيها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الاولى ، فانك اذا ترقيت من البداية التصورية ، الى العلة الغائية ، التي هي اول الفكر وآخر العمل • كنت فرد العالم ، وواحد الدهر ، وقريع الناس ، وفخر العصر ، ورئيس القرن ، واي شرف يسامي شرفك ، او فخر يداني فخرك ، وانت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله • لا تقلد في ذلك احدا ، ولا تقتدي بقول رجل ، ولا تقف عند رأي ، ولا تخضع لغير الدليل ، ولا تعوّل على غير النقد • هذه والله رتبة تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم • فكيف بك اذا كنت مع هذه المزية مرجعا في دين الله ملجأ لعباد الله ، مترجما لكتاب الله وسنة رسول الله • يدوم لك الاجر ويستمر لك النفع ويعود لك الخير وانت بين اطباق الثرى ، وفي عداد الموتى ، بعد مئين من السنين ، ولا يحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ما تنازعك نفسك اليه من مطالب الدنيا التي تروقها وتود الظفر بها ، فانها حاصلة لك على الوجه الذي تحب ، والسبيل الذي تريد ، بعد تحصيلك لما ارشدتك اليه من الرتبة العلمية ، وتكون اذ ذاك مخطوبا لا خاطبا ومطلوبا لا طالبا • وعلى فرض انها تكدي عليك المطالب وتعاند الأسباب فلست تعدم الكفاف الذي لا بد لك منه • فما رأينا عالما ولا متعلما مات جوعا ولا أعوزه الحال (١) حتى انكشفت عورته عريا ، او لم يجد مكنا يكنه ، ومنزلا يسكنه ، وليس الدنيا الا هذه الامور ، وما عداها فضلات مشغلة للاحياء مهلكة للاموات •

انا ان عشت لست اعدم قوتا   واذا مت لست اعدم قبرا

(١) وجد على هامش المخطوطة ما نصه :
من نظم العلامة البدر الامير في هذا المعنى :
ما مات والله جوعا عالم ابدا   سل التواريخ عنه والدواوين

وعلى العاقل ان يعلم انه لن يصيبه الا ما كتبه الله له • ولا يعدوه ما
قدّره له • وانه قد فرغ من امر رزقه الذي فرضه الله له • فلا القعـود
يصده ، ولا السعي واتعاب النفس يوجب الوصول الى ما لم يأذن به الله•
وهذا معلوم من الشرع قد توافقت عليه صرايح الكتاب والسنة، وتطابقت
عليه الشرائع • واذا كان الامر هكذا فما احـق هذا النوع العاقل من
الحيوان الذي دارت رحى التكليف عليه ، ونيطت أسباب الخير والشر
به ، ان يشتغل بطلب ما أمره الله بطلبه ، وتحصيل ما خلقه الله لتحصيله،
وهو الامتثال لما أمره به من طاعته ، والانتهاء مما نهاه عنه من معاصيه •
وان اعظم ما يريده الله منه ويقربه اليه ويفـوز به عنده ان يشغل نفسه
ويستغرق اوقاته في طلب معرفة هذه الشريعـة التي شرعها الله لعبـاده ،
وينفق ساعاته في تحصيل هذا الامر الذي جاءت به رسل الله الى عباده
ونزلت به ملائكته • فان جميع ما يريده الله من عباده عاجلا وآجلا وما
وعدهم به من خير وشر قد صار في هذه الشريعة ، فأكرم برجل تاقت نفسه
عن ان يكون عبد بطنـه الى ان يكون عبد دينه ، حتى يناله على الوجه
الاكمل ، ويعرفه على الوجه الذي أراده الله منه ، ويرشد اليه من عبـاده
من أراد له الرشاد ، ويهدي به من استحق الهداية ، فانظر اعزك الله كم
الفرق بين الرجلين ، وتأمل قدر مسافة التفاوت بين الامرين • هذا يستغرق
جميع اوقاته وينفق كل ساعاته في تحصيل طعامه وشرابه وملبسه وما لا بد
منه قام او قعد سعى او وقف ، وهذا يقابله بسعي غير هذا السعي وعمل
غير ذلك العمل ، فينفق ساعاته ويستغرق اوقاته في طلب ما جاء عن الله
وعن رسوله ، من التكاليف التي كلف بها عباده ، وما أذن به من ابلاغه
اليهم من امور دنياهم واخراهم لينتفع بذلك ثم ينفع به من شاء الله من
عباده ، ويبلغ اليهم حجة الله ويعرفهم شرائعـه • فلقد تعاظم الفرق بين
النوعين ، وتفاوت تفاوتا يقصر التعبير عنه ويعجز البيان له ، الا على وجه
الاجمال بأن يقال ان احد النوعين قد التحق بالدواب، والآخر بالملائكة ،

لان كل واحد منهما قد سعى سعيا شابه من التحق به، فان الدابة يستعملها
مالكها في مصالحه ، ويقوم بطعامها وشرابها وما يحتاج اليه ، ومع هذا فمن
نظر في الامر بعين البصيرة ، وتأمله حق التأمل ، وجد عيش من شغل نفسه
بالطاعة وفرّغها للعلم ولم يلتفت الى ما تدعـو اليه الحاجة من أمر دنياه
ارفه ، وحاله اقوم، وسروره اتم، وتلك حكمة الله البالغة التي يتبين عندها
انه لن يعدو المرء ما قدر له• ولن يفوته ما كان يدركه، وكما ان هذا المعنى
الذي ذكرناه ثابت في الشريعة مصرح به في غير موطن منها قد أجراه الله
على لسان الجبابرة من عباده وعتاة أمتـه ، حتى قال الحجاج بن يوسف
الثقفي في بعض خطبه ما معناه ايها الناس ان الله كفانا أمر الرزق وأمرنا
بالعبادة فسعينا لما كفيناه وتركنا السعي للذي أمرنا به فليتنا أمرنا بطلب
الرزق وكفينا العبادة حتى نكون كما أراده الله منا • هذا معنى كلامه لا
لفظه • فلما بلغ كلامه هذا بعض السلف المعاصرين له قال ان الله لا يخرج
الفاجر من هذه الدار وفي قلبه حكمة ينتفع بها العباد الا اخرجها منه وان
هذا مما اخرجه من الحجاج ، فانظر هذا الجبـار كيف لم يخف عليه هذا
الامر مع ما هو فيه من التجبر وسفك الدماء وهتك الحرم والتجرؤ على
الله وعلى عباده وتعدي حدوده • فما أحقه بأن لا يخفى على من هو ألين
منه قلبا وأقل منه ظلما وأخف منه تجبرا ، وأقرب منه من خير ، وأبعد منه
من شر ، وان من تصور هذا الامر حق التصور وتعقله كما ينبغي انتفع به
انتفاعا عظيما ونال به من الفوائد جسيما والهداية بيد الهادي جل جلاله
وتقدست اسماؤه • وان لحسن النيةواخلاص العمل تأثيرا عظيما في هذا
المعنى فمن تعكست عليه بعض اموره من طلبة العلم ، او اكلف عليه مطالبه
وتضايقت مقاصده فليعلم انه بذنبه أصيب ، وبعدم اخلاصه عوقب ، او
انه اصيب بشيء من ذلك محنـة له وابتلاء واختبـارا لينظر كيف صبره
واحتماله ، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازين العطايا في ما
لم يكن بحسبان • ولا يبلـغ اليه تصوره ، فليعض على العلـم بناجذه ،

ويشد عليه يده ، ويشرح به صدره ، فانه لا محالة واصل الى المنزل الذي ذكرنا ، نائل للمرتبة التي بيّنا ، وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الحكيم افلاطون فانه قال الفضائل مُرة الاوائل حلوة العواقب ، والرذائل حلوة الاوائل مُرة العواقب • وقد صدق فان من شغل أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لا بد له ان يفطم نفسه عن بعض شهواتها ويحبسها عن الامور التي يشتغل بها اترابه ومعارفه من الملاهي ومجالس الراحة وشهوات الشباب • فاذا انتهى اليه ما هم فيه من تلك اللذات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشباب وحداثة السن وميل الطبع الى ما هنالك مرارة واحتاج الى مجاهدة يرد جامح طبعه ومنفلت هواه ومتوثب نشاطه لا يتم له الا بالجام شهوته بلجام الصبر ورباطها بمربط العفة • وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس من كان في زاوية من زوايا المساجد ومقصورة من مقاصر المدارس ، لا ينظر الا في دفتر ولا يتكلم الا في فن من الفنون ، ولا يتحدث الا الى عالم او متعلم، وأترابه ومعارفه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلبون في رافه العيش ورائق القصف • واذا انضم لذلك الطالب الى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن شهواتها مرارة اخرى هي اعواز الحال وضيق المكسب وحقارة الدخل• فانه لا بد ان يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه لكنه يذهب عنه ذلك قليلا قليلا ، فأول عقدة تنحل عنه من عقد هذه المرارة عند ان يتصور ما يؤول به الامر وينتهي اليه حاله من الوصول الى ما قد وصل اليه من يجده في عصره من العلماء ثم تنحل عنه العقدة الثانية بفهم المباحث وحفظ المسائل وادراك الدقائق ، فانه عند ذلك يجد من اللذة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة ثم اذا نال من المعارف حظا واحرز منها نصيبا ودخل في عداد أهل العلم كان متقلبا في اللذات النفسانية التي هي اللذات بالحقيقة ، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ما هو افضل وأحلى من اللذات التي يتقلب فيها كل من كان من اترابه ، وهو اذا وازن

بين نفسه الشريفة وبين فرد من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط ووجد من السرور والحبور ما لا يقادر قدره • هذا باعتبار ما يجده من اللذة النفسانية عند ان يجد نفسه عالمة ونفس معارفه جاهلة • ويزداد ذلك بما يحصل له من لوازم العلم من الجلالة والفخامة وبُعد الصيت وعظم الشهرة ونبالة الذكر ورفعة المحل والرجوع اليه في مسائل الدين وتقديمه على غيره في مطالب الدنيا وخضوع من كان يزري عليه ويستخف بمكانه من بني عصره فاذا جمعهم مجلس من مجالس الدنيا كانوا له بمنزلة الخدم ، وان كان على غاية من الافلاس والعدم • ثم اذا تناهى حاله وبلغ من الحظ في العلم الى مكان عليّ انثال عليه الطلبة للعلوم ، وأقبل اليه المستفتون في أمر الدين ، واحتاج اليه ملوك الدنيا فضلا عن غيرهم ، فيكون عند هذا عيشه حلوا محضا ، وعمره مغمورا باللذات النفسانية والجسمانية ويرتفع أمره عن هذه الدرجة ارتفاعا لا يقادر قدره اذا تصور ما له عند الله من عظيم المنزلة وعليّ الرتبة وعظيم الجزاء الذي هو المقصود اولا وبالذات من علوم الدين •

وكنت في أوائل ايام طلبي للعلم في سن البلوغ او بعدها بقليل تصورت ما ذكرته هنا فقلت :

سددت الاذن عن داعي التصابي   فلا داع لديّ ولا مجيب
وأنفقت الشبيبة غير وانٍ   لمجد الشيب فليهن المشيب

وقلت أيضا رامزا الى هذا المعنى :

وأبدي رغبة لنجود نجدٍ   وشوقا لانتشاقي منه ريحا
وما بسوى العقيق أقام قلبي   وأضحى بين أهليه طريحا

واما كون الرذائل حلوة الاوائل مرّة العواقب فصدق هذا غير خاف على ذي لب فان من أرسل عنان شبابه في البطالات ، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات ، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها ولا سيما اذا كان ذا مال وجمال • ولكنها تنقضي عنه اللذة وتفارقه هذه الحلاوة اذا تكامل عقله ورجح فهمه وقوي فكره ، فانه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله ، ثم الحسرة على ما فوته من العمر في غير طائل ، ثم على ما أنفقه من المال في غير حلّه ، ولم يفز من الجميع بشيء ولا ظفر من الكل بطائل • وتزداد حسرته وتتعاظم كربته اذا قاس نفسه بنفس من اشتغل بطلب المعالي من اترابه ، في مقتبل شبابه ، فانه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته وصفاته بصفاته ، في حسرات متجددة ، وزفرات متصاعدة ، ولا سيما اذا كان بيته في العلم طويل الدعائم ، وسلفه من المتأهلين لتلك المعالي والمكارم ، فانه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة ، وتنقشع عنه عماية الجهالة ، بكروب طويلة ، وهموم ثقيلة ، وقد فاته ما فات ، وحيل بين العير [١] والنزوان ، و (حال الجريض [٢] دون القريض) ، و (في الصيف ضيعت اللبن) [٣] • فانظر أعزك الله أي الرجلين أربح صفقة ، واكثر فائدة ، واعظم عائدة • فقد بيّن الصبح لذي عينين ، (وعند الصباح يحمد القوم السرى) [٤] •

(١) العير : الحمار الاهلي او الوحشي •

(٢) الجريض هو الريق وهذا المثل شهير معناه انه حال الغم والغصص دون الشعر والطرب •

(٣) زيادة يقتضيها المعنى وأصل هذا المثل ان دختنوس بنت لقيط كانت امراة لعمرو بن عدس وكان شيخا فأبغضته فطلقها وتزوجها فتى جميل الوجه واجدبت السنة فبعثت الى عمرو تطلب منه حلوبة فقال المثل المذكور.

(٤) من الامثلة السايرة : يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة •

ولنعد الآن الى بيان ما يحتاج اليه أهل تلك الطبقات من العلوم وما ينبغي لهم ان يشتغلوا به فنقول :

(الطبقة الاولى من حملة العلم)

اما أهل الطبقة الاولى التي هي ارفع مكان وأعز محل يرتقي اليه علماء الشريعة على حسب ما قدمنا بيانه ، فينبغي لمن تصور الوصول اليها وقصد الادراك لها ان يشرع بعلم النحو مبتدئا بالمختصرات كمنظومة الحريري المسماة بالملحة [١] وشروحها فاذا فهم ذلك وأتقنه انتقل الى كافيه [٢] ابن الحاجب وشروحها ومغنى اللبيب [٣] وشروحه • هذا باعتبار هذه الديار اليمنية اذا كان طالب العلم فيها ، لانه يجد شيوخ هذه المصنفات ولا يجد شيوخ غيرها من مصنفات النحو الا باعتبار الوجادة[٤] لا باعتبار السماع ، فاذا كان ناشئا في ارض يشتغلون فيها بغير هذه المصنفات فعليه الاشتغال بما اشتغل به مشائخ تلك الارض مبتدئا بما هو

(١) ملحة الاعراب منظومة في النحو شهيرة من تأليف ابي محمد القاسم ابن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ اولها :

اقول من بعد افتتاح القول   بحمد ذي الطول شديد الحول

وقد شرحها جماعة من العلماء . ومن علماء اليمن شرحها العلامة عبدالله بن محمد بامخرمة المتوفى سنة ٩٠٣ ومحمد بن عمر بحرق المتوفى سنة ٩٣٠ وشرحه مطبوع منذ اول وعبد الملك بن دعسين المتوفى سنة ١٠٠٦ وغيرهم .

(٢) مختصر شهير في النحو وهو من تأليف ابي عمرو عثمان بن عمر الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ شرحه جماعة من علماء اليمن منهم علي بن محمد ابن هطيل المتوفى سنة ٨١٢ ومحمد بن احمد الرصاص واحمد بن محمد الخالدي المتوفى سنة ٨٨٠ وكثيرون .

(٣) كتاب كبير في النحو تأليف ابي محمد عبدالله بن يوسف بن هشام المتوفى سنة ٧٦٢ اثنى عليه ابن خلدون في المقدمة .

(٤) الوجادة : التحصيل الذاتي .

اقربها تناولا منتهيا الى ما هو النهاية للمشتغلين بذلك الفن وذلك القطر. فأعرف هذا وأعلم ان ما أسميه ههنا انما هو باعتبار ما يشتغل به الناس في الديار اليمنية . فمن كان في غيرها فليأخذ عن شيوخها في كل فن مقدارا يوافق ما اذكره هنا .

واعلم انه لا يستغني طالب العلم المتصور المتبحر في علم الشريعة العازم على ان يكون من أهل الطبقة الاولى عن اتقان ما اشتمل عليه شرح الرضي (١) على الكافية ، من المباحث اللطيفة ، والفوائد الشريفة ، وكذلك ما في (مغنى اللبيب) من المسائل الغريبة، ويكون اشتغاله بسماع شروح المختصرات بعد ان تكون هذه المختصرات محفوظة له حفظا يمليه عن ظهر قله ، ويبديه من طرف لسانه، وأقل الاحوال ان يحفظ مختصرا منها هو اكثرها مسائل وأنفعها فوائد ، ولا يفوته النظر في مثل الألفية (٢) لابن مالك وشروحها ، والتسهيل وشرحه والمفصل (٣) للزمخشري ، والكتاب لسيبويه ، فانه يجد في هذه الكتب من لطائف المسائل النحوية ودقائق المباحث العربية ، ما لم يكن قد وجده في تلك .

وينبغي للطالب المذكور ان يطلع على مختصرات المنطق ويأخذه عن شيوخه ويفهم معانيه بعد ان يفهم النحو يفهم ما يبتديء به من كتبه

(١) وهو العلامة محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي وفاته نحو سنة ٦٨٦ واشتهر شرحه في اليمن مع حاشيته للخبيصي .

(٢) وتسمى الخلاصة وانما سميت بالألفية لانها الف بيت وهي من نظم محمد بن عبدالله الطائي المعروف بابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ . أولها :

قال محمد هو ابن مالك   احمد ربي خير مالك

وشرحها التسهيل المذكور من تأليف الناظم يقال ان نسخته الوحيدة ظلت محفوظة في اليمن ولم تعرف الا فيه .

(٣) كتاب شهير الفه جارى الله ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ شرحه من علماء اليمن علي بن محمد بن هطيل والامام المهدي احمد بن يحيى المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠ .

ليستعين بذلك على فهم ما يورده المصنفون في مطولات كتب النحو ومتوسطاتها من المباحث النحوية . ويكفيه في ذلك مثل المختصر المعروف بايساغوجي (١) ، او تهذيب السعد (٢) وشرح من شروحهما . وسيأتي بيان ما ينبغي الاشتغال به من فن المنطق ان شاء الله ، وليس المراد هنا الا الاستعانة بمعرفة مباحث التصورات والتصديقات اجمالا لئلا يعثر على بحث من مباحث العربية من نحو او صرف او بيان قد سلك فيه صاحب الكتاب مسلكا على النمط الذي سلكه أهل المنطق فلا يفهمه كما يقع كثيرا في الحدود والالزامات فان أهل العربية يتكلمون في ذلك بكلام المناطقة ، فاذا كان الطالب عاطلا عن علم المنطق بالمرة لم يفهم تلك المباحث كما ينبغي .

ثم بعد ثبوت الملكة له في النحو وان لم يكن قد فرغ من سماع سميناه يشرع في الاشتغال بعلم الصرف كالشافية (٣) وشرحها ، والريحانية ولامية الافعال (٤) . ولا يكون عالما بعلم الصرف كما ينبغي الا بعد ان تكون الشافية من محفوظاته لانتشار مسائل فن الصرف وطول ذيل قواعده وتشعب ابوابه . ولا يفوته الاشتغال بشرح الرضي على الشافية بعد ان يشتغل بما هو اخصر منه من شرحها كشرح الجاربردي (٥) ولطف الله الغياث (٦) فان فيه من الفوائد الصرفية ما لا يوجد في غيره .

(١) لفظ يوناني معناه الكليات الخمس وهذا الكتاب من تأليف اثير الدين مفضل بن عمر الابهري في القرن السابع الهجري .

(٢) ويسمى تهذيب المنطق والكلام من تأليف سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ .

(٣) من تأليف ابن الحاجب السابق الذكر .

(٤) من تأليف ابن مالك السابق الذكر .

(٥) هو احمد بن الحسن الجاربردي المتوفى سنة ٧٤٦ . وله شرح على الشافية وشرح على الحاوي .

(٦) هو لطف الله بن محمد الغياث له عدة كتب في الصرف منها المناهل الصافية على الشافية وهو شهير ومعروف .

ثم ينبغي له بعد ثبوت الملكة له نحوا وصرفا وان لم يكن قد فرغ من سماع كتب الفنين ان يشرع في علم المعاني والبيان فيبتدىء بحفظ مختصر من مختصرات الفن يشتمل على مهمات مسائله كالتلخيص و (شرح السعد) المختصر وما عليه من الحواشي وشرحه المطول وحواشيه . فانه اذا حفظ هذا المختصر وحقق الشرحين المذكورين وحواشيهما بلغ الى مكان من الفن مكين . فقد احاطت هذه الجملة بما في مؤلفات المتقدمين من شراح (المفتاح) ونحوه . واذا ظفر بشيء من مؤلفات عبدالقادر الجرجاني [1] والسكاكي [2] في هذا الفن فليمعن النظر فيه فانه يقف في تلك المؤلفات على فوائد .

وينبغي له حال الاشتغال بهذا الفن ان يشتغل بفنون مختصرة قريبة المأخذ قليلة المباحث كفن الوضع، وفن المناظرة، ويكفيه في الاول رسالة [3] الوضع وشرح من شروحها . وفي الثاني أدب البحث العضدية [4] وشرح من شروحها . وقد تشعبت مسائل علم المناظرة في الازمنة الاخيرة فوصل رجل من الاكراد من طلبة العلم ومعه رسالة وشرحها يذكر انها لبعض علماء الهند ولم يعرف اسمه ، وفيها من الفوائد وشروحها والتفاصيل ما لا يوجد في الآداب العضدية وشروحها الا ما هو بالنسبة اليه كالرموز . وقد نقلها الناس عنه وانتشرت بين علماء صنعاء ، وهي في نحو ثلاثة كراريس مشتملة على مقدمة وتسعة مباحث . ولا يستغني طالب هذا

---

(١) هو ابو بكر بن عبد القادر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ . له عدة كتب منها اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

(٢) هو يوسف بن ابي بكر بن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ . من اشهر كتبه مفتاح العلوم في البلاغة .

(٣) رسالة من تأليف الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ .

(٤) نسبة الى مؤلفها عضد الدين عبد الرحمن بن احمد المتوفى سنة ٧٥٦

الفن عن امعان النظر فيها ، وقد اشتغلت بهذه الرسالة وقابلتها معه على نسخته ولم يكن له من الفهم والاستعداد ما يبلغ به الى ان تؤخذ عنه هذه الرسالة وشرحها رواية ولا دراية مع كونه كان من اهل الصلاح والاكباب على الطلب والرغبة في العلم .

وكما تشعبت مباحث علم المناظرة فقد تشعبت ايضا عند المتأخرين مباحث (علم البديع) . فان الموجود في كتب المتقدمين من انواعه اللفظية والمعنوية دون اربعين نوعا وعند أهل البديعيات زيادة على مائة وخمسين نوعا .

واخبرني الشيخ عبد الرحمن بن احمد الرئيس من علماء الحرم المكي عند وفوده الى صنعاء انه قد أنهاها بعض المتأخرين الى نحو سبع مائة نوع ، وانه وقف على رسالة او منظومة الشك مني لبعض المتأخرين تشمل على ذلك ، وانا بحمد الله قد استخرجت انواعا من البديع وذكرت لها اسماء خارجة عن الاسماء التي ذكرها اهل هذا العلم ، وذكرت ابياتا اشتملت [1] على ذلك .

ثم ينبغي له ان يكب على مؤلفات اللغة المشتملة على بيان مفرداتها كالصحاح [2] والقاموس [3] وشمس العلوم [4] وضياء الحلوم [5]

---

(١) وهذا في كتاب للمؤلف بعنوان الروض الوسيع في عدم انحصار البديع منه عدة نسخ خطية بمكتبة الجامع برقم (١) .

(٢) من تأليف ابي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي المتوفى سنة ٣٩٣ .

(٣) تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي نزيل اليمن المتوفى سنة ٨١٧ (انظر ترجمته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ٣٧٧) .

(٤) من تأليف ابي سعيد نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣ تقريبا (انظر ترجمته في كتابنا السابق ص ٣٧٠) .

(٥) مختصر الكتاب السابق تأليف ابن المولف محمد بن نشوان الحميري (انظر ترجمته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ٣٧١) .

وديوان الادب [1] ونحو ذلك من المؤلفات المشتملة على بيان اللغة العربية عموما او خصوصا كالمؤلفات المختصة بغريب القرآن والحديث[2] .

ثم يشتغل بعد هذا بعلم المنطق فيحفظ مختصرا من مختصراته كالتهذيب [3] او الشمسية [4] . ثم يأخذ في سماع شروحهما على أهل الفن . فان العلم بهذا الفن على الوجه الذي ينبغي يستفيد به الطالب مزيد ادراك ، وكمال استعداد عند ورود الحجج العقلية عليه . وأقل الاحوال ان يكون على بصيرة عند وقوفه على المباحث التي يوردها المؤلفون في علوم الاجتهاد من المباحث المنطقية كما يفعله كثير من المؤلفين في الاصول والبيان والنحو .

ثم يشتغل بفن اصول الفقه بعد ان يحفظ مختصرا من مختصراته المشتملة على مهمات مسائله كمختصر المنتهي [5] او جمع الجوامع [6] او الغاية [7] . ثم يشتغل بسماع شروح هذه المختصرات كشرح العضد[8]

(١) من تأليف اسحاق بن ابراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ الفه في زبيد على اصح الروايات .
(٢) من اشهر الكتب الموضوعة في غريب القرآن والحديث كتاب الغريبين للهروي وغريب الحديث لابن قتيبة وغريب القرآن للراغب الاصفهاني وغيره .
(٣) التهذيب سبق ذكره .
(٤) مختصر في المنطق من تأليف نجم الدين علي بن عمر القزويني المتوفى سنة ٦٧٥ .
(٥) مختصر شهير في اصول الفقه من تأليف ابن الحاجب السابق ذكره انظر شروحه عند اهل اليمن في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي في اليمن .
(٦) من تأليف تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى سنة ٧٧١
(٧) ويسمى غاية السؤل في علم الاصول من تأليف الحسين بن القاسم ابن محمد المتوفى سنة ١٠٥٠ وشرحه في مؤلفه هداية العقول وهو مطبوع .
(٨) وهو شهير وسبق مصنفه .

على المختصر وشرح المحلي [1] على الجوامع وشرح ابن الامام [2] على (الغاية) . وينبغي له ان يطوّل الباع في هذا الفن ويطلع على مؤلفات أهل المذاهب المختلفة كالتنقيح [3] و (التوضيح) [4] و (التلويح) [5] و (المنار) [6] و (تحرير) [7] ابن الهمام . وليس في هذه المؤلفات مثل التحرير المذكور وشرحه . ومن أنفع ما يستعان به على بلوغ درجة التحقيق في هذا الفن الاكباب على الحواشي التي ألفها المحققون على الشرح العضدي وعلى شرح الجمع .

ثم ينبغي له بعد اتقان فن أصول الفقه وان لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته ان يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين ، ويأخذ من مؤلفات الاشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ، ومن مؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب . فانه اذا فعل كل هذا عرف الاعتقادات كما ينبغي وأنصف كل فرقة بالترجيح ، او التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول او الرد على حقيقة . ومن احسن مؤلفات المعتزلة المجتبي ، ومن احسن مؤلفات

(١) وهو جلال الدين محمد بن احمد المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ .
(٢) يعني به العلامة الحسين بن الامام المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٥٠ سبق ذكره وانظر ترجمته في كتابنا (مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ص ١٦٢) .
(٣) ويسمى تنقيح الاصول من تأليف صدر الشريعة عبدالله بن مسعود المحبوبي البخاري المتوفى سنة ٧٤٧ .
(٤) حواشي على شرح منتهى السول لابن الحاجب من تأليف محمد بن محمد الاسدي القدسي .
(٥) شرح التنقيح من تأليف التفتازاني السابق الذكر .
(٦) ويسمى منار الانوار في اصول الفقه تأليف ابي البركات عبدالله بن احمد النسفي المتوفى سنة ٧١٠ .
(٧) كتاب شهير في اصول الفقه من تأليف كمال الدين محمد بن عبدالواحد ابن الهمام الحنفي المتوفى سنة ٨٦١ .

متأخري الاشعرية المواقف العضدية وشرحها للشريف والمقاصد السعدية وشرحها له ، واياك ان يثنيك عن الاشتغال بهذا الفن ما تسمعه من كلمات بعض أهل العلم في التنفير عنه والتزهيد فيه والتقليل لفائدته ، فانك ان عملت على ذلك وقبلت ما يقال في الفن قبل معرفتـه كنت مقلـدا فيما لا يدري ما هو . وذلك لا يليق بما تطلبه من المرتبـة العلية ، والكون في الطبقة الاولية ، بل اعرفه حق معرفته ، وانت بعد ذلك مفوض فيما يقوله من مدح او قدح ، فانه لا يقال لك حينئذ انت تمـدح ما لا تعرفه ، او تقدح فيما لا تدري ما هو ، على انه يتعلق بذلك فائدة وزيادة بصيرة في علوم أخرى ، كعلم التفسير ، وعلم تفسير الحديث ، فانك اذا بلغت الى ذلك علمت ما في العلم بهذا الفن من الفائدة لا سيما عند قراءة (كشاف) الزمخشري ومن سلك مسلكه ، فان في مباحثهم من التدقيقات الراجعـة الى علم الكلام ما لا يفهمها حق الفهم الا من عرف الفن واطلع على مذاهب المعتزلة والاشعرية وسائر الفرق .

واني اقول بعد هذا انه لا ينبغي لعالم ان يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنّة ، وابراز الصفـات كما جاءت ، ورد علم المتشابـه [١] الى الله سبحانه ، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدونة في هذا العلم ، المبنية على شفى جرف هار من أدلة العقل التي لا تعقل ، ولا تثبت الا بمجرد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى ، ولا سيما اذا كانت مخالفـة لادلة الشرع الثابتـة في الحـديث والسنة ، فانها حينئذ

(١) علم المتشابه من القرآن هو العلم الذي يوكل بفهمه لعلم الله تعالى ولا يجب الخوض فيه وبخلافه المحكم فهو مفهوم لسائر الامة .

حديث [١] خرافة ، ولعبة لاعب ، فلا سبيل للعباد يتوصلون به الى معرفة ما يتعلق بالرب سبحانه وبالوعد والوعيد والجنة والنار والمبدا والمعـاد الا ما جاءت به الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه عن الله سبحانه، وليس للعقول وصول الى تلك الامـور ، ومن زعـم ذلك فقد كلف العقول ما أراحها الله منه ولم يتعبدها به ، بل غاية ما تدركه ، وجل ما تصل اليه هو ثبوت الخالق الباري ، وان هذه المصنوعات لها صانع ، وهذه الموجودات لها موجد ، وما عدى ذلك من التفاصيل التي جاءتنا في كتب الله عز وجل وعلى ألسن رسله فلا يستفاد من العقل ، بل من ذلك النقـل الذي منه جاءت ، والينا به وصلت .

واعلم اني عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم ازدد بها الا حيرة ولا استفدت منها الا العلم بأن تلك المقالات خزعبلات فقلت اذ ذاك مشيرا الى ما استفدته من هذا العلم :

وغايـة ما حصلتـه من مباحثـي   ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حـيرة   فما علم من لم يلق غير التحير
على انـي قد خضت منه غمـاره   وما قنعت نفسي بدون التبحر

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالق [٢] ، وطرحتها خلف الحائط ورجعت الى الطريقة المربوطة بأدلة الكتّاب والسنّة المعمودة بالاعمـدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الامة المقتدين بهم ، السالكين مسالكهم ، فطاحت الحيرة ، وانجابت

(١) من الامثال النبوية وخرافة رجل من خزاعة كان قد غاب عن قبيلته ثم عاد وزعم ان الجن اختطفته وكان بأحاديث كـذب حتى ضرب به المثـل فقيل اكذب من خرافة .
(٢) اي من شاهق .

ظلمة العماية ، وانقشعت وانكشفت ستور الغوايـــة ، ولله الحمد ، على اني ولله الشكر لم اشتغـــل بهذا الفن الا بعد رسوخ القـــدم في أدلـــة الكتّاب والسنّة ، فكنت اذا عرضت مسألة من مسائله ، مبنية على غير أساس رجعت الى ما يدفعهـــا من علم الشرع ، ويدمـــغ زائفها من أنوار الكتـــاب والسنّة ، ولكني كنت أقدّر في نفسي انه لو لم يكن لدي الا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ الا حيرة ، ولا امشي الا في ظلمة ، ثم اذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت الى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة ، وفي دعة من تلك الخزعبلات ، والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان ٠

ثم بعد احراز هذه العلوم يشتغل بعلم التفسير فيأخذ عن الشيوخ ما يحتاج مثله الى الاخذ ، كالكشاف ، ويكب على كتب التفسير على اختلاف انواعها وتباين مقاديرها ويعتمد في تفسير كلام الله سبحانه ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم عن الصحابة ، فانهم مع كونهم اعلـــم من غيرهم بمقاصد الشارع هم ايضا من أهل اللسان العربي ، فما وجده من تفاسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب المعتبرة كالامهات وما يلتحق بها قدمـــه على غيره ، بل يتعين عليه الاخذ به ، ولا يحل له مخالفته واجمع مؤلف في ذلك وأنفعه وأكثره فائدة الدر المنثور [1] للسيوطي ٠ وما ذكرنا من تقديم ما ورد عن الصحابة مقيد بما اذا لم يخالف مما يُعلم من لغة العرب ، ولم تكن تلك المخالفة لاجل معنى شرعي ، فان كانت لمعنى شرعي فقد تقرر ان الحقائق الشرعية مقدمة على اللغويـــة ،

(١) ويسمى الدر المنثور بالتفسير بالمأثور تأليف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ٠

وينبغي له ان يطول الباع في هذا العلم ويطالع مطولات التفاسير، كمفاتيح الغيب [1] للرازي ، فان المعاني المأخوذة من كتاب الله سبحانه كثيرة العدد يستخرج منها كل عالم بحسب استعداده وقدر ملكته في العلوم ولا يغتر بما يزعمه بعض أهل العلم من انه يكفي الاطلاع على تفسير آيات الكتاب العزيز كما وقع لكثير من التآليف في تفسير آيـــات مخصوصة مسميا لها بآيات الاحكام كالموزعي [2] وصاحب الثمرات [3] ٠ فان القرآن جميعه حتى قصصه وامثاله لا يخلو من فوائد متعلقة بالاحكام الشرعية ولطائف لا يأتي الحصر عليها لها مدخل في الدين ٠ يعرف هذا من يعرفه ويجهله من يجهله [4] ٠ وينبغي ان يقـــدم على قراءة التفاسير الاطلاع على علوم الاداء وكل ما كان له مدخل في التلاوة وسائر العلـــوم المتعلقة بالكتاب العزيز لا من هذه الحيثيـــة وما أنفع الاتقـــان [5] للسيوطي في مثل هذه الامور ٠ ثم لا يهمل النظر في الكتب المدونة في القراءات وما يتعلـــق بها كالشاطبية [6] وشرحها والطيبة [7] وشروحها ٠

(١) مفاتيح الغيب في التفسير كتاب كبير تأليف محمـــد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ٠

(٢) هو نور الدين محمد بن علي الموزعي المتوفى سنة ٨٢٥ وكتابـــه في تفسير آيات الاحكام يسمى تيسير البيان في احكام القرآن (انظر مخطوطاته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ٢١) ٠

(٣) هو الفقيه يوسف بن احمد بن عثمان المتوفى سنة ٨٣٢ وكتابـــه في تفسير آيات الاحكام شهير عليه اعتماد أهل اليمن ٠

(٤) ولهذا السبب لم يترك الشوكاني مؤلفـــا مستقلا في آيات الاحكـــام وانما اورد هذا خلال تفسيره الكبير المسمى فتح القدير ٠

(٥) الاتقان في علوم القرآن كتاب شهير للسيوطي مطبوع ٠

(٦) منظومة شهيرة في القرآن نظـــم القاسم بن فيرة الاندلسي المتوفى سنة ٥٩٠ وتسمى ايضا (حرز الاماني) ٠

(٧) وتسمى ايضا طيب النشر في القراآت العشر تأليف محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ ٠

اذا عرفت ما ينبغي لمن أراد ان يكون من أهل الطبقة الاولى فاعلم ان اعظم العلوم فائدة واكثرها نفعا واوسعها قدرا واجلّها خطرا علم السنّة المطهرة فانه الذي تكفل ببيان الكتاب العزيز ثم استقل بما لا ينحصر من الاحكام • ولست اقول ان الطالب يشتغل به في وقت معين ولا اقول انه يقدمه على هذه العلوم المتقدمة او يؤخره عنها بل اقول انه ينبغي لطالب العلم بعد ان يُقيم لسانه بما يحتاج اليه من النحو ان يُقبل على سماع الكتب التي جمع فيها اهل العلم متـون الاحاديث مقطوعـة الاسانيـد كجامع الاصول (١) والمشارق (٢) وكنز العمال (٣) والمنتقي (٤) لابن تيمية وبلوغ المرام (٥) لابن حجر والعمـدة (٦) • ثم يسمع الكتب التي فيها الاسانيـد كالامهـات الست ومسند احمـد وصحيح ابن خزيمـة (٧) وابن حبّان (٨) وابن الجـارود (٩) وسنن الدارقطني (١٠) والبيهقي (١١)

---

(١) جامع الاصول من احاديث الرسول لابي السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الاثير المتوفى سنة ٦٠٦ •

(٢) مشارق الانوار النبوية من صحاح الاخبار المصطفوية تأليف رضي الدين حسن بن محمد الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ •

(٣) كنز العمال في سنن الاقوال والافعال تأليف علي بن حسام المتقـي الهندي المتوفى سنة ٩٥٧ •

(٤) المنتقى ويسمى منتقـى الاخبـار تأليف عبد السلام بن عبدالله بن تيمية المتوفى سنة ٦٥٢ وعليه شرح كبير للمؤلف بعنوان نيل الاوطار •

(٥) بلـوغ المرام من احاديث الاحكـام تأليف احمـد ن علي بن حجـر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ •

(٦) عمدة الاحكـام عـن سيد الانـام تأليف تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ •

(٧) هو محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمي من علماء الحديث توفي سنة ٣١١ •

(٨) هو محمد بن حاتم بن احمد البستي من العلماء له عدة كتب في رواة الحديث توفي سنة ٣٥٤ •

(٩) هو احمد بن علي بن الجارود له المسند توفي سنة ٢٩٩ •

(١٠) هو علي بن عمر الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ شهير في علم الحديث•

(١١) هو احمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ •

وبالجملة فما بلغت اليه قدرتـه ووجد في أهـل عصره شيوخه من كتب السنّة جد في سماعه واجتهد بحسب ما يمكنه ، ويكون هذا الاشتغال بهذا العلم الجليل مصاحبا لاشتغاله بجميع العلوم المتقدمة من البدايـة الى النهاية •

فاذا قضى وطره من سماع كتب المتن والاسناد اشتغل بشروح هذه المؤلفات فيسمع منها ما تيسر له سماعه ويطالـع ما لم يتيسر له سماعه ، ويستكثر من النظر في المؤلفات في علم الجرح والتعديل (١) ، بل يتوسع في هذا العلـم بكل ممكن ، وأنفع ما ينتفع به مثل النبلاء (٢) و (تاريخ الاسلام) (٣) و (وتذكرة الحفـاظ) (٤) و (الميزان) (٥) فانه يجـد في هذه المؤلفات من الاختلاف في المترجم له وذكر اسباب الجرح والتعديل ما لا يجده في غيرها كتهذيب الكمال (٦) وفروعه •

وهذا بعد ان يشتغل بشيء من علم اصطلاح أهل الحديث كمؤلفات ابن الصلاح (٧) والالفيـة للعراقي (٨) وشروحهـا •ولايستغنـي عن

---

(١) علم الجرح والتعديل هو اصل علم الحديث وبه يعرف قدر الرجال والرواة •

(٢) ويعرف باعلام النبلاء من تأليف محمد بن احمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ طبعت منه بضعة اجزاء ولا يعتبر هذا الكتـاب من كتب الجرح والتعديل وانما هو في التراجم •

(٣) من تأليف الذهبي السابق الذكر طبع في الهند •

(٤) من تأليف احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ •

(٥) ويسمى ميزان الاعتدال في نقد الرجال من تأليف الذهبي السابق•

(٦) تهذيب الكمال كتاب كبير في نقد الرجال من تأليف عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ وقد لخصه العلامة احمد بن عبدالله الخزرجي من اهل زبيد في القرن العاشر الهجـري في كتابه خلاصة تذهيب تهذيب الكمال •

(٧) هو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح الشهروزي المتوفى سنة ٦٤٣ •

(٨) هو زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ •

المطولات بالمختصرات لا سيما اذا بالغ مؤلفوها في الاختصار كالنخبة (١) وما هو مشابه لها .

وينبغي له ان يشتغل بمطالعة الكتب المصنفة في تاريخ الدول وحوادث العالم في كل سنة كما فعله الطبري في تاريخه (٢) وابن الاثير في كامله (٣) وكما فعله كثير من المؤرخين على اختلاف مسالكهم في تخصيص التصنيف بدولة من الدول او طائفة من طوائف اهل العلم والادب او فرقة من فرق أهل الرئاسات او غير ذلك فان للاطلاع على ذلك فائدة جليلة لا يعرفها الا من عرف احوال العالم واتقن أهل كل عصر منهم وعلم بأوقات موالدهم ووفياتهم .

فاذا أحاط الطالب بما ذكرناه من العلوم فقد صار حينئذ في الطبقة العالية من طبقات المجتهدين ، وكملت له جميع انواع علوم الدين ، وصار قادرا على استخراج الاحكام من الادلة متى شاء وكيف شاء .

ولكنه ينبغي له ان يطلع على علوم أخرى ليكمل له ما قد حازه من الشرف ، ويتم له ما قد ظفر به من بلوغ الغاية .

فمن ذلك علم الفقه وأقل الاحوال ان يعرف مختصرا في فقه كل مذهب من المذاهب المشهورة ، فان معرفة ما يذهب اليه أهل المذاهب الاسلامية قد يحتاجه المجتهد لافادة المتمذهبين السائلين عن مذاهب أئمتهم . وقد يحتاجه لدفع من يشنع عليه في اجتهاده ، كما يقع ذلك كثيرا من أهل

(١) وتسمى نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر تأليف احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ .

(٢) ويسمى اخبار الرسل والملوك من تأليف محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٦٠ .

(٣) هو علي بن محمد بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ .

التعصب والتقصير ، فانه اذا قال له قد قال بهذه المقالة العالم الفلاني او عمل عليها أهل المذهب الفلاني كان ذلك دافعا لصولته ، كاسرا لسورته ، وقد وقعنا في كثير من هذه الامور مع المقصرين وتخلصنا عن شغبهم بحكاية ما انكروه علينا عن بعض من يعتقدونه من الاموات ، وما انفع الاطلاع على المؤلفات البسيطة في حكاية مذاهب السلف وأهل المذاهب وحكاية أدلتهم وما دار بين المتناظرين منهم ، اما تحقيقا او فرضا ، كمؤلفات ابن المنذر (١) وابن قدامة (٣) وابن حزم وابن تيمية ومن سلك مسالكهم . فان المجتهد يزداد بذلك علما الى علمه ، وبصيرة الى بصيرته، وقوة في الاستدلال الى قوته ، فان تلك المؤلفات هي مطارح أنظار المحققين ، ومطامح أفكار المجتهدين ، وكثيرا ما يحصل للعالم من النكت واللطائف الصالحة للاستدلال بها ما لا يحصل للعالم الآخر ، وان تقاربت معارفهما وتوازنت علومهما ، بل قد يتيسر لمن هو أقل علما ما لا يتيسر لمن هو اكثر علما من الاستدلال والجواب والنقض والمعارضة ، وكما قيل :

ورأيان أحزم من واحد   ورأي الثلاثة لا ينقض

وكما قيل :

ولكن تأخذ الافهام منه   على قدر القرايح والعلوم

ولا سيما مؤلفات أهل الانصاف الذين لا يتعصبون لمذهب من المذاهب ولا يقصدون الا تقرير الحق وتبيين الصواب فان المجتهد الطالب للحق

(١) هو الفقيه محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري له المبسوط في الفقه وغيره توفي سنة ٣١٩ .

(٢) من فقهاء الحنابلة وهو عبدالله بن احمد بن محمد بن قدامه توفي سنة ٦٢٠ له كتاب المغني في الفقه وغيره .

يتنفع بها ويستعين بأهلها فينظـر فيما قد حرروه من الادلة وقدروه من
المباحث ويُعمِل فكره في ذلك فيأخذ ما يرتضيه ويزيـد عليه ما بلغت
اليه قدرته ووصلت اليه ملكته غير تارك للبحث عن تصحيح ما قد صححوه
وتضعيف ما قد ضعفوه على الوجه المعتبر . ومن حـق الانصاف ولازم
الاجتهاد ان لا يُحسن الظن او يسيئه بفرد من افراد أهل العلم على وجه
يوجب قبول ما جاء به او رده من غير اهمـال فكر وامعان نظر وكشف
وبحث . فان هذا شأن المقلدين وصنيع المتعصبين ، وان غرته نفسه بأنه
من المنصفين وان لا يغتر بالكثرة ، فان المجتهد هو الذي لا ينظر الى من
قال بل الى ما قال ، فان وجد نفسه تنازعه الى الدخول في قول الاكثرين
والخروج عن قول الاقلين او الى متابعـة من له جلالـة قدر ونبالة ذكر
وسعة دائرة علم ، لا لأمر سوى ذلك فليعلم انه قد بقي فيه عرق من عروق
العصبية وشعبة من شعب التقليد وانه لم يوف الاجتهاد حقه .

وبالجملة فالمجتهد على التحقيـق هو من يأخذ الادلـة الشرعية من
مواطنها على الوجه الذي قدمناه ويفرض نفسه موجودا في زمن النبوة
وعند نزول الوحي وان كان في آخر الزمـان وكأنـه لم يسبقه عالم ولا
تقدمه مجتهد . فان الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير
فرق . وحينئذ يهون الخطب وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور
وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين .

ومما يزيد من أراد هذه الطبقة العلية علوا ويفيده قوة ادراك وصحة
فهم وسيلان ذهن الاطلاع على اشعار فحـول الشعـراء ومجيديهـم ،
والمشهورين منهم باستخراج لطائف المعاني ومطربات النكات مع ما تحصل
له بذلك من الاقتدار على النظم والتصرف في فنونه . فقد يحتاج العالم
الى النظم لجواب ما يرد عليه من الاسئلة المنظومة ، او المطارحات الواردة
اليه من أهل العلم ، وربما ينظم في فن من الفنـون لغرض من الاغراض

الصحيحة ، فان من كان بهذه المنزلة الرفيعة من العلم اذا كان لا يقتـدر
على النظم كان ذلك خدشة في وجه محاسنـه ونقصا في كماله . وهكذا
الاستكثار من النظر في بلاغات أهل الانشاء المشهورين بالاجادة والاحسان
المتصرفين في رسالاتهم وحكاياتهم بأفصح لسان وأبين بيان ، فانه ينتفـع
بذلك اذا احتاج الى الانشاء او جاوب صديقا او كاتب حبيبا ، لانه ينبغي
ان يكون كلامه على قدر علمه وهو اذا لم يمارس جيد النظم والنثر كان
كلامه ساقطا عن درجة الاعتبار عند أهل البلاغـة والعلم شجرة ثمرتهـا
الالفـاظ . وما اقبح بالعالم المتبحـر في كل فن ان يتلاعب به في النظم
والنثر من لا يجاريه في علم من علومه ، ويتضاحك منه من له أدنى المام
بمستحسن الكلام ورائق النظام ، ويستعين على بلوغ ما يليق به ويطابق
رتبته بمثل علم العروض والقوافي ، وأنفع ما في ذلك منظومة الجزاز (١)
وشروحها . وبمثل المؤلفات المدونة لذلك ، وانفـع ما ينتفـع به (المثل
السائر في أدب الكاتب والشاعـر) لابن الاثير (٢) . ثم لا بأس على من
رسخ قدمه في العلوم الشرعية ان يأخذ بطرف من فنون هي من اعظم ما
يصقل الافكار ويصفي القرائح ويزيد القلب سرورا والنفس انشراحا ،
كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب . وبالجملة فالعلـم
لكل فن خير من الجهـل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية
والمنزلة الرفيعة . ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ، فانها كما قدمنا لك
شعبة من التقليد وانت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما قد
لديك من العلم غير محكوم عليك واختر لنفسك ما يحلو ، وليس يخشى
على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وانما يخشى على من كان

(١) هو احمد بن محمد الجزاز المسيكي الزبيد المتوفى سنة ٩٤٣ (انظر ترجمته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ٣٨٢) .
(٢) هو نصرالله بن محمد بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ .

غير ثابت القدم في علوم الكتّاب والسنّة ، فانه ربما يتزلزل وتحول ثقته فاذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت ، وتبحر في الدقائق ما استطعت ، وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا ان سهلا ذم جهلا   علوما ليس يعرفهن سهل
علوما لو دراها ما قلاها   ولكن الرضى بالجهل سهل

واني لاعجب من رجل يدّعي الانصاف والمحبة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه ، وقد رأينا كثيرا ممن عاصرنا ورأيناه يشتغل بالعلم وينصف في مسائل الشرع ويقتدي بالدليل فاذا سمع مسألة من فن من الفنون التي لا يعرفها كعلم المنطق والكلام والهيئة ونحو ذلك نفر منه طبعه ونَفّر عنه غيره ، وهو لا يدري ما تلك المسألة ولا يعقلها قط ولا يفهم شيئا منها ، فما احق من كان هكذا بالسكوت والاعتراف بالقصور والوقوف حيث أوقفه الله ، والتمسك في الجواب اذا سئل عن ذلك بقوله لا ادري ، فان كان ولا بد متكلما ومادحا او قادحا فلا يكون متكلما بالجهل وعائبا لما لا يفهمه ، بل يقدم بين يدي ذلك الاشتغال بذلك الفن حتى يعرفه حق المعرفة ثم يقول بعد ذلك ما شاء • ولقد وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاعظيما وفائدة جليلة في دفع المبطلين والمتعصبين وأهل الرأي البحت ومن لا اشتغال له بالدليل ، فانه اذا اشتغل من يشتغل منهم بفن من الفنون كالمشتغلين بعلم المنطق جعلوا كلامهم ومذاكرتهم في قواعد فنهمويعتقدون لعدم اشتغالهم بغيره ان من لا يجاريهم في مباحثه ليس من أهل العلم ولا هو معدود منهم وان كان بالمحل العالي من علوم الشرع ، فحينئذ لا يبالون بمقاله ويوردون عليه ما لا يدري ما هو ويسخرون منه فيكون في

ذلك من المهانة على علماء الشريعة ما لا يقادر قدره ، واما اذا كان العالم المتشرع المتصدر للهداية الى المسالك الشرعية والمناهج الانصافية عالما بذلك فانه يجري معهم في فنهم فيكبر في عيونهم ، ثم يعطف عليهم فيبين لهم بُطلان ما يعتقدونه بمسلك من المسالك التي يعرفونها فان ذلك لا يصعب على مثله • ثم بعد ذلك يوضح لهم أدلة الشرع فيقبلون منه احسن قبول ، ويقتدون به أتم قدوة • واما العالم الذي لا يعرف ما يقولون فغاية ما يجري بينه وبينهم خصام وسباب ومشاتمة ، هو يرميهم بالاشتغال بالعلوم الكفرية ولا يدري ما هي تلك العلوم ، وهم يرمونه بالبلادة وعدم الفهم والجهل بعلم العقل ولا يدرون ما لديه من علم الشرع •

ولقد أهدت لنا هذه الايام ما لم يكن لنا في حساب من زعانف هم سقط المتاع وفقعة القاع وأبناء الرعاع لابسوا طلبة العلم بعض الملابسة وشاركوهم بجامع الخلطة والعشرة في مثل النظر في مختصرات النحو حتى صاروا ممن يتمكن من اعراب اواخر الكلم ثم طاحت بهم الطوايح ورمت بهم الروامي الى مطالعة تجريد الطوسي [١] وبعض شروحه وفهموا بعض مباحثه فظنوا انهم قد ظفروا بما لم يظفر به ارسطاطاليس ولاجالينوس ، دع مثل الكندي والفارابي وابن سينا فانهم عندهم في عداد المقصرين ، واما مثل الرازي [٢] وطبقته فليسوا من أهل العلم في ورد ولا صدر واما سائر العلماء المتبحرين في علم الشرع وغيره من أهل العصر وغيرهم فهم عند هؤلاء النوكاء [٣] الرقعاء لا يفهمون شيئا ولا يعقلون • فقبّح الله تلك الوجوه فانها صارت عارا وشنارا على أهل العلم ، وصار دخول مثل هؤلاء الذين دنسوا عرض العلم وجهموا وجهه وأهانوا شرفه من أعظم

---

(١) مختصر في علم الكلام تأليف نصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ •
(٢) هو ابو بكر محمد بن زكريا المتوفى سنة ٣١١ •
(٣) الحمقاء •

المصائب التي أصابت أهلـه وأكبر المحن التي امتحن بها حملتـه ، فانه يسمعهم السامع يثلبون أعراض الاحياء والاموات من المشهورين بالعلم الذين قد اشتهرت مصنفاتهم وانتشرت معارفهم فيزهد في العلم ويخاف من ان يعرّض نفسه للوقيعة من مثل هؤلاء الجهلة ، على انهم لا يعرفون شيئا الا ما ذكرت لك ، ولا يفهمون علما من العلوم لا بالكنة ولا بالوجه فما احق هؤلاء بالمنع لهم عن مجالس العلم والاخذ على أيديهم من الدخول في مداخل أهله والتشبه بهم في شيء من الامور ، والزامهم بملازمة حرف آبائهم وصناعات أهلهـم والوقوف في الاسواق لمباشرة الاعمال التي يباشرها سلفهم ، فليس في مفارقتهم لها الا ما جلبوه من الشر على العلم وأهله ، ولكنهم قد تحذلقوا وجعلوا لانفسهم حصنا حصينا وسورا منيعا فتظهروا بشيء من الرفض وتلبسوا بشيابه فاذا أراد من له غيرة على العلم المعاقبة لهم واعزاز دين الاسلام باهانتهم ، قالوا للعامة انهم اصيبوا بسبب التشيع واهينوا بما اختاروه لانفسهم من محبة أهل البيت رضي الله عنهم ، وقد علم الله وكل من له فهم انهم ليسوا من ذلك في قبيل ولا دبير ، بل ليس عندهم الا التهاون بالشريعة الاسلامية والتلاعب بالدين والطعن على الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه فضلا عن غيرهم من المتمسكين بالشرع . وكل عارف اذا سمع كلامهم وتدبر أبحاثهم يتضوع له منها روائح الزندقة بل قد يقف على ما هو صريح الكفر الذي لا يبقى معه ريب .

ولقد كان القضاة من أهل المذاهب في البلاد الشامية والمصرية والرومية والمغربية وغيرها يحكمون باراقة دم من ظهر منه دون ما يظهر من هؤلاء حسبما تحكيه كتب التاريخ وقد اصابوا أصاب الله بهم ، فاعزاز دين الله هو في الانتقام من أعدائه المتنقصين به . وما يصنع العالم في مثل أرضنا هذه في مثـل هؤلاء المخذولين فانه ان قام عليهـم وافتى بما يستحقونه ويوجبه عليهم الشرع حال بينه وبينهم حوائل ، منها عدم اعتياد مثل هذه

البلاد لمثل سفك دماء المتزندقين ، ومنها عدم نفوذ افهام المنفذين لاحكام الشرع حتى يعرفـوا الدقايـق الكفريـة الموجبة للخروج من الاسلام القاضية بسفك دم من صدرت عنه ، وكيف يفهم ذلك غالب القضاة وهم يعجزون عن فهم شروط الوضوء وفرائضه وسننه ، بل يقصرون عن فهم مباحث ابواب قضاء الحاجة . فهل تراهم يفهمـون ما يقوله لهم المفتـي بسفك دم المتزندق من انه كفر بكذا استحق سفك دمـه بكذا . هيهات هيهات فانهم أبلد من ذلك وأسوأ فهما من البلوغ اليه .

ومنها وهو اعظمها ما عرّفناك به من تظهّرهم بالرفض وادعائهم انهم لم يُصابوا بذنب سواه ولا نالهم ما نالهم الا بسببه ، فان هذه الدعـوى سريعة النفاق تدخل الى اذهان غالب النـاس وتقبلها عقولهم بأيسر عمل للاشتراك في الجنس وان لم يكن على التواطي بل على التشكيك ، وكفاك من شر سماعه .

وبعد هذا فاني أرجـو الله عز وجل ان يمكن منهم فتجـري عليهم الاحكام الشرعية وينفذ فيهم ما يقتضيه مر الحق ونص الدليل . وقد علم الله سبحانه اني أجد من الحسرة [1] والتلهف ما لا يتقادر قدره ولا يمكن التعبير عنه لانه ليس بتغاض عن مبتدع ولا بمجرد سكوت عن انتهـاك حرمة او حرمة من حرمات الشرع ، بل هو سكـوت عن الكفر واغماض عن متظهر بالزندقة يتكلم فيها بملء فيه ويبـدي منها ما تبكي له عيون الاسلام وأهله ، فتارة يتهاون بالقـرآن ، وتارة يتهاون بالانبياء ، وتارة يتهاون بحملة الدين ، وحينا يزري على علماء المسلمين ، ولكن بعبارات لا

(١) رحم الله الشوكاني كيف به لو رأى ما انتهت اليه الحالة الآن .

يفهمها المقصرون ، ورموز لا يهتدي اليها المشتغلون بأبواب الفقه ، مع خلط تلك العبارات بشيء من الرفض يفهمه المقصر والكامل • فاذا نظره المقصرون في كلامهم لم يفهموا منه الا ما فيه من الرفض • ولا يفهمـــون شيئا مما عداه • واذا أخبرهم العالم بما اشتمل عليه ذلك الكلام من الكفر والزندقة لم تقبله افهامهم لامرين ، احدهما الجهل بالعلوم التي يتوصلون بها الى فهم ذلك ، والثاني اعتقادهم ان ذلك المتكلم شيعي وان هذا العالم الذي أنكره انما قام عليه لاجل تشيعـــه ، لكونهم يعتقـــدون في كل من اشتغل بعلوم الاجتهاد انه يخالف الشيعة ، طبيعـــة راسخة فيهم ، وأمر ورثوه عن اسلافهم ، وداء قبلوه من كل مخذول ، ومحنة تعاظم بسببها البلاء على الشريعة وعلى أهلها •

فبهذه الاسباب علمت ان قيامي عليهم لا يجدي الا ثوران فتنة وظهور محنة ، وقد يكون سببا لتظهرهم بزيادة على ما يتظهرون به من تلك الامور الفظيعة ، والكفريات الشنيعة • اللهم اني اشهد وانت خير الشاهدين اني اول حاكم بسفك دم من صدر منه ذلك ، واول مفت بقتل من فعل شيئا منه او قال به ، عند اول بارقة من بوارق العدل ، وفي اخفاء رائحـــة من روائح الانصاف ، ولست اقول ان جميع من أشرت اليهم هم على الصفة التي ذكرتها الموجبة لاراقة الدم وازهاق الروح ، بل يتظهر بذلك بعض مخذوليهم ، ويشتغل به اناس من شياطينهم ، والبقية وان كانوا بما يصدر منهم نقمة على العلم وأهلـــه ، فانهم ينفّرون الناس عن علـــم الشرع ، ويهونونه في صدورهم ، ويستصغرون علوم الدين بأسرها ، ويجذبون من يطمعون فيه الى جهالاتهم وضلالاتهم ، فهم مُستحقون للحيلولة بينهم وبين كل سبب يتوصلون به الى العلم على كل تقدير كما أشرنا اليه سابقا مع انزال بعض ما فيه اهانـــة لهم بهم ومسهم بسوط اذلال ، ليكون في ذلك اعزاز للدين ورفع لمناره وغسل لما قد لوثوا به أهله من القذر الذي

يلقونه عليهم وينجسونهم به ، والله المرجو فعنده الخير كله • وهو أغير على دينه ، وهو اكرم عليه من ان يهان او يضام أهله •

وفيهم أفراد قليلون يصلحون بتعلم العلم ويتشبهون بأهله ويجرون على نمط من يتعلمون منه ويأخذون عنه ان خيرا فخير وان شرا فشر • ولكن ما أقل من يكون هكذا منهم •

فان قلت وما هذه الاهلية التي يكون صاحبها محلا لوضع العلم فيه وتعليمه اياه •

قلت هي شرف المحتد وكرم النجار وظهور الحسب ، او كون في سلف الطالب من له تعلق بالعلم والصلاح ومعالـــم الدين ، او بمعالي الامور ورفيـــع الرتب • وقد أشار الى هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الثابت عنه في الصحيح فقـــال : (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهليـــة خيارهم في الاسلام اذا فقهـــوا) • فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم الخيار في الجاهلية ، وليس ذلك لامر يتعلـــق بالدين ، فانه لا دين لاهل الجاهلية ، بل المراد بخيـــار أهل الجاهلية من كان منهم من أهل الشرف وفي البيوت الرفيعة ، فان هذا أمر يجذب بطبع صاحبه الى معالي الامور ، ويحول بينه وبين الرذائل ، ويوجب عليه اذا دخل في أمر ان يكون منه في أعلى محل وأرفع رتبة ، فمتعلم العلم منهم يكون في أهله على أتم وصف وأحسن حال غير شامخ بأنفه ولا متباه بما حصّله ولا مترفع على الناس بما نال منه ، واما من كان من سقط المتاع وسفساف أهل المهن كأهـــل الحياكة و « العصارة » و « القضابة » (١)

(١) نسبة الى بيع القضب وهو بيع البرسيم للاغنام .

ونحو ذلك من المهن الدنية ، والحرف الوضيعة ، فان نفسه لا تفارق الدناءة [1] ولا تجانب السقوط ولا تأبى المهانة ولا تنفر عن الضيم ، فاذا اشتغل مشتغل منهم بطلب العلم ونال منه بعض النيل وقع في امور ، منها العجب والزهو والخيلاء ، لانه يرى نفسه بعد ان كان في اوضع مكان وأخس رتبة قاعدا في أعلا محل وأرفع موضع ، فان منزلة العلم وأهله هي المنزلة التي لا تساميها منزلة وان علت ، ولا تساويها رتبة وان ارتفعت، فبينما ذلك الطالب قاعد بين أهل حرفته من أهل الحياكة او الحجامة او الجزارة او نحوهم في أخس بقعة وأعظم مهانة ، اذ صار بين العلماء المتعلمين الذين هم في اعلا منازل الدنيا والدين • فبمجرد ذلك يحصل له من العجب والتطاول على الناس والترفع عليهم ما يعظم به الضرر على أهل العلم فضلا عن غيرهم ممن هو دونهم ، مع ما ينظم الى ذلك من السخف الذي نشأ عليه وتلقاه من سلفه وسقوط النفس وضعف العقل ونذالة الهمة ومثل تأمّر الصبي لما ينشأ عليه من اخلاق آبائه لا ينكره احد • ولهذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه في الصحيح كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فاذا كان الصغير ينطبع بطابع الكفر بسبب أبويه ، فما بالك بسائر الاخلاق التي يجدهما عليها •

ومما يقع فيه هذا الطالب الناشيء بين أهل الوضاعة المرتضع من ثدي الرقاعة انه بحكم الطبع وألف المنشأ لا يرى في الناس الا أهل حرفته وبني مهنته ، فيعود من حيث بدا ويرجع من الباب الذي خرج منه فيكون في ذلك من الاهانة للعلم والازراء على أهله والوضع بجانبهم ما لا يقادر

---

(1) هذا ليس قاعدة مطردة ولا عبرة في تقييم الشخص بمهنته لان كثير من اصحاب المهن الوضيعة ما يفوقوا بأخلاقهم الكثير من ذوي الشرف المزعوم .

قدره ، لان هذا يراه الناس تارة في المدارس قاعدا بين أيدي شيوخ العلم مشاركا للمتعلمين ، وتارة يرونه في دكاكين الحجامين وحوانيت العطارين ومن جرى هذا المجرى من المحترفين ، ومما يقع فيه انه بحكم الطبع الذي استفاده من المنشأ وتطبّع به من أبويه ومن يماثلهما وان دخل في مداخل العلم وتزيا بزي أهله فهم أبغض الناس اليه وأحقرهم لديه لا يقيم لهم وزنا ولا يعترف لهم بفضيلة بل يكون ديدنه وهجيراه ومعنى كلامه وفحواه هو التهاون بهم وتحقير ما عظمه الله من أمرهم والاغراء بين اماثلهم والتعرض للمفاضلة بين فضائلهم وادخال الشحناء بينهم بكل ممكن• ومن نكر هذا فعليه بالاستقراء والتتبع ، فانه سيجد ما وجدناه ، ويقف على صحة ما حكيناه ، ولا يخرج من هؤلاء الا النادر القليل ، ولا يكون ذلك الا لعرق ينزعه الى الشرف ويجذبه الى الخير في سلفه القديم • وان جهله من لم يعرفه •

وبالجملة فهذا ما تفيده التجربة وتشير اليه بعض الادلة الشرعية ، واذا صح قوله صلى الله عليه وآله وسلم واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر ففيه اعظم عبرة للمعتبرين ، من الحاملين لعلوم الدين • وقد عزاه بعض أهل العلم الى ابن ماجة ، ولا استحضره حال الرقم فيما هو في حفظي من احاديث سنن ابن ماجة فلينظر •

ثم كشفت عنه فوجدته في سنن ابن ماجة عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله وعليه وآله وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب) • وفي اسناده حفص بن سليمان البزاز [1] وفيه مقال واما من

---

(1) هو حفص بن سليمان الاسدي الفاضري ابو عمرو البزاز . قال البخاري تركوه توفي سنة ١٨٠ (انظر الخلاصة ص ٨٧) .

كان أهلا للعلم وفي مكان من الشرف فانه يزداد بالعلم شرفا الى شرفه، ويكتسب به من حسن السمّت وجميل التواضع ورائق الوقار وبديع الاخلاق ما يزيد علمه علوا وعرفانه تعظيما ، فيتخلق بأخلاق الانبياء ومن يمشي على طريقهم ، من عاملي العلماء وصالحي الامة . ويعرف للعلم حقه، ويعظمه بما ينبغي من تعظيمه ، فلا يكدره بالمطامع ، ولا يشوبه بالخضوع لاهل الدنيا ، ولا يجهمه بالتوصل به الى ما في يد الاغنياء فيكون عنده مخدوما لا خادما ، ومقصودا لا قاصدا .

وبين هاتين الطائفتين طائفة ثالثة ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء جعلوا العلم مكسبا من مكاسب الدنيا ، ومعيشة من معايش أهله لا غرض لهم فيه الا ادراك منصب من مناصب اسلافهم ، ونيل رئاسة من الرئاسات التي كانت لهم ، كما نشاهده في غالب البيوت المعمورة بالقضاء او الافتى او الخطابة او الكتابة ، او ما هو شبيه بهذه الامور ، فان من كان طالبا للوصول الى شيء من هذه الامور ذهب الى مدارس العلم يتعلم ما يتأهل به لما يطلبه ، وهو لا يتصور البلوغ الى الثمرة المستفادة من العلم ، والغاية الحاصلة لطالبه فيكون ذهنه كليلا ، وفهمه عليلا ، ونفسه خائرة ، ونيته خاسرة بل غاية تصوره ومعظم فكرته في اقتناص المنصب والوصول اليه ، فيخدم في مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ومن يرجو منهم الاعانة على بلوغ مراده اكثر مما يخدم العلم ، ويتردد الى ابوابهم ويتعثر في في مجالسهم ، ويذوق به من الاهانة ما فيه اعظم مرارة ويتجرع من الغصص ما يصغر قدر الدنيا بالنسبة اليه . فاذا نال ذلك المنصب ضرب بالدفاتر وجه الحائط ، وألقاها خلف السور لعدم الباعث عليها من جهة نفسه والمنشط على العلم والمرغب فيه . فهذا هو شبيه بمن يتعلم مهنة من المهن ويتدرب في حرفة من الحرف فيقصد أهلها حتى يدركها ويكون فيها استاذا ثم يذهب الى دكان من الدكاكين فيعتاش بتلك الحرفة وليس

هو من أهل العلم في ورد ولا صدر ولا ينبغي ان يكون معدودا منهم وان ارتسم في ذهنه منه رسوم فهو من أزهد الناس فيها وأجفاهم لها وأقلهم احتفالا بها ، ولا فائدة في تعلمه راجعة الى الدين قط بل غاية ما استفاده منه العلم وأهله تعريضه وتعريضهم للاهانة عند أهل الدنيا وايقاعه وايقاعهم في يد من لا يعرف للعلم قدرا ولا يرفع له ذكرا ولا يقيم له وزنا ، كما يشاهد من المتعلقين بالاعمال الدولية فانهم يتلاعبون بطلبة المناصب الدنيوية غاية التلاعب ويعرّضونهم للاهانة مرة بعد أخرى ، ويتلذذون بذلك ويبتهجون ، لانهم يظنون انها قد ارتفعت طبقتهم عن طبقات أهل العلم ، وحكموا تارة فيهم بالولاية وتارة بالعزل ، وتمرغوا على عتباتهم مرة بعد مرة ، فبهذه الوسيلة دخل على أهل العلم بما يصنعه هؤلاء من هذه الهنات الوضيعة والفعلات الشنيعة ما تبكي عيون العلم وأهله ، وتقوم عليه النواعي ، ويغضب له كل من له حمية دينية وهمة علية ، ولو علم اولئك المغرورون لم يبتهجوا بمن قصدهم من هؤلاء النوكاء ، فانهم ليسوا من أهل العلم ولا بينهم وبينهم علاقة ولا فرق بينهم وبين من يطلب الاعمال الدولية التي لا تعلق لها بالعلم .

ومن هذه الحيثية تنازل منصب العلم وتهاون الناس به ، لانهم يرون رجلا قد لبس لباس أهل العلم وتزيّا بزيهم وحضر مجالسهم ، ثم ذهب الى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على ايصال أهل الاعمال الدنيوية اليها من وزير او امير فتصاغر لهم وتذلل وتهاون وتحقر حتى يصير في عداد خدمهم ومن هو في أبوابهم ، ثم أعطوه منصبا من المناصب فعمل على ما يريدونه منه وان خالف الشرع واعتمد ما يرسمونه له وان كان طاغوتا بحتا ، فيظن من لا علم عنده بحقائق الامور ان أهل العلم كلهم هكذا وانهم ينسلخون من العلم اذا ظفروا بمنصب من المناصب هذا الانسلاخ ، ويمسخون هذا المسخ . ويعود امرهم الى هذا المعاد ، فيزهد في العلم وأهله ، وتنفر عنه نفسه ، وتقل فيه رغبته ، ويؤثر الحرف الدنيوية عليه

ليربح السلامة من المهانة التي رآها نازلة بهذا المشوم الجالب على نفسه
وعلى أهل العلم ما جلب من الذل والصغـار • واذا كان ما جناه هؤلاء
النوكاء على العلم وأهله بالغـا الى هذا الحد عند سائر الناس فما ظنك
بما يعتقده فيهم من يطلبون من المناصب بعد ان شاهـد منهم ما يشاهده
من الخضوع والذلـة والانسلاخ عن الشرع الى ما يريدونه منه وبذل
الأموال لهم على ذلك، ومهاداتهم بأفخر الهدايا، والوقوف على ما يطلبونه
منه على اي صفة تراد منهم ، وينضم الى هذا خلوهم عن العلم وجهلهم
لأهله الذين هم أهله ، فيظنون ان اولئك الذين قصدوهم وتعثروا على
ابوابهم هم رؤوس أهله ، لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر
الذي لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم • فهل تراهم بعد هذا يميلون الى ما
يقوله أهل العلم وينزجرون بما يوردونـه عليهـم من الزواجر الشرعيـة
المتضمنة لانكار ما هو منكـر والامر بما هو معروف والتخويف لهم عن
مجاوزة حدود الله • هيهات ان يصغـوا لهذا سمعا او يفتحوا له طرفا
فالى الله المشتكى ، وعليه المعول ، فهذا أمر وقع فيه أهل العصور الاول
فالاول • وما أحق أهل العلم الحاملين لحجج اللـه المرشدين لعباده الى
شرائعه ان يطردوا هؤلاء عن مجالسهم ، ويبعدوهم عن مواطن تعليمهم ،
وان لا يبذلوا العلم الا لمن يقدره حق قدره ، وينزله منزلته، ويطلبه لذاته
ويرغب فيه لشرفه ، ويعتقد انه اشرف مطلب من مطالب الدين والدنيـا
وانه يصغر عنده الملك فضلا عما هو دونه •

ولا اقول ان أهل العلـم العـارفين به المطلعين على أسراره يمنعون
أنفسهم من المناصب الدينية ، وكيف أقـول بهذا وهذه المناصب اذا لم
تربط بهم ضاعت ، واذا لم يدخل فيها الاخيـار تتابع فيها الاشرار ، واذا
لم يقم بها أهل العلم قام بها أهل الجهل ، واذا أدبر عنها أهل الورع أقبل
اليها أهل الجور • وكيف أقول هذا وأهل العلـم هم المأمورون بالحكم
بين الناس بالحق والعدل والقسط ، وما أنزل الله وما أراهم الله القيام

بين الناس بحججه والتبليغ لاحكامه وتذكيرهم بما أمر الله بالتذكير به
وارشادهم الى ما ارشدهم الله اليه ، ولأهل القضاء والافتى ونحوها من
هذه الامور أوفر نصيب وأكبر حظ • ولكني اقول انه ينبغي لطالب العلم
ان يطلبه كما ينبغي ، ويتعلمه على الوجـه الذي يريـده الله منه معتقدا
انه اعلا امور الدين والدنيا راجيا ان ينفع به عباد الله بعد الوصول الى
الفائدة منه • ومن جملة النفع اذا احتاج اليه الملوك وأهل الدنيا ان يلي
منصبا من المناصب فطلبوا منه ذلك وعوّلوا عليه في الاجابة معترفين بحق
العلم منقادين الى ما يوجبه الشرع معظمين لما أوجب الله تعظيمه وكان قد
بلغ الى منزلة في العلم تصلح لذلك المنصب وشهـد له أهل العلم بكمال
التأهل واحراز عدته فهذا اذا كان الحال هكذا لا يحل له ان يمتنـع من
الاجابة او يأبى من قبول ذلك فانه اذا فعل ذلك كان تاركا لما أوجبه الله
عليه من القيام بحجته ونشر احكامه وارشاد عباده الى معالمه ونهيهم عن
تجاوز حدوده ولا شك ان ذلك من أوجب الواجبات على أهل العلم وأهم
المهمات ولو جاز ذلك لمن طُلب منهم وعول عليه لجاز لغيره من أهل العلم
ان يصنع كصنعه ويسلك مسلكه فتتعطل معاهد الشرع وتذهب رسومه
ويتخذ الناس رؤوسا جهالا يقضون بغير علم فيَضلون ويُضلون وذلك
من علامات القيامة واشراط الساعة كما ورد به الخبر الصحيح •

(الطبقة الثانية من حملة العلم)

واذا عرفت ما ينبغي لاهل الطبقة الاولى من العلوم فلنتكلم الآن ما ينبغي لاهل الطبقة الثانية من الطبقات المذكورة سابقا ، وهي طبقة من يريد ان يعرف ما طلبه منه الشارع من احكام التكليف والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه ولا يحتاج الى غيره ، من دون ان يتصور البلوغ الى ما تصوره أهل الطبقة الاولى من تعدي فوائد معارفهم الى غيرهم والقيام في مقام اكابر الائمة المرجوع اليهم ، كما يتصوره أهل الطبقة الاولى •

فنقول : صاحب هذه الطبقة الثانية هو من يطلب ما يصدق عليه مسمى الاجتهاد ويسوغ به العمل بأدلة الشرع ، وهو يكتفي بأن يأخذ من كل فن من فنون الاجتهاد بنصيب يعلم به ذلك الفن علما يستغني به عن الحاجة اليه ، او يهتدي به الى المكان الذي فيه ذلك البحث على وجه يفهم به ما يقف عليه منه ، فيشرع بتعلم علم النحو حتى تثبت له فيه ملكة يقتدر بها على معرفة احوال أواخر الكلم اعرابا وبناء • وأقل ما يحصل له ذلك بحفظ مختصر من المختصرات المشتملة على مهمات مسائل النحو والمتضمنة لتقرير مباحثه على الوجه المعتبر ، كالكافية لابن الحاجب ، وقراءة شرح من شروحها المختصرة ، وأحسنها بالنسبة الى الشروح المختصرة شرح الجامي [1] • فانه ينتفع به الطالب انتفاعا لا يجده في غيره من مختصرات الشروح• ثم يحفظ مختصرا في الصرف كالشافية لابن الحاجب ، وقراءة شرح من شروحها المختصرة ، وأحسنها شرح الجاربردي [2] • ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات علم المعاني والبيان كالتلخيص للقزويني ، وقراءة شرح من شروحه المختصرة كشرح السعد المختصر •

ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات الاصول الفقهية وقراءة شرح من شروحه • وأنفع ما ينتفع به الطالب الغاية للحسين بن القاسم وشرحها

(١) هو نور الدين عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٨ .
(٢) هو احمد بن الحسن الجاربردي المتوفى سنة ٧٤٦ .

له • فانهما مع المبالغة في الاختصار قد اشتملا على ما حوته غالب المطولات الكبار •

ثم يشتغل بقراءة تفسير من التفاسير المختصرة كتفسير القاضي البيضاوي [1] مع مراجعة ما يمكنه مراجعة من التفاسير • ثم يشتغل بسماع ما لا بد من سماعه من كتب الحديث ، وهي الست الامهات فان عجز عن ذلك اشتغل بسماع ما هو مشتمل على ما فيها من المتون كجامع الاصول ، ثم لا يدع البحث عن ما هو موجود من احاديث الاحكام في غيرها بحسب ما تبلغ اليه طاقته ، ويبحث عن الاحاديث الخارجة عن الصحيح في المواطن التي هي مظنة للكلام عليها من الشروح والتخريجات، ويكون مع هذا عند ممارسته لعلم اللغة على وجه يهتدي به في البحث عن الالفاظ العربية واستخراجها من مواطنها ، وعنده من علم اصطلاح الحديث وعلم الجرح والتعديل ما يهتدي به الى معرفة ما يتكلم به الحفاظ على أسانيد الاحاديث ومتونها •

فمن علم بهذه العلوم علما متوسطا يوجب ثبوت مطلق الملكة في كل واحد منها صار مجتهدا مستغنيا عن غيره ، ممنوعا من العمل بغير الدليل، وعليه ان يبحث عند كل حادثة يحتاج اليها في دينه عن أقوال أهل العلم وكيفية استدلالهم في تلك الحادثة وما قالوه وما رد عليهم به ، فانه ينتفع بذلك انتفاعا كاملا ، ويضم الى علمه علوما والى فهمه فهوما ، وهو وان قصر عن أهل الطبقة الاولى فليس بمحتاج فيما يتعلق به من امر الدين الى زيادة على هذا المقدار ، ويختلف الانتفاع بالعلوم ، باختلاف القرايح والفهوم ، فقد ينتفع من هو كامل الذكاء ، صادق الفهم ، قوي الادراك بالقليل ما لا يقتدر على الانتفاع بما هو اكثر منه كثير من جامدي الفهم راكدي الفطنة •

(١) هو عبدالله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة ٧٨٥ وتفسيره يسمى (انوار التنزيل واسرار التأويل) •

(الطبقة الثالثة من حملة العلم)

واما أهل الطبقة الثالثة وهم الذين يرغبـون الى اصلاح ألسنتهـم وتقويم افهامهم بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون اليه من الشرع وعدم تحريفه وتصحيفه وتغيير اعرابه ، من دون قصد منهم الى الاستقلال بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج الى الترجيح • فينبغي تعلم شيئا من علم الاعراب حتى يعرف به اعراب اواخر الكلم • ويكفيه في مثل ذلك حفظ منظومـة الحريري المسماة (الملحة) وقراءة شروحها على أهل الفن • وتدربه في اعـراب ما يطلـع عليه من الكلام المنظوم والمنثور ، ويحفي [١] السؤال عن اعراب ما أشكل عليه حتى تثبت له بمجموع ذلك ملكـة يعرف بها أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء ، وان لم يعلم بوجوه العلل النحوية ولا عرف الحجج العربية •

ثم يتعلم اصطلاح علم الحديث ويكفيـه في مثل ذلك مثل (النخبة) وشرحها • ثم بعد هذا يكب على سماع المختصرات في الحديث مثل (بلوغ المرام) و (العمدة) و (المنتقى)• وان تمكن من سماع(جامع الاصول) او شيء من مختصراته فعل، فاذا اشكل عليه معنى حديث نظر في الشروح او في كتب اللغة ، وان اشكل عليه الراجح من المتعارضات او التبس عليه هل الحديث

(١) يلح •

مما يجوز العمل به ام لا • سأل علمـاء هذا الشأن الموثـوق بعرفانهـم وانصافهم ويعمل على ما يرشدونه اليه ، استفتاء وعملا بالدليل ، لا تقليدا وعملا بالرأي ، ويشتغل بسماع تفسير من التفاسير التي لا يحتـاج الى تحقيق وتدقيق كتفسير البغوي وتفسير السيوطي المسمى الدر المنثور • واذا اشكل عليه بحث من المبـاحث او تعارضت عليه التفاسير ولم يهتد الى الراجح او التبس عليه امر يرجع الى تصحيح شيء مما يجده في كتب التفسير رجع الى أهل العلم بذلك الفن سائلا لهم عن الرواية لا عن الرأي•

وقد كان من هذه الطبقة الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يقول فيهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) • فانهم كانوا يسألون أهل العلم منهم عن حكم ما يعرض لهم مما يحتاجون اليه في معاشهم ومعادهم ، فيروون لهم في ذلك ما جاء عن الله تعالى او عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيعملون بروايتهم لا برأيهم ، من دون تقليد ولا التزام رأي ، كما يعرف ذلك من يعرفه •

وقد اوضحت هذا ايضاحا كثيرا في كتابي الذي سميته (القول المفيد في حكم التقليد) [١] فليرجع اليه •

(١) هذا الكتاب من كتب المصنف رحمه الله طبع في مصر سنـة ١٣٤٠ هجرية باشراف الشيخ محمد المنيري •

(الطبقة الرابعة من حملة العلم)

واما الطبقة الرابعة الذين يقصدون الوصول الى علم من العلوم او علمين او اكثر لغرض من الاغراض الدينية او الدنيوية من دون تصور الوصول الى علم الشرع ، كما يفعله من يريد ان يكون مدركا لصناعة من الصناعات التي لها تعلق بالعلم، وذلك كمن يريد ان يكون شاعرا ومنشئا او حاسبا فانه ينبغي له ان يتعلم ما يتوصل به الى ذلك المطلب •

فمن اراد ان يكون شاعرا تعلم من علم النحو والمعاني ، والبيان ما يفهم به مقاصد أهل هذه العلوم • ويستكثر من الاطلاع على علم البديع والاحاطة بأنواعه ، والبحث عن نكته واسراره ، وعلم العروض والقوافي، ويمارس اشعار العرب ويحفظ ما يمكنه حفظه منها • ثم اشعار أهل الطبقة الاولى من أهل الاسلام كجرير [١] والفرزدق [٢] وطبقتهما • ثم اشعار مثل بشار بن برد [٣] وابي نواس [٤] ومسلم بن الوليد [٥] وأعيان من جاء بعدهم كأبي تمام [٦] والبحتري [٧] والمتنبي [٨] • ثم

(١) هو جرير بن عطية الخطفي شاعر من تميم شهير توفي سنة ١١٠هـ.
(٢) هو همام بن غالب عرف بالفرزدق توفي سنة ١١٠ هـ .
(٣) هو بشار بن برد العقيلي بالولا توفي سنة ١٦٧ .
(٤) هو الحسن بن هاني توفي سنة ١٩٨ .
(٥) الملقب بصريع الغواني توفي سنة ٢٠٨ .
(٦) هو حبيب بن اوس المتوفى سنة ٢٣١ .
(٧) هو الوليد بن عبيد توفي سنة ٢٨٤ .
(٨) شاعر شهير وهو احمد بن الحسين الكندي توفي سنة ٣٥٤ .

اشعار المشهورين بالجودة من أهل العصور المتأخرة ، ويستعين على فهم ما استصعب عليه بكتب اللغة ، ويكب على الكتب المشتملة على تراجم أهل الادب كيتيمة الدهر [١] وذيولها [٢] وقلائد العقيان [٣] وما هو على نمطه من مؤلفات أهل الادب كالريحانة [٤] والنفحة [٥] • وكما يحتاج الى ما ذكرناه من أراد ان يكون شاعرا فهو يحتاج اليه ايضا من أراد ان يكون منشئا مع احتياجه الى الاطلاع على المثل السائر لابن الاثير ، والكامل للمبرد [٦] ، والامالي للقالي [٧] ، ومجاميع خطب البلغاء ورسائلهم ، خصوصا مثل ما هو مدوّن من بلاغات الجاحظ [٨] والفاضل [٩] والعماد [١٠] وامثالهم ، فانه ينتفع بذلك اتم انتفاع •

ومن أراد ان يكون حاسبا اشتغل بعلم الحساب ومؤلفاته معروفة وهكذا من أراد ان يطلع على علم الفلسفة فانه يحتاج الى معرفة العلم الرياضي ، وهو علم يعرف به أحوال الكمّ المتصل والمنفصل ، والعلم الطبيعي ، وهو العلم الباحث عن أحوال عالم الكون والفساد • والعلم

(١) يتيمة الدهر كتاب شهير في الادب تأليف ابي منصور عبد الملك ابن محمد الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ .
(٢) من اشهر ذيول اليتيمة كتاب دمية القصر للباخرزي وكتاب خريدة القصر للعماد الاصفهاني وغيرهما .
(٣) قلايد العقيان كتاب في الادب من تأليف الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ .
(٤) هو ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا تأليف احمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ .
(٥) ويسمى نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة تأليف محمد بن امين المحبي المتوفى سنة ١١١١ .
(٦) هو محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٦ .
(٧) هو ابو علي اسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ٣٥٦ .
(٨) هو عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ .
(٩) هو القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ .
(١٠) هو عماد الدين محمد بن محمد الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ .

الالهي ، وهو العلم الباحث عن احوال الموجود بما هو موجـود ، مع ما يتعلق بذلك من احوال المبدأ والمعاد . وهكذا علـم الهندسة وهو العلم الباحث عن مقادير الاشياء كماً وكيفاً ومبادية الاشكال ، فمن جمع هذه العلوم الاربعة أعني الرياضي والطبيعي والالهي والهندسة صار فيلسوفاء والعلم بالعلوم الفلسفية لا ينافي علم الشرع بل يزيد المتشرع الذي قد رسخت قدمه في علم الشرع غبطة بعلم الشرع ومحبة له ، لانه يعلم انه لا سبيل للوقوف على ما حاول الفلاسفة الوقوف عليه الا من جهة الشرع ، وان كل باب غير هذا الباب لا ينتهي بمن دخل اليه الى غاية وفائدة .

ومن كان مريدا لعلم الطب فعليه بمطالعة كتب جالينوس ، فانها أنفع شيء في هذا الفن باتفاق من جاء بعده من المشتغلين بهذه الصناعة الا النادر القليل . وقد انتقى منها جماعــة من المتأخرين ستة عشر كتابا وشرحوها شروحا مفيدة . فان تعذر عليه ذلك فاكمــل ما وقفت عليــه من الكتب الجامعة بين المفردات والمركبات والعلاجات كتاب (القانون) لابن سينا[1] وكامل الصناعة المشهور بالملكي لعلي بن العباس [2] . ومن أنفع المختصرات في هذا الفن الذخيرة لثابت بن قرة [3] ، فانها قد تضمنت مــن العــلاجات النافعة والادوية المجربة مع اختصارها ما هو قائم مقام كثير من المطولات ومن أنفع ما في هذا الفن باعتبار خواص الادوية المفردة وبعض المركبات تذكرة الشيخ داود الانطاكي [4] . ولو كمل بالمعالجات لكان مغنيا عن

(١) هو ابو علي الحسين بن عبدالله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ وكتابه مطبوع ومتداول .
(٢) هو علي بن عباس المجوسي عالم بالطب من الاهواز توفي سنة ٤٠٠ تقريبا وكتابه مطبوع في اوربا .
(٣) هو ثابت بن قرة بن زهـرون الحرانـي طبيب وحاسب وفيلسوف تو في سنة ٢٨٨ وكتابه الذخيرة في الطب ، طبع في اوربا .
(٤) هو الشيخ داود بن عمر الانطاكي من علماء الطب توفي سنة ١٠٠٨ .

غيره ، ولكنــه انقطع بعد ان شرع في الكــلام على معالجات العلل على حروف ابجد فوصل الى حرف الطاء ثم انقطع الكتاب .

ومن انفع الكتب في هذا الفن الموجز [1] وشروحه . وبالجملة فمــن كان قاصدا الى علم من العلوم كان عليه ان يتوصل اليه بالمؤلفات المشهورة بنفع من اشتغل بها ، المحررة احسن تحرير ، المهذبة ابلغ تهذيب ، وقد قدمنا في كل فن ما فيه ارشاد الى احسن المؤلفات فيه ، وكثيرا ما يقصد الطالب الذي لم يتدرب بأخلاق المنصفين ويتهذب بارشاد المحققين الاطلاع على مذهب من المذاهب المشهورة ، ولم تكن له في غيره رغبة ، ولا عنده لما سواه نشاط ، فأقرب الطرق الى ادراك مقصده ونيل مأربه ان يبتدىء بحفظ مختصر من مختصرات أهل ذلك المذهب كالكنز [2] في مذهــب الحنفيــة ، والمنهاج [3] في مذهب الشافعيــة . فاذا صار ذلك المختصر محفوظا له متقنا على وجه يستغني به عن حمل الكتــاب ، شرع في تفهم معانيه وتدبر مسائله على شيخ من شيوخ ذلك الفن ، حتى يكون جامعــا بين حفظ ذلك المختصر وفهم معانيه ، مع كونــه مكررا لدرسه ، متدبرا لمعانيه ، الوقت بعد الوقت ، حتى يرسخ حفظــه رسوخــا يأمن معه من التفلت . ثم يشتغل بدرس شرح مختصر من شروحه على شيخ من الشيوخ ثم يترقى الى ما هو اكثر منه فوائد وأكمل مسائل . ثم يكبّ على مطالعة مؤلفات المحققين من أهل ذلك الفن فيضم ما وجده من المسائل خارجا عن ذلك المختصر الذي قد صار محفوظــا له اليه على وجــه يستحضره عند

(١) هو كتاب موجز في الاسباب والعلامات اختصره من كتاب القانــون تأليف ابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧ .
(٢) هو كتاب كنز الدقائــق تأليف عبد الله بن احمــد النسفي المتوفى سنة ٧١٠ .
(٣) هو كتاب منهاج الطالبين تأليــف يحيى بن شرف النــووي المتوفى سنة ٦٧٦ .

الحاجة اليه ، ولكنه اذا لم يكن لديه من العلم الا ما قد صار عنده من فقه ذلك المذهب فلا ريب انه يكون عامي الفهم سيء الادراك عظيم البلادة غليظ الطبع • فعليه ان يبتدىء بتهذيب فهمه وتلقيح فكره بشيء من مختصرات النحو ومجاميع الادب ، حتى تثبت له الفقاهة الصورية • واما الفقاهة الحقيقية فلا يتصف بها الا المجتهد بلا خلاف بين المحققين •

واذا قد عرفت ما ينبغي لكل طبقة من تلك الطبقات من المعارف العلمية فلنكمل لك الفائدة بذكر مباحث ينتفع بها طالب الحق ومريد الانصاف انتفاعا عاما ويرتقي بها الى مكان يستغني به عن كثير من الجزئيات •

(بناء الشريعة على جلب المصالح ودفع المفاسد)

فمنها ان يعلم ان هذه الشريعة المطهرة السهلة السمحة مبنية على جلب المصالح ودفع المفاسد ، ومن تتبع الوقائع الكائنة من الانبياء والقصص المحكية في كتب الله المنزلة علم ذلك علما لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وقد وقع ذلك من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وقوعا لا ينكره من له أدنى علم بالشريعة المطهرة ، فانه صلى الله عليه وآله وسلم لما تبين له نفاق بعض المنافقين واستحقاقه للقتل بحكم الشرع قال لا يتحدث الناس بأن محمد ايقتل اصحابه • فترك قتلة لجلب مصلحة هي أتم نفعا للاسلام واكثر عائدة على أهله ودفع مفسدة هي اعظم من المفسدة الكائنة بترك قتله • وبيان ذلك انه اذا تحدث الناس بمثل هذا الحديث وشاع بينهم شيوعا لا يتبين عنده السبب كان ذلك من اعظم المنفرات لاهل الشرك عن الدخول في الدين ، لانه يصد اسماعهم ذلك الحديث فيظنون عنده ان ما يعتقدونه من السلامة من القتل بالدخول في الاسلام غير صحيح، فيهربون منه هربا شديدا ويبعدون عنه بعدا عظيما •

وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم التأثير لجماعة ممن لم تثبت قدمه في الاسلام بغنايم (حنين) كأبي سفيان والاقرع بن حابس وعيينه بن حصن • فكان يعطي الواحد من هؤلاء وامثالهم المائة من الابل

وما يقوم مقام ذلك . والمهاجرون والانصار الذين هم المقاتلة المستحقون للغنيمة ينظرون الى ذلك التأثير ، ووقع في أنفسهم ما وقع ، حتى قال قائلهم يرحم الله رسول الله يعطي هؤلاء وسيوفنا تقطر من الدماء . فلما علموا بما أراده النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المصلحة العائدة على الاسلام وأهله بتأليف مثل هؤلاء وتأثيرهم بالغنيمة قبلوه أتم قبول ، وطابت أنفسهم اكمل طيبة . وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم العزم على مصالحة الاحزاب بثلث ثمار المدينة ظنا منه بأن في ذلك جلب مصلحة ودفع مفسدة فلما تبين له ان الترك أجلب للمصلحة وأدفع للمفسدة صار اليه .

وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن تلقيح النخل فلما تبين له ما في ذلك من المصلحة لاهله اذن لهم به .

وهكذا وقع منه الاذن بالعرايا لما شكى عليه الفقراء ما يلحقهم من المفسدة بالمنع من شراء الرطب بالتمر مع عظم الخطر فيما هو مظنة بالربا .

وكم يعد العاد من هذه الامور .

وبالجملة فكل ما وقع من النسخ والتخصيص والتقييد في هذه الشريعة المطهرة فسببه جلب المصالح او دفع المفاسد ، فان كل عالم يعلم ان نسخ الحكم بحكم آخر يخالفه لم يكن الا لما في الناسخ من جلب مصلحة او دفع مفسدة زائدة على ما في الاول من النفع والدفع . وهكذا بالتقييد كما وقع في قوله تعالى غير اولى الضرر وقوله عز وجل من الفجر ونحو ذلك كثير جدا . وقد كان دينه صلى الله عليه وآله وسلم هجيراه
ونحو ذلك كثير جدا . وقد كان دينه صلى الله عليه وآله وسلم وهجيره
الارشاد الى التيسير دون التعسير ، والى التبشير دون التنفير ، فكان يقول يسروا ولا تعسروا ولا تنفروا . وكان صلى الله عليه وآله وسلم يرشد الى الالفة واجتماع الامر وينفر عن الفرقة والاختلاف لما في الالفة والاجتماع من الجلب للمصالح والدفع للمفاسد وفي الفرقة واختلاف من

عكس ذلك . فالعالم المرتاض بما جاءنا عن الشارع الذي بعثه الله تعالى متمما لمكارم الاخلاق اذا أخذ نفسه في تعليم العباد وارشادهم الى الحق وجذبهم عن الباطل ودفعهم عن البدع والاخذ بحجزهم عن كل مزلقة من المزالق ومدحضة من المداحض بالاخلاق النبوية والشمائل المصطفوية الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة فيسّر ولم يعسر وبشر ولم ينفر وأرشد الى ائتلاف القلوب واجتماعها ونهى عن التفرق والاختلاف . وجعل غاية همه وأقصى رغبته جلب المصالح الدينية للعباد ودفع المفاسد عنهم . كان من أنفع دعاة المسلمين ، وانجع الحاملين لحجج رب العالمين ، وانجذبت له القلوب ، ومالت اليه الانفس ، وتذلّل له الصعب ، وتسهّل عليه الوعر وانقلب له المتعصب منصفا ، والمبتدع متسننا ورغّب في الخير من لم يكن يرغب فيه ، ومال الى الكتاب والسنة من كان يميل عنهما ، وتردى باثواب الرواية من كان متجلببا بالرأي ، ومشى في رياض الاجتهاد واقتطف من طيب ثمراته واستنشق من عابق رياحينه من كان معتقلا في سجن التقليد ، مكبلا بالقيل والقال ، مكتوفا بآراء الرجال .

فان قلت ما ذكرته من إنبناء الشريعة المطهرة على جلب المصالح ودفع المفاسد ماذا تريد به . هل يلاحظ ذلك النفع والدفع مطلقا او في حالة من الحالات .

قلت لا اريد بما قدمته الا ان ما لم يرد فيه نص يخصه ولا اشتمل عليه عموم ولا تناوله اطلاق فحق على العالم المرشد للعباد الطالب للحق ان يستحضر ذلك ويرشد اليه ، ويهتم به ويدعو اليه .

واما مواقع النصوص وموارد أدلة الكتاب والسنة ومواطن قيام الحجج ، فلا جلب نفع ولا دفع ضر أولى من ذلك ، وأقرب منه الى الخير وأولى منه بالبركة ، فهو في الحقيقة مصالح مجلوبة ومفاسد مدفوعة ،

وان قصرت بعض العقول عن ادراك ذلك ، والاحاطة بكنهه ، والوقوف
على حقيقته ، فمن قصورها أتيت ومن ضعف ادراكها دهيت • ومن تدبر
ذلك كل التدبر وتأمله بحق التأمـــل لم يخف عليه ، فان كل جزئي من
جزئيات الشريعة التي قام الدليل على طلبها والتعبد بها للكل او البعض
مطلقا او مقيدا لا بد ان يشتمل على جلب مصلحـــة او مصالح عرفها من
عرفها وجهلها من جهلها • وكل جزئي من جزئيات الشريعة الواردة بالنهي
عن أمر او امور لا بد ان يكون المنهي عنه مشتملا على مفسدة او مفاسد
تندفع بالنهي عنها • ولمزيد التتبع وكثرة التدبر في ذلك مدخلية جليلة ،
لا سيما مع استحضار الاستعانة بالله والتوكل عليه والتفويض اليه •

ومما يستعين به طالب الحق ومريد الانصاف على ما يريده من ربط
المسائل بالدلائل والخروج من آراء الرجال المتلاعبة بأهلها من يمين الى
شمال ، ان يتدبر الدلائل العامة ويتفكر فيما ينـــدرج تحتها من المسائل
بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة ، فانه اذا تمـــرن في ذلك وتدرب صار
مستحضرا لدليل كل ما يُسأل عنه من الاحكام الشرعية ، كائنا ما كان ،
وعرف معنى قوله عز وجل (ما فرطنا في الكتـــاب من شيء) [١] • ومن
أمعن النظر فيما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من استخراج الاحكام
الشرعيةمن كتاب الله تعالى زاده ذلك بصيرة• كما ثبت عنه انه لما سُئل عن
الحُمُر الاهلية فقال لم أجد فيها الا هذه الآية الفاذة (من يعمل مثقال
ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) • فان في هذا وأمثاله أعظم
عبرة للمعتبرين ، وأجل بصيرة للمتبصرين ، وأوضح قدوة للمقتدين من
العلمـــاء المجتهدين • وثبت انه صلى الله عليه وآله وسلم قـــال لعمر بن
العاص : صليت بصحابك وأنت جُنُب يا عمرو • فقـــال : سمعت الله

(١) سورة الانعام الآية ٣٨ .

يقول ولا تقتلوا أنفسكم فقرره النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضحك
ولم يقل شيئا •

وهذا باب واسع يطول تعداده •

وهكذا التفكر في الكليات الصادرة عمن أعطى جوامع الكلم وأفصح
من نطق بالضاد كقوله صلى الله عليه وآله وسلم (انما الاعمال بالنيات)
فان هذا اللفظ الموجز والعبارة المختصرة صالحة للاستدلال بها على كل
جزء من جزئيات الشرع فتدخل ما حصلت فيه النية في عداد الاعمال المقبولة
ويخرج ما لم تحصل فيه النية الى حيّز الاعمـــال المردودة ، وتصير بها
المباحثات قربات وعبادات ، أقل أحوالها الاندراج تحت حقائق المندوبات،
ويبطـــل كثر من الصور الحاكية لما هو من العبـــادات بعقد النيه وعدم
وجودها او وجودها لا على الوجه المعتبر • وكقوله صلى الله عليه وآله
وسلم (كل بدعة ضلالة • ومن غشنا فليس منا • والحلال بيّن والحرام
بيّن • وكل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد) • فان كل فرد من أفـــراد هذه
العبارات وأمثالها صالح لجعله قضية كبرى للشكل الاول فلا يبقي فرد
من الافراد الا وأمكن ادراجه تحت هذه الكلية باجتلاب قضية صغـــرى
سهلة الحصول • تقول مثلا هذا أمر ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه
وآله وسلم ، وكل أمر ليس عليه أمره رد ، فهذا رد ، فلا يبقى فعل ولا
قول ولا اعتقاد لم يأت به الشرع الا وأمكـــن الاستدلال على رده بهذا
الحديث الصحيح •

وهكذا العمل في سائر الكليات والتحلي بالمعارف العلميـــة يستغني
بمجرد الاشارة والايقاظ لان المواد قد حصلت له بما حصّله من العلوم،
ومارسه من المعارف ، فربما يغفل عن اخراج ما في القوة الى الفعل ، فاذا
نُبه على ذلك تنبه • وكان العمل عليه سهلا والانتفاع بالعلوم يسيرا •

ومن جملة ما ينبغي له تصوره ويعينه استحضاره ان يعلم ان هذه الشريعة المباركة هي ما اشتمل عليه الكتاب والسنة من الاوامر والنواهي والترغيبات والتنفيرات وسائر ما له مدخل في التكليف ، من غير قصد الى التعمية والالغاز ولا ارادة لغير ما يفيده الظاهرة ، ويدل عليه التركيب ويفهمه أهل اللسان العربي • فمن زعم ان حرفا من حروف الكتاب والسنة لا يراد به المعنى الحقيقي والمدلول الواضح فقد زعم على الله ورسوله زعما يخالف اللفظ الذي جاءنا عنهما فان كان ذلك لمسوّغ شرعي تتوقف عليه الصحة الشرعية او العقلية التي يتفق العقلاء عليها لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنحل على العقل مطابقا لما قد حببه اليهم التعصب • فأدناه من عقولهم البُعد عن الانصاف فلا بأس بذلك، والا قد عوى التجوز مردوده مضروب بها في وجه صاحبها ، فأحرص على هذا فانه وان وقع الاتفاق على اصالة المعنى الحقيقي وعدم جواز الانتقال عنهالا لعلاقة وقرينه كما صُرح به في الاصول وغيرها فالعمل في كتب التفسير والحديث والفقه يخالف هذا لمن تدبره وأعمل فكره • ولم يغتر بالظواهر ولا جمد على قبول ما يُقال من دون بحث عن موارده ومصادره • وكثيرا ما يجد المتعصبين يحأمون عن مذاهبهم ويؤثرونها على نصوص الكتاب والسنة• فاذا جاءهم نص لا يجدون عنه متحولا واعياهم رده وأعجزهم دفعه • ادعوا انه مجاز وذكروا للتجوز علاقة هي من البعد بمكان ، وقرينة ليس لها في ذلك المقام وجود ولا تدعو اليها حاجة • وأعانهم على هذه الترهات استكثارهم من تعداد أنواع القرائن والعلاقات ، حتى جعلوا من جملة ما هو من العلاقات المسوّغة للتجوز التضاد ، فانظر هذا التلاعب ، وتدبر هذه الابواب التي فتحوها على أدلة الكتاب والسنة • وقبلها عنهم من لم يمعن النظر ويطيل التدبر فجعلها علما وقبلها على كتاب الله وسنة رسوله • وأصلها دعوى افتراها على أهل اللغة متعصب قد أثر مذهبه على الكتاب والسنة ، ولم يستطع التصريح بترجيح المذهب على الدليل ،

فدقق الفكر وأعمق النظر عنادا لله تعالى وبغيا على شريعته وخداعا لعباده فقال هذا الدليل وان كان معناه الحقيقي يخالف ما نذهب اليه فهو ههنا مجاز والعلاقة كذا والقرينة كذا ولا علاقة ولا قرينة • فيأتي بعد عصر هذا المتعصب من لا يبحث عن المقاصد ولا يتدبر المسالك كما ينبغي فيجعل تلك العلاقة التي افتراها ذلك المتعصب من جملة العلائق المسوّغة للتجوز • ولهذا صار العلاقات قريبا من ثلاثين علاقة • ثم لما كان من جملة انواع القرائن ، القرائن العرفية والعقلية افترى كل متعصب على العقل والعرف ما شاء وصنع في مواطن الخلاف ما أراد والله المستعان •

(انكار المؤلف لحيل الفقهاء)

ومن جملة ما يستعين به على الحق ويأمن معه من الدخول في الباطل وهو لا يشعر ان يقرر عند نفسه ان هذه الشريعـة لما كانت من عند عالم الغيب والشهادة ، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها • ويعلم ما تكنّ الصدور وتخفيه الضمائر ، ويحول بين المرء وقلبه، كانت المخادعة بالحيل الباطلة ، والتخلص مما طلبه بالوسائل الفاسدة ، من اعظم المعاصي له ، وأقبح التجاري عليه ، وجميع هذه الحيل التي دوّنها أهل الرأي هي ضد لما شرعه وعناد له ومراوغة لاحكامه ومجادلة باطلـة لما جاء في كتابه وسنة رسوله • ومن تفكّر في الامر كما ينبغي وتدبره كما يجب ، اقشعر له جلده ، وقف عنده شعره ، فان هذا الذي وضع للعباد هذه الحيل كأنه يقول لهم هذا الحكم الذي أوجبه الله عليكم او حرمه قد وجدت لكم عنه مخلصا ومنه متحولا بذهني الدقيق وفكري العميـق ، هو كذا وكذا ، فهذا المخذول قد بلغ من التجري على الله تعالى مبلغا يتقاصر عنه الوصف لانه ذهب يعانده ويضاد ما تعبّدنا به بمجرد رأيه الفايل وتخيّله الباطل• مقرا على نفسه بقبيح صنعه• وانه جاء بما يريح العباد من الحكم الشرعي، فان كان مع هذا معتقدا ان ذلك التحيل الذي جاء به يحلل الحرام ويحرم الحلال ، فهو مع كذبه على الله وافترائه على شريعته قد ضم الى ذلك ما يستلزم انه يدعي لنفسه ان يشرع للعباد من عند نفسه غير ما شرعه لهم ،

وذلك لا يكون الا لله سبحانـه ، فان كان هذا المخـذول يدعي لنفسه الالوهية مع الله سبحانه فحسبك من شر سماعه وان كان لا يدعي لنفسه ذلك فيقال له ما بالك تصنع هذا الصنع واي أمر الجاك اليه وأوقعك فيه• فان قال رأيت الله عز وجل قد صنع مثل هذا في مثل قصة ايوب وصنعـه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المريض الذي زنى • فيقال له ما انت وهذا لاكثر الله في أهل العلـم من امثالك ومن انت حتى تجعـل لنفسك ما جعله الله لنفسه ، فلو كان هذا الامر الفظيع سائغا لاحد من عباد الله لكان لهم ان يشرعوا كما شرع ، وينسخوا من احكام الدين ما شاءوا كما نسخ • ثم اي جامع بين هذه او بين ما شرعه الله من ذلك فانه مجرد خروج من مأثم وتحلل من يمين قد شرع الله تعالى فيها اتيان الذي هو خير كما تواترت بذلك الاحاديث الصحيحة ، حتى ثبت في الصحيـح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلف على ذلك فقـال والله لا أحلف على شيء فأرى غيره خيرا منه الا أتيت الذي هو خير وكفّرت عن يميني • فأين هذا مما يصنعه أسراء التقليد من الكذب على الله تعالى وعلى شريعته وعلى عباده • اما الكذب على الله فلكونهم زعموا عليه انه أذن لهم وسوّغه لهم وهو كذب بحت وزور محض ، وان كانوا لا يعتقدون ذلك بل جعلوه من عند أنفسهم جرأة وعنادا ومكرا وخداعا فالامر أشد والقضية أعظم • واما كذبهم على الشريعة فلكونهم جعلوا ما نصبوه من الحيل الملعونة والذرائع الشيطانية والوسائل الطاغوتية من جملة الشريعة ومن مسائلها ودوّنوه في كتب العبادات والمعاملات • واما الكذب على عباده فلكونهم ذهبوا اليهم فخدعوهم وماكروهم بأن ما اوجبـه الله من كذا ليس بواجب وما حرّمه من كذا ليس بمحرم اذا فعلوا كذا او قالوا كذا • وما اشبه هذا بما كان يصنعه رؤساء الجاهلية لاهلها من التلاعب بهم كما يتلاعب الصبيان والمجانين ، وكما يصنعه المجان وأهل الدعاية • فان تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة الحام ، وكذلك ما كان يفعلونـه من النسي وما كانـوا عليـه من الميسر والانصـاب والازلام ، وما كانوا

يعتمدونه مع من يطوف بالبيت الحـــرام من تلك الافعال التي هي أشبه بأفعال المجانين كالتعري وما يشاكله ، لا مقصد لرؤساء الجاهليـــة بهذه الامور التي كانوا يفعلونها ويأمرون العباد بها الا مجرد ارتفــاع الذكر واظهار اقتدارهم على تنفيذ ما يريدونه وقبول الناس لما يأمرونهم به وان كانت امورا متكررة وبلايا متعددة واعمالا شاقـــة • فتدبر هذا وتأملـه لتكون على حذر من نفاق ما جاءوا به من الحيل الباطلة عندك ، والا كنت كالبهيمة التي لا تمنع ظهرهـــا من راكب ، ولا تستعصي على مستعمل • وقد دلت أدلة الكتاب والسنـــة على هذا ، وكفاك بما قصه الله سبحانه علينا من حيلة أهل السبت • وقد أورد البخاري في كتاب الحيل من صحيحه ما يشفي ويكفي ، ولبعض المتأخرين في هذا مصنّف حافل استوعب فيه جميع الادلة ، وهي معلومة لعلماء الكتاب والسنة ، ولكننا اقتصرنا ههنا على بيـــان الاسباب التي تنشأ عنها الحيل والمفاسد التي تتأثر عنها ليكون ذلك اوقع للمنصف واوقع في نفسه كما هو دأبنا في هذا المختصر • فانا نشير الى القضية التي ينبغي اجتنابها بكلمات لا تنبو عنها مسامع المنصفين ولا تنكرها قلوبهم • ولا تبعـد عنها افهامهـم • واذا حصل المقصـــود بالاختصار لم تبق للتطويل حاجة ، وقد ينفع القليل نفعا لا يبلغـه الكثير على أنّا لم نكن بصدد نشر الادلـــة وايراد ألفاظها فانها معروفة مدونة • بل نحن بصدد الارشاد الى الانصاف بعبـــارات تشتمل على معـــان قد تحتجب عن كثير من الاذهان ، وتبعد عن غالب الافهام •

ومن جملة ما ينبغي له استحضاره ان لا يغتر بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها فقد يسمي الشيء باسم شرعي وهو ليس من الشرع في شيء ، بل هو طاغوت بحت ، وذلك كما يقع من بعض من نزعه عرق الى ما كانت عليه الجاهلية من عـــدم توريث الاناث فانهم يخرجون اموالهم او اكثرها او احسنها الى الذكور من اولادهم بصورة الهبة والنذر

والوصية او الوقف ، فيأتي من لا يبحث عن الحقائق فينزل ذلك منزلـــة التصرفات الشرعية اغترارا منه بأن الشارع سوّغ للنـــاس الهبة والنذر والوصيـــة • غير ملتفت الى ان هذا لم يكن له من ذلك الا مجرد الاسم الذي احدثه فاعله ولا اعتبـــار بالاسماء بل الاعتبار بالمسميات ، فالهبة الشرعية هي التي أرشد اليها النبـــي صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله بشير والد النعمان عن تخصيص ولده النعمان بشيء من ماله وطلب منه ان يشهد على ذلك فقال لا اشهد على جور • ووقـــع منه الامر بالتسوية بين الاولاد وهو حديث صحيح له طرق متعـــددة • فالهبة المشتملة على التفصيل المخـــالف لفرائض الله ليست بهبة شرعية بل هي جور مضاد لما شرعه الله • فاطلاق اسم الهبة عليها مخادعة لله ولعباده ، فلا ينفذ من ذلك شيء بل هو باطـــل رده لكونـــه ليس على أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم • وهكذا من خصص بعض ورثته بنذر يخالف ما شرعـــه الله من الفرائض • فهذا ليس هو النذر الذي شرعه الله ، بل هو نذر طاغوتي • فان النذر الذي شرعه الله سبحانه هو الذي يقـــول فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم النذر ما ابتغي به وجه الله • ولا يقول لا نذر في معصية الله ، كما هو ثابت في الصحيح • وهذا النذر اخرج بعض ماله الى بعض ورثته مخالفة لما فرضه الله تعـــالى من المواريث • ثم سمى ذلك البعض نذرا لم يبتغ به وجه الله ولا اطاعه به ، بل ابتغى به وجه الله الشيطان الذي وسوس له بأن يخالف الشرع ، واطاعه بمعصية الله • وهكذا من اخرج بعض ماله على تلك الصفة بالوصية ، فان هذه الوصية المتضمنة للمفاضلة بين الورثة ليست الوصية التي شرعها الله تعالى لعباده بل وصية طاغوتية فان الوصية الشرعية هي التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد اعطى كل حق حقه ولا وصية لوارث • ويقول فيها الرب تبارك وتعالى (من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار) • ويقول فيها (لمن خاف من موصي جنفا او اثما فاصلح بينهم فلا اثم عليه) • والمراد بالاصلاح

ابطال ما جاء من الفساد في وصيته . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه
وآله وسلم ان الضرار في الوصية من أسباب النار وانه يحبط عبادة
العمر . كما اخرج ذلك جماعه وصححه من صححه فمن جاءته من هذه
الوصايا المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه فأنفذها من الثلث مستدلا
على ذلك بمثل حديث الثلث والثلث كثير وبمثل ما ورد من سائر الآيات
والاحاديث القاضية بالوصية على الاطلاق فقد غلط غلطا بيّنا . فان هذه
الوصية التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم الثلث والثلث كثير
هي وصية قربه . كما في القصة المشهورة الثابتة في الامهات ان سعد بن
ابي وقاص استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتصدق
بجميع ماله فما زال يُنازله حتى قال له الثلث والثلث كثير .

وهكذا ما ورد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله جعل لكم
ثلث اموالكم في آخر اعماركم . فاذ هقيّده بقوله في آخره زيادة في
حسناتكم . ولا يزيد في الحسنات الا ما كان قربه . واما وصايا الضرار
المتضمنة لمخالفته ما شرعه الله فهي زيادة في السيئات لا زيادة في الحسنات
فتبين لك ان هذه الوصية التي أذن بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم
ليست وصية الضرار ، فان تلك قد أخرجها الله من عموم مشروعية
الوصية بقوله غير مضار . واخرجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما
تقدم من الوعيد الشديد لمن يضار في وصيته ويمنع الوصية للوارث حتى
ثبت في بعض الروايات بلفظ لا تجوز وصيته لوارث . وقد اوضحته في
ابحاث متعددة من مصنفاتي . وليس المراد ههنا الا ارشاد طالب الانصاف
الى عدم الاغترار بما يفعله المتلاعبون باحكام الشرع من تسمية امور
تصدر عنهم من الطاغوت باسماء شرعية مخادعة لانفسهم واستدراجا لمن
لا فهم عنده ولا بحث عن الحقائق . وهذه الذريعة الشيطانية قد عمت
وطمّت خصوصا أهل البادية فانه بقي في أنفسهم ما كانت عليه الجاهلية

الاولى من عدم توريث الاناث ومن لا حظ له عندهم من الورثة وان كانوا
ذكورا ، فازادوا الاقتدى بهم ، ولكنهم لما كانوا مخبوطين بسوط الشرع،
مقهورين بسيفه ، نصبوا هذه الوسائل الملعونة ، فقالوا نذرنا وهبنا او
وصيّنا وساعدهم على ذلك طائفة من المقصرين الذين لا يعقلون الصواب
ولا يفهمون ربط المسببات بأسبابها فحرروا لهم تحريرات على أبلغ ما
يفيد النفوذ والصحة ، طمعا فيما يتعجلونه من الحطام الذي هو من أقبح
انواع السحت . فان ما يأخذونه على ذلك هو حرام ، كما ثبت عن الشارع
من تحريم حلوان الكاهن وأجر البغي وما يأخذه من يُعلّم كتاب الله
ونحو ذلك من الامور . ولا يشك من يفهم الحجج الشرعية ان سبب
تحريم ذلك هو كونه على تحليل حرام او تحريم حلال . وهذا الذي يكتب
هذه المكاتيب الطاغوتية المتضمنة لمخالفة ما شرعه الله لعباده من المواريث
وقدّره لهم في كتابه وقيّده بعدم الضرار هو أولى بتحريم ما يأخذه من
اولئك . وقد يقوم شيطان من شياطين المقلدة ومخذول من مخذولي
المشتغلين بالرأي فيجادل عن هذه الوصايا والنذر ورد الهبات ونحوها
وينزلها منزلة الوصايا والنذور والهبات الشرعية . ويورد ما قاله من
يقلده ممن يستعظم الناس كلامه ويقتدون بمذهبه ويحكي لهم ما صرّح
به في هذه الابواب ونحوها من مصنفاته غير متعقل . الفرق بين هذه
الطواغيت وبين تلك الامور الشرعية . ولا فاهم للمغايرة الكلية ، ولا
متأمل للاسباب التي تصدر عنها تلك الامور ، وان أهل العلم بأسرهم انما
تكلموا في مصنفاتهم على الامور الشرعية لا الامور الجاهلية ، وان مجرد
الاسم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال . كما لو سميت الخمر ماء . او
الماء خمرا . فانه لو كان الحكم يدور على التسمية لكان الخمر المسمى
ماء حلالا ، وكان الماء المسمى خمرا حراما . وهذا خرق للشرع وهتك
للدين . ومن اغتر به فليس من النوع الانساني بل من النوع البهيمي .
ولا ينبغي الكلام معه ، بل يقال له هذا الذي فيه النزاع ليس هو ما تكلم

عليه من تقلده وتقتدي به ، بل هو شيء آخر يضاده ويخالفه ، لان أهل الشرع انما يتكلمون على الامور الشرعية ، وهذا ليس شرعي بل طاغوتي فان فهم هذا استراح منه ، وان لم يفهمه ففي السكوت راحة من تحمل كرب مخاطبة السفهاء ٠

ولقد وقعنا مع جماعة من مقصري القضاة والمفتين في هذه المسألة في أمور عظيمة ، وخطوب جسيمة ، وفتن كبيرة ، لا يتسع المقام لبسطها ٠ والحق منصور والباطل مخذول ولله الحمد ٠

واعظم ما يتمسكون به من التغرير على العوام والتزوير على الملوك ومن يقدر على القيام بنصرهم ، استكثارهم من قولهم هذا خالف المذهب فعل كذا قال كذا ولم يخالف في الواقع الا الطاغوت ، ولا نصر الا الشرع ٠ فليحذر طالب العلم من الاغترار بمثل ذلك والروعة منه ٠ فان العاقبة للمتقين ، والله ناصر المحقين والاعمال بالنيات ٠ ولقد تلطف المحبون لهذه الطواغيت والمساعدون لهم على كتبها لما صممت على ابطالها وأبطلها كل من ترد عليه من قاض او غيره بعد ان وقع بيني وبينهم ما أشرت اليه سابقا فكان من جملة ما عدلوا اليه من الذرائع والوسائل الاقرار للذكور او لمن يحبون بديون ونفقات ومكتسبات ٠ ولم ينفق ذلك عليّ ولا التفت اليه ، بل كشفت عن أصل كل اقرار ، فما كان صادرا عن هذه المقاصد الفاسدة أبطلته ٠

ومن جملة ما تلطف به من له أولاد ذكورا واناثا ان يعمدوا الى اولاد اولادهم الذكور فينذرون عليهم ويوصون لهم ، ويقولون انهم فعلوا ذلك لغير وارث ، ولم يفعلوا ذلك الا لقصد تقليل نصيب بناتهم وتوفير نصيب الذكور ٠ وقد تتبعت هذا فما وجدت احدا يوصي لاولاد اولاده او ينذر عليهم الا ومعه بنات ، او له ميل الى بعض الاولاد دون بعض ، ولا يفعلون ذلك لمقصد صالح الا في أندر الحالات وأقلها ٠

ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية والنذور الشيطانية ، ما يفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور الاموات ، فانه لا مقصد لهم بذلك الا استجلاب الخير واستدفاع الشر من صاحب القبر ٠ وهو قد صار بين اطباق الثرى يعجز عن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره ٠ فلا يصح شيء من ذلك ، بل يتوجه على أهل الولايات صرفه في مصالح المسلمين ٠ ويعرّفون الناس بقبح ما يصنعونه من ذلك ، وانه من الامور التي لا يحل اعتقادها ، وان الضر والنفع واستجلاب الخير واستدفاع الشر بيد الله عز وجل ليس لغيره فيه حكم ولا له عليه اقتدار فان رجعوا عن ذلك وتابوا والا انتقل صاحب الولاية معهم الى ما هو اشد من ذلك ٠ ولا يدعهم حتى يتوبوا ٠ وهكذا ما يقع من الاوقاف على القبور فانها من الحبس الشيطانية ، والدلس الطاغوتية ٠ ولا يحل تقرير شيء منها ولا السكوت عنه ، بل صرفها في مصالح المسلمين من اهم الامور وأوجبها ٠ فان في عدم انكارها وابطالها مفسدة عظيمة تنشأ عنها الاعتقادات الباطلة المفضية بصاحبها الى نوع من انواع الشرك وهو لا يشعر ٠

[نقد المؤلف للفقهاء
في الاجماع والقياس]

ومن جملة ما ينبغي لطالب الحق ان يتصوره ويحذر من قبوله بدون كشف عنه ما يجعله كثير من أهل العلم دليلا يستدلون به على اثبات الاحكام الشرعية على العباد ، وهو الاجماع ، والقياس ، والاجتهاد ، والاستحسان . فاما الاجماع فقد اوضحت في كثير من مؤلفاتي انه ليس بدليل شرعي على فرض امكانه لعدم ورود دليل يدل على حجيته . واوضحت انه ليس بممكن لاتساع البلاد الاسلامية ، وكثرة الحاملين للعلم ، وخمول كثير منهم في كل عصر من الاعصار منذ قام الاسلام الى هذه الغاية . وتعذر الاستقراء التام لما عند كل واحد منهم . وان الاعمار الطويلة لا تتسع لذلك فضلا عن الاعمار القصيرة . فان المدينة الواسعة قد يعجز من هو من أهلها ان يعرف ما عند كل فرد من أفراد علمائها ، بل قد يعجز عن معرفة كل عالم فيها كما هو مشاهد محسوس معلوم لكل فرد فكيف بالمدائن المتباينة . فكيف بجميع الاقطار الاسلامية بدوها وحضرها ومداينها وقراها . فقد يوجد في زوة من الزوايا التي لا يؤبه لها ، ولا يرفع الرأس اليها من يقل نظيره من المشاهير في الامصار الواسعة . ومع هذا فهذه المذاهب قد طبقت الاقطار وصارت عند المنتمين الى الاسلام قدوة يقتدون بها ، لا يخرج عنها ويجتهد رأيه ويعمل بما قام عليه الدليل الا الفرد بعد الفرد ، والواحد بعد الواحد وهم على غاية الكتم لما عندهم والتستر بما لديهم ، خوفا من المتمذهبين ، لانهم قد جعلوا المذهب الذي هم عليه حجة شرعية على كل فرد من افراد العباد ، لا يخرج عنه خارج ،

ولا يخالفه مخالف ، الا مزقوا عرضه وأهانوه وأخافوه والدولة في كل أرض معهم وفي أيديهم . والملوك معهم لانهم من جنسهم في القصور والبعد عن الحقائق . واذا وجد النادر من الملوك ، والشاذ من السلاطين ، له من الادراك والفهم للحقائق ما يعرف بهالحق والمحقين . فهو تحت حكم المقلدة وطوع أمرهم لانهم جُنْدُه ورعيته . فاذا خالفهم خالفوه ، فيظن عند ذلك ذهاب ملكه ، وخروج الامر من يده ، واذا كان الحال هكذا فكيف يمكن الوقوف على ما عند كل عالم من علماء الاسلام . هذا باعتبار الاحياء ، وهو في أهل العصور المنقرضة من الاموات اشد بعدا واعظم تعذرا ، فانه لا سبيل الى ذلك الا ما يوجد في المصنفات ، وما كل من يعتد به في الاجماع يشتغل بالتصنيف ، بل المشتغلون بذلك منهم هم القليل النادر . ومع هذا فمن اشتغل منهم بالتصنيف لا يحظى بانتشار مؤلفاته منهم الا أقلهم . وهذا معلوم لكل احد لا يكاد يلتبس ، ولا شك ان من الملوك من يصر على أمر مخالف للشرع فلا يستطيع احد من أهل العلم ان ينكر عليه او يظهر مخالفته تقية ومحاذرة ورغبة في السلامة ، وفرارا من المحنة . وبالجملة فالدنيا مؤثرة في كل عصر ، واذا عجز الملك عن اظهار مذهبه على فرض انه من أهل الادراك والحال ان بيده السيف والسوط فما ظنك بعالم مستضعف لم يكن بيده الا اقلامه ومحبرته .

ومما أحكيه لك مما أدركته في أيام الحداثة ومن الصبا ان الامام المهدي العباس بن الحسين (١) رحمه الله تعالى احد ملوك اليمن ووالد إمامنا الامام المنصور حفظه الله ، كان له ادراك تام ، وفهم ثاقب ، واتصل بمقامه من أكابر العلماء المنصفين العالمين بالادلة جماعة فأظهر في الصلاة سننا كانت متروكة بترك المتمذهبين لها فقامت قيامة جماعة من المتفيهقين المقلدين ، وأثاروا حفائظ جماعة من شياطين البدوان الذين لا يعرفون من

(١) هو الامام المهدي عباس بن الحسين بن المتوكل تولى امامة اليمن من سنة ١١٦١ الى سنة ١١٨٩ (انظر ترجمته في كتاب المؤلف البدر الطالع ج ١ ص ٣١٠) .

الاسلام الا اسمه ، ولا يدرون من الدين الا رسمه ، فتجمعوا في بواديهم وقالوا قد خرج الإمام من مذهب الشيعة الى مذهب السنّة ، ومن الاقتداء بعلي بن ابي طالب ، الى الاقتداء بمعاوية • كما لقنهم هذه المقالة شياطين المقلدة • ثم خرجوا عليه في جند يعجز عن مقاومتهم ، فما وسعه الا مصانعتهم بالمال والاعلان بترك تلك السنن التي هي أوضح من شمس النهار •

وأحكي لك ايضا حادثة أشنع من هذه كائنة في عام تحرير هذه الاحرف هي اني لم أزل منذ اتصلت بخليفة عصرنا حفظه الله مرغبا له في العدل في الرعية على الوجه الذي ورد الشرع به ، ورفع المظالم المخالفة لقطعيات الشريعة كالمكس [1] ونحوه ، والاقتصار على ما ورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء فألهمه الله سبحانه الى الاجابة الى ذلك بعد طول مداراة وترغيب ، فجعلت مكتوبا محكيا عنه مضمونه انه قد أمر عماله بالعدل في الرعية ورفع كل مظلمة والاقتصار على ما ورد به الشرع في كل شيء ، وان من لم يمتثل هذا الامر كان على القاضي في ذلك القطر ان ينهي أمره الى حضرة الإمام حتى يحل به من العقوبة ما يردعه ويردع أمثاله • وفي هذا المكتوب التشديد في الربا والسياسة الشيطانية والاخذ على قضاة الاقطار ان يبعثوا من يُعلّم الناس أمر دينهم ، من الصلوة والصيام والحج والزكاة والتوحيد على الوجه المطابق لمراد الله عز وجل • وقرر الإمام ذلك وأنفذه وأظهره في الناس ، فقامت شياطين المقلدة وفراعين البدوان وخونة الوزراء في وجه هذا الامر قياما يبكي له الاسلام ، ويموت كمدا عنده الاعلام ، فجعلوا هذا المعروف منكرا ، وما كان الامر السابق عليه من المنكر معروفا وليس العجب ممن له حظ في المظالم ونصيب من المكس وقسط من السحت • فقد يفعل ذلك من يؤثر الدنيا على الدين ويبيع الآجل بالعاجل • ولكن العجب من جماعة لا حظ لهم في شيء من

(1) هو ما يشبه الآن نظام الجمرك .

ذلك ، ولهم حظ من العلم ونصيب من الورع متكئين على أرائكهم عاكفين على دفاترهم صاروا ينكرون من هذا الامر ما يعلمون انه مخالفة لقطعيات الشريعة ، مع علمهم بحكم من خالفها ، واعترافهم بأن هذا هو الحق الذي اتفقت عليه الكتب المنزلة والرسل المرسلة ، لكنهم يتركون تدبير الشرع ، ويعودون لتدبير الدولة وما يصلحهم ويصلح لهم ، حتى كأنهم من أهل الولايات، ومن القابضين للجبايات وظهر ما عندهم وتكلموا به للناس ، حتى اعتقد من لا حقيقة لديه من العامة ، ومن يلتحق بهم ومن اصحاب الدولة ومن شابههم • اني أرشدت الى خطأ وأمرت بمنكر ، فاجتمع من جميع ما قدمت ذكره تشوش خاطر الإمام • ومن له رغبة في شرائع الاسلام ، فتوقف الامر ولم ينفذه من يقدر على التنفيذ ممن له رغبة فيه ، ووجد اعداء الله من الظلمة المجال فبالغوا في المخالفة والمدافعة والمحاولة والمصاولة ، فاسمع هذه الاعجوبة واعتبر بها ، واني لا أشك ان الله سبحانه منفذ شرعه وناصر من نصره وخاذل من خذله ومتم نوره على رغم أنف من اباه • ولكن للباطل صولة وللشيطان جولة ، حتى يقر الحق في قراره ويتم من العدل ورفع الظلم ما أمر الله به ، ومن رام ان ينصر باطلا او يدفع حقا فهو مركوس من غير فرق بين رئيس ومرؤوس (واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل) • وعند عزائم الرحمن يندفع كيد الشيطان •

واما القياس فاعلم انه قد رسمه أهل الاصول بأنه مساواة أصل للفرع في علة حكمه ثم شرطوه بشروط وقيدوه بقيود هي معلومة عند من يعرف الفن لكنهم توسعوا في هذه المساواة واثبتوها بأمور هي مجرد خيال ، ليس على ثبوته اثارة من علم •

وبيانه انهم جعلوا مسالك العلة انواعا فاكثر ما قيل انها عشرة • ثم جميع هذه المسالك الا القليل هي بحت الرأي ومحصل الدعاوي المجردة، فعليك ان تضع قدمك موضع المنع ، وتقوم في مقام الانكار ، حتى يوجب

عليك المصير الى شيء منها ما لا يقدر على دفعه ولا يشد في صحته كمسالك النص على العلة ، ومسلك القطع بانتفاء الفارق ، ومثل هذا فحوى الخطاب ، وما شابه هذه الامور ، واياك ان تثبت احكام الله بخيالات تقع لك او لعالم مثلك من سابق الامة او لاحقها ، فان عليك من الوزر والوبال ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب •

وبالجملة فالقياس الذي يذكره أهل الاصول ليس بدليل شرعي تقوم به الحجة على احد من عباد الله • ولا جاء دليل شرعي يدل على حجيته ، وان زعم ذلك من لا خبرة له بالادلة الشرعية ، ولا بكيفية الاستدلال بها يعرف هذا من يعرفه ، وينكره من ينكره ، واما ما كانت العلة فيه منصوصه فالدليل هو ذلك النص على العلة لان الشارع كأنه صرح باعتبارها اذا وجدت في شيء من المسائل من غير فرق بين كونه أصلا او فرعا • وهكذا ما وقع القطع فيه بنفي الفارق فانه بهذا القدر قد صار الامران اللذان لا فارق بينهما شيئا واحدا ما دل على احدهما دل على الآخر من دون تعدية ولا اعتماد اصلية ولا فرعية • واما فحوى الخطاب ولحنه فهذان هما راجعان الى المفهوم والمنطوق ، وان سماهما بعض أهل العلم بقياس الفحوى وبحث العمل بالمفهوم خارج عما نحن بصدده وقد جاءت لغة العرب الحاكية لما كانوا يفهمونه ويتحاورون به ويعملون عليه ان مثل هذا المفهوم كان معتبرا لديهم مأخوذا به عندهم • ولهذا قال من قال من العلماء انه منطوق لا مفهوم •

ولقد تلاعب كثير من أهل الرأي بالكتاب والسنة تلاعبا لا يخفى الا على من لا يعرف الانصاف بهذه الذريعة القياسية وعولوا على ما هو منه اوهن من بيت العنكبوت ، وقدموه على آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية • وما هذه بأول فاقرة جاء بها الشيطان ، وحسّنها لنوع الانسان ، وذاد بها عباد الله عن شرائعه • ومن أنكر هذا فلينظر المصنفات الى الفقه ، ويتتبع

مسائلها المبنية على مجرد القياس المبني على غير أساس مع وجود أدلة نيرة وبراهين مرضية • ومن هذا الباب دخل أهل الرأي واليه خرجوا من أبواب الادلة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم•

فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

وكل من له فهم لا يغرب عنه ان الله تعالى لم يتعبد عباده بمجرد قول عالم من العلماء انه قد أفاده مسلك تخريج المناط ، او تنقيح المناط ، او الشبه ، او الدوران ، او نحو هذا الهذيان • هذا على فرض انه لم يوجد في الكتاب والسنة ما يخالف هذا المسلك الذي لا يسلكه المتورعون ، ولا يمشي عليه المتدينون ، فكيف اذا كان الدليل المخالف له واضح المنار ظاهر الاشتهار قريب الديار لمن سافر اليه من أهل الاعتبار • والكلام في هذا البحث طويل الذيول ، وقد أفرده جماعة من أهل العلم بالتصنيف وليس المراد هنا الا مجرد التنبيه لطالب العلم • واني وان حذرته عن العمل بهذا القياس ، فلا احذره عن العلم به وتطويل الباع في معرفته والاحاطة بما جاء به المصنفون من أهل الاصول في مباحثه ، فانه لا يعرف صحة ما قلته الا من عرفه حق معرفته ، وقد يعرف الشيء ليجتنب ويُحذر• ويعرف الشر لا للشر •

واما الاستحسان فاعلم انهم رسموه بأنه دليل ينقدح في نفس المجتهد ويعسر عليه التعبير عنه وانت لا يخفى عليك ان بقي لك نصيب من فهم ، وحظ من انصاف ، ان الله تبارك وتعالى لم يتعبد احدا من عباده بدليل يستدل به احد من علماء الامة ويمكنه التعبير عنه وابرازه من القوة الى الفعل الا اذا كان صحيحا تقوم به الحجة ، فكيف يتعبدهم بما انقدح في نفس فرد من أفرادهم على وجه لا يمكنه التعبير عنه ولا ابرازه الى الخارج • فان هذا الذي انقدح في نفسه لا ندري ما هو ولا كيف هو ،

فكيف يكون حجة على احد من الناس وقد عجز صاحبه عن بيانه وعسرت عليه ترجمته ، فيا لله العجب من هذا الهذيان وكيف استجاز قائله ان يحكم عليه وانه دليل شرعي ويفتري على الشرع ما ليس منه ، وعلى الله سبحانه ما لم يقله • وبالجملة تبيان فساد هذا لا يحتاج الى ايضاح ، وافهام البشر وان بلغت في الضعف اي مبلغ وقاربت افهام الدواب فهي لا تطلب البرهان على بطلان هذا الهذيان ، ولو احتاج محتاج الى الاستدلال على بطلان هذا الباطل لزمه ان يدفع فرية كل مفتر على الله • ولله در الإمام الشافعي حيث يقول (من استحسن فقد شرّع) •

واما الاجتهاد فقد رسموه بأنه استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي • ولا شك ان هذا الظن الكائن بعد الاستفراغ وان تعبد الله به ذلك المستفرغ لكونه فرضه عند فقد الدليل كما تقدم البحث عن هذا والاستدلال عليه • لكن الشأن في كون هذا الظن حجة على احد من عباد الله ممن لم يقع له هذا الظن ولا تقدم له استفراغ الوسع • فان الحجة الشرعية ليست ظنون بعض المكلفين بالشرع المتعبدين به على البعض الآخر ولا جاء في الشريعة حرف واحد مما يفيد هذا ويدل عليه ، بل صرح الكتاب العزيز بالنهي عن اتباع الظن وانه لا يغني من الحق شيئا وان بعضه اثم • وهذه الادلة الكلية توجب على الانسان ان لا يعمل بظنه في شيء كائنا ما كان الا ما خصصه الشرع ، فكيف بظن غيره •

فيا معشر المقلدة اسمعوا وعوا ، فانكم انما تتبعون ظنونا خطرت لقوم • الحجة من الله بما في كتابه وسنة نبيه قائمة عليهم كما هي قائمة عليكم ، وهم متعبدون بها كتعبدكم بها ، فما لكم ولهم ، وماذا عليكم من ظنونهم ، فقد أسفر الصبح لذي عينين ، وارتفع ما على قلوب قوم من الرّين ، ان بقي للهداية مجال ، ولاستماع الصواب احتمال • وقد كررت الكلام في المقام بما لا يحتاج معه الى التطويل هنا •

(ابتلاء الاسلام بالمذاهب وتقديس الاموات)

واعلم ان المفاسد الماحقة لبركة العلم والمفرقة لكلمة المسلمين كثيرة جدا ، والاحاطة بها تتعسر ، وقد ذكرنا هنا ما حضر عند التحرير ، واعظم ما أصيب به دين الاسلام من الدواهي الكبار ، والمفاسد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار ، أمران أحدهما هذه المذاهب التي ذهبت ببهجة الاسلام وغيرت رونقه وجهمت وجهه وقد قدمنا في هذا ما يستغني عن الزيادة ان بقي له فهم يرجع به الى الحق ويخرج به من الباطل •

والامر الثاني هذه الاعتقادات التي حدثت لهذه الامة في صالحي الاموات حتى صار الرجل يقرن من يعتقده من الاموات بمن يقلده منهم • فيقول إمامه في المذهب فلان ، وشيخه في الاعتقاد والمحبة فلان • وهذا يقوله ظاهرا ، وهو لو كوشف ونطق بما في ضميره لقال وشيخه الذي يعوّل عليه في زعمه عند الشدائد في قضاء حاجاته ونيل مطالبه فلان • وصمي صمام من خلف وامام • فان هذه الداهية الدهياء والمصيبة الصماء العمياء فقد كان أوائل المقلدة يعتمدون على أئمتهم في المسائل الشرعية ويعوّلون على آرائهم ، ويقفون عند اختياراتهم ، ويدعون نصوص الكتاب والسنة ولكنهم لا ينزلون حوائجهم بغير الله عز وجل، ولا يناجون سواه ولا يرجون غيره ، ولا يعوّلون الا عليه ، ولا يطلبون الا منه ،

فهم وان خلطوا صومهم وصلاتهم وحجهم وزكاتهم وسائر عباداتهم ومعاملاتهم بآراء الرجال ، وقلدوا في كثير من تفاصيلها ما لم يأذن الله بتقليده ، وأخذوا دينهم على الوجه الذي لم يأمر الله به ولا ارتضاه لهم. لكنهم لم يخلطوا في معنى لا اله الا الله ، ولا تلاعبوا بالتوحيد ، ولا دخلوا في أدوار الشرك ومضايق الجحود وبلايا الجاهلية وما كانوا عليه .

واما هؤلاء فعمدوا الى جماعة من الاموات الذين لا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون فقصدوهم في المهمات ، وعكفوا على قبورهم ونذروا لهم النذور ونحروا لهم النحاير وفزعوا اليهم عند المهمات . فتارة يطلبون منهم من الحاجات ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وخصوهم بالندا وأفردوهم بالطلب . وتارة ينادونهم مع الله عز وجل ويصرخون بأسمائهم مع اسم الله سبحانه فيأتون بكلمات تقشعر لها جلود من يعلم معنى لا اله الا الله ، ويعرف مدلول قل هو الله احد ، وتلاعب بهم الشيطان في ذلك ونقلهم من مرتبة الى مرتبة ، ومن منزلة الى منزلة ، حتى استعظموا من جانب هؤلاء الاموات الذين خلقهم الله ورزقهم وأحياهم وأماتهم ما لا يستعظمونه من جانب باري البرية وخالق الخلق يستعظمون جل اسمه وتعالى قدره ولا اله غيره . وأفضى ذلك الى ان احدهم يحلف بالله تعالى فاجرا ولا يحلف بمن يعتقده من الاموات ، ويقدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت الله ، ولا يقدم عليها عند قبر من يعتقده . وتزايد الشر وعظمت المحنة وتفاقمت المصيبة حتى صار كثير منهم ينسبون ما أصابهم من الخير في الانفس والاموال والاهل الى ذلك الميت . وما أصابهم من الشر في ذلك اليه ، وقد صار تحت أطباق الثرى وغُيّب عن أعين البشر وصار مشغولا عاجزا عن جر نفع اليه او دفع ضر عنه منتظرا لما ينتظر له مثله من الاموات لا يدري ما نزل به من هؤلاء النوكاء ولا يشعر بما ألصقوه به . ولو علم بذلك لجالدهم بالسيف ، ودفعهم بما يقدر عليه .

ومن أعظم الذرائع الشيطانية والوسائل الطاغوتية انهم بالغوا في التأنق في عمارة قبور من يعتقدونه من الصالحين ، ونصبوا عليها القباب ، وجعلوا على ابوابها الحجاب ، ووضعوا عليها من الستور العالية ، والآلات الرائعة ، ما يبهر الناظر اليه ، ويدخل الروعة في قلبه ، ويدعوه الى التعظيم كما جُبلت عليه طبائع العوام من دخول المهابة في قلوبهم والروعة في عقولهم بما يتعاطاه المريدون لذلك ، كما يفعله غالب ملوك الدنيا من المبالغة في تزيين منازلهم وتعظيمها والتأنق في بنائها والاستكثار من الحجاب والخدم والصياح والجلبة وارتباط الاسود ونحوها من الحيوانات ولبس فاخر الثياب قاصدين بذلك تربية المهابة لهم والمخافة منهم . وصنع هؤلاء القبوريون كصنعهم ، ففعلوا في الاموات منجوالب التعظيم وأسباب الهيبة ما يكون له من التأثير في قلوب من يزورهم من العامة ما لا يُتقادر قدره ثم يزيد ذلك قليلا قليلا حتى يحصل لهم من الاعتقاد في اولئك الاموات ما يقدح في اسلامهم ويخدش في توحيدهم . ولو اتبع الناس ما أرشد اليه الشارع من تسوية القبور كما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث ابي الهياج قال قال لي علي بن ابي طالب الا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لا تدع قبرا مشرفا الا سويته ولا تمثالا الا طمسته ، فأنظر كيف بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أميرا لهدم القبور المشرفة وطمس التماثيل هو أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ثم بعث علي أيام خلافته أميرا على ذلك هو ابو الهيّاج . واخرج ابو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث جابر ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى ان يجصص القبور وان يُبنى عليه وان يكتب عليه وان يوطىء واخرجه مسلم في صحيحه بدون ذكر الكتابة . قال الحاكم النهي عن الكتابة على شرط مسلم وهي صحيحة غريبة . قال والعمل من أئمة المسلمين من المشرق الى المغرب على خلاف ذلك يعني يقررون كتابة الاسم من دون

انكار انتهى • وأقول لا حجة في أحد خالف السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كائنا من كان قل عددهم او كثر فليس لهم ان يشرعوا للناس غير ما شرعه الله ، بل يُحملون على الخطا وعدم العناية بأمر الشرع والتساهل في أمر الدين • وما هذا بأول باب من ابواب الشرع أهمله الناس وخالفوا فيه السنن الواضحة والشرائع الثابتة ، ولا سيما بعد ان استعلى الجهل على العلم وغلبت آراء الرجال ما جاء في الكتاب والسنة ، وصار التقليد والتمذهب هو المعروف عند الجمهور وغيره المنكر ولا اعتبار بسكوت أهل العلم الذين هم أهله فانهم مغلوبون مكثورون مخبوطون بسوط العامة الذين منهم السلاطين وجنودهم كما قدمنا الاشارة الى هذا واطباق أهل المشرق والمغرب على الكتابة هو كاطباقهم على رفع القبور وتجصيصها ووضع القباب عليها وجعلها مساجد ، فخالفوا ما تقدم عنه صلى الله عليه وآله وسلم مع مخالفتهم لما ثبت في الصحيح عنه ثبوتا لا يخالفه فيه مخالف من ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تجعلوا قبري مسجدا لا تجعلوا قبري وثنا لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد • وكان هذا القول من آخر ما قاله في مرض موته كما ثبت ان آخر ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم الامر باخراج اليهود من جزيرة العرب والنهي عن اتخاذ قبره مسجدا وتنفيذ جيش اسامة • ثم كان الواقع من أمته بعد هذا التأكيد انهم بنوا على قبره الشريف قبة • وما زال ملوك الاسلام يبالغون في تحسينها وتزيينها ورفع سمكها ، ووضعوا القباب ورفعوا القبور ، وكانوا يفعلون هذا بأهل الصلاح • ثم تزايد الشر وصاروا يفعلون ذلك لمن له رئاسة دنيوية • وان كان من أفجر الفجرة • وقد يوصي الميت في وصيته بذلك •

وأعجب من هذا كله تصريح جماعة من أهل الفقه بأنه لا بأس بذلك اذا كان الميت فاضلا ، ودونوه في مصنفاتهم التي هي مدارس الطلبة ، وضربوا بما ذكرناه من الادلة في وجه من جاء به ورموا بها خلف الحائط • ولم

يردعهم دين ولا وزعهم حياء وقابلوا بما أسلفنا بقولهم انه قد استحسن رفع هذه القباب وتزيين هذه القبور بعض السلف • فلا كثر الله في أهل العلم ولا من امثال من استحسن مخالفة الشرع من السلف الذين صرتم تقوّلون عليهم بما لم يقولوه ، فانه اذا صح ما تزعمونه من انه استحسن ذلك بعض السلف فلا حجة في استحسان من استحسن مخالفة الشرع كائنا من كان • فانه اول مبتدع ومخالف للشرع وعاص لله ولرسوله وللشريعة المطهرة •

ولقد تزلزل بهذا السبب اقدام كثير من العباد عن الاسلام ، وذهب بهذه الذريعة ايمان جماهير من الانام ، فانا لله وانا اليه راجعون • فانها لو كانت القبور على الصفة التي شرعها الله وعلمها الامة رسول الله لم يحدث من هذه الاعتقادات الفاسدة شيء • ولا يشك عاقل ان أعظم ما أدخل فاسد الاعتقاد في صدور كثير من العباد هو هذا الامر مع سكوت العلماء عن البيان الذي امرهم الله به ومجاملتهم للعامة اما مع علمهم بما في هذا الامر من الخطر ، او مع غلبة العادات الطارئة عليهم لما عندهم من العلم ، حتى ذهب ذلك بما يعلمونه ومحق بركته وأبطل ثمرته •

ومما أحكيه لك انه كان يبلغني وانا في الطلب للعلم والاشتغال به ما يصنعه أهل القطر التهامي من الاجتماع لزيارة جماعة من المعتقدين لديهم وما يحدث منهم عند ذلك من النهيق الذي لا يعود صاحبه الى الاسلام سالما مع عدم انكار من بتلك الديار من العلماء بل كان الكثير منهم يحضرون تلك المجامع ويشهدون تلك الزيارات فتكون المنكرات وما يحدث من انواع الشرك بمرأى منهم ومسمع ، فكتبت رسالة الى العلماء من أهل تلك الديار على يد رجل من أهل العلم الراحلين الى هنالك فلما عاد اخبرني بما حصل من الاستنكار منهم لما كتبته اليهم وعدم الاعتداد به والالتفات اليه فقضيت من ذلك العجب • ثم لما ولى القضاء ببعض

البنادر التهامية بعض علماء صنعاء الاكابر وشاهد من هذه المنكرات ما حمله على ان يحرر اليّ سؤالا فأجبته برسالة مطولة سميتها الدر النضيد في اخلاص التوحيد (١) ، وأمرته ان يكتب نسخا ويرسلها الى القضاة في تلك الديار ففعل ولم يؤثر ذلك شيئا بل كتب كثير علماء تلك الديار على رسالتي مناقشات واعتراضات • فلم تمض الا ايام قلائل حتى نزل بهم السيف وهدم الله تلك الطواغيت ، وذهب بتلك الاعتقادات الفاسدة ، فهي الآن صافية عن تلك الامور التي كان يتلوث بها أهلها ، فلا يقدر أحد منهم ان يستغيث بغير الله سبحانه ، او ينادي ميتا من الاموات ، او يجري ذكره على لسانه • ولكنه لم يغسل أدرانهم ويذيب بالكدورات التي كانت تشوب صافي اسلامهم الا السيف ، وهو الحكم العدل ، في من استحكمت عليه نزعات الشيطان الرجيم ، ولم تردعه قوارع آيات الرحمن الرحيم •

ويلتحق بالامرين المذكورين أمر ثالث ، وان لم تكن مفسدته كمفسدتهما ، ولا شموله كشمولهما ، وهو ما صار عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة ، فقد كان اول هذا الامر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة الى اعلا مبلغ ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة ، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها ، ولم يغتر ببهجتها ، ثم حدث اقوام جعلوا هذا الامر طريقا الى الدنيا ومدرجا الى التلاعب بأحكام الشرع ، ومسلكا الى ابواب اللهو والخلاعة ، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك ، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة ، فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقربهم من الآخرة ، وينقلهم من رتبة الى رتبة على أعراف يتعارفوها ، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه • والخير كل الخير في الكتاب والسنة ، فما

(١) هذه الرسالة مطبوعة .

خرج عن ذلك فلا خير فيه وان جاءنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة ، واتقاهم لله تعالى واخشاهم له في الظاهر فانه لا زهد لمن لم يمش على الهدى النبوي ، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم • فان الامور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وايقاعها على ابلغ الوجوه • بل انما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع ، والمشي على الطريقة المحمدية • واعتبر بالخوارج فقد وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التي لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا الى شيء منها ، ولا تعتبر بالنسبة اليها ، ومع هذا فقال انها لا تجاوز تراقيهم • وقال انهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية • وقال انهم كلاب النار ، فانظره كيف كانت مجاهداتهم وعباداتهم وقيامهم الليل وصيامهم النهار نقمة عليهم وبلية ومحنة لهم لم تعد عليهم بنفع قط الا ما أصيبوا به من الخسار والنكال والوبال فكانت تلك الطاعات الصورية من صلوة وصيام وتهجد وقيام هي نفس المعاصي الموجبة للنار • وهكذا كل من رام ان يطيع الله على غير الوجه الذي شرعه لعباده وارتضاه لهم فانه ربما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله واني أخشى ان يكون من هذا القبيل ما يقع من كثير من المتصوفة من تلك الاقوال والافعال التي ظاهرها التنفير عن الدنيا والبعد عن أهلها والفرار عن زينتها مع تلك الوضائف التي يلازمونها من التخشع والانكسار والتلهب والتأسف والصراخ تارة والهدوء تارة أخرى والرياضات والمجاهدات وملازمة اذكار يذكرون بها لم ترد في الشرع على صفات لم يأذن الله بها مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنة ، والقعود في تلك المساطب القذرة ، وما ينضم الى ذلك من الهيام والشطح والاحوال

التي لو كان فيها خير لكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه الذين هم خير القرون •

ولا أنكر ان في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والاصنام المستورة عن الناس كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغا عظيما ، وارتقى مرتقا جسيما ، ولكنني أكره له ان يتداوى بغير الكتاب والسنة ، وان يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده ، فان في القوارع القرآنية ، والزواجر المصطفوية ، ما يغسل كل قذر ، ويرحض كل درن ، ويدمغ كل شبهة ، ويدفع كل عارض من عوارض السوء • فانا أحب لكل عليل في الدين ان يتداوى بهذا الدواء فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا له متفهما لمعانيه، باحثا عن مشكلاته ، سائلا عن معضلاته ، ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية ، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليله ونهاره ، ويتفكر في أخلاقه وشمائله ، وهديه وسمته ، وما كان عليه اصحابه ، وكيف كان هديهم في عباداتهم ومعاملاتهم• فانه اذا تداوى بهذا الدواء ولاحظته العناية الربانية ، وجذبته الهداية الالهية ، فاز بكل خير مع ما له من الاجر الكثير ، والثواب الكبير ، في مباشرة هذه الاسباب ، واذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الامور حائل ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع ، فقد نال بتلك الاسباب التي باشرها اجرا عظيما ، لانه طلب الخير من معدنه ، ورام نيل الرشد من موطنه ، فكان له في تلك الاشغال من الاجر ما لطلبة علم الشرع • لانه قد جهد نفسه في الاسباب ، ولم يفتح له الباب •

فانظر كم بين هذين الامرين من المسافة الطويلة ، فان طالب الرشد بغير الاسباب الشرعية لا يأمن على نفسه بعد الوصول الى مطلوبه من ان يكون صنعه كصنع الخوارج في خسرانهم بما ظنوه ربحا ووقوعهم في الظلمة وقد كانوا يظنون انهم يلاقون صبحا لانهم خالفوا الطريقة التي

أرشد الله اليها عباده وأمرهم بسلوكها • واذا كان هذا الامر مجوزا في طلبة الخير من غير طريق الشرع كصلحاء الصوفية الذين لا رغبة لهم في غير تهذيب أخلاقهم على وجه يوجب زهدهم فيما ترغب النفوس اليه ، وتتهالك الطبائع البشرية عليه ، فما ظنك بمن كان من متصوفة الفلاسفة الذين يدورون بمرقعاتهم وأبدانهم القشفة وثيابهم الخشنة ووجوههم المصفرة حول ما يقوله الفلاسفة من تلك المقالات التي هي ضد الشرع • وخلاف له وينهقون عند ادراك شيء من تلك المعارف الشيطانية نهيقا منكرا ويسمون ذلك حالا ، وهو عند التحقيق حال حائل عن طريق الدين ، وخيال مائل عن سبيل المؤمنين • وللرد على هؤلاء جمعت الرسالة التي سميتها الصوارم الحداد (١) هي من المجموعات التي جمعتها في أيام الحداثة وأوائل الشباب ، وبعد هذا كله فلست أجهل ان في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة والمشي على الطريقة المحمدية والصراط الاسلامي ، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها بمحل يتقاصر عنه غيره ، ويعجز عنه سواه ، ولكنني في هذا المصنف بسبب الارشاد الى العمل بالكتاب والسنة ، التنفير عما عداهما كائنا ما كان • فلست أحب لمن أراد القرب الى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده ان يتسبب الى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة او مجاهدة او خلوة او مراقبة ، او يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة الى الله عندهم ، بل يطلب علم الكتاب والسنة ويأخذهما عن العلماء المتقنين لهما المؤثرين لهما على غيرهما المتجنبين لعلم الرأي وما يوصل اليه ، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه ، فانه اذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة ، وظفر بهدى الصحابة ، وسلم من البدع كائنة ما كانت ، فعند ذلك يحمد مسراه ، ويشكر مسعاه ، ويفوز بخير أولاه واخراه •

(١) في الرد على أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود وهي مخطوطة بمكتبة الجامع .

الفهرس